



تمكان

رواية

ثروت الخرباوي

رواية

زِمَكَان

تأليف
شروت الخرباوي



العنوان:
زمان

تأليف:
شروت الخرباوي

إشراف عام:
داليا محمد إبراهيم

جميع الحقوق محفوظة © لدار نهضة مصر للنشر

يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين
أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية
أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي سريع من الناشر.

الترقيم الدولي: 978-977-14-4596-8

رقم الإيداع: 2013 / 13023

الطبعة الأولى: يونية 2013

تليزون: 33472864 - 33466434 02

فاكس: 33462576 02

خدمة العملاء: 16766

Website: www.nahdetmisr.com

E-mail: publishing@nahdetmisr.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

21 شارع أحمد عرابي -
المهندسين - الجيزة

إهداء

زمنٌ ذهب.. وزمنٌ أتى.. وزمنٌ سيجيء، لا الزمن
الماضي بشموخه استطاع أن يترك بصمته على
الحاضر، ولا الحاضر استطاع أن يقبس لنفسه نوراً
من الزمن الماضي.. شموخ الزمن الماضي لم يكن
في أفكاره، فلكل زمن ما يناسبه من اجتهاد فكري
ولكن شموخ الزمن الماضي كان في رجاله الذين
ثبتوا على مبادئهم وأوذوا من أجلها.. والفكر غير
المبدأ؛ فالأفكار تتغير بتغير المعطيات، الواقع،
الزمن، والمبدأ ينبغي أن يظل ثابتاً؛ من أجل
ذلك أهدي هذا الكتاب - عبر الزمن - إلى رجال
عاشوا مبادئهم ولم يساوموا عليها.. أهديه لابن
حنبل والعز بن عبد السلام وعمر المختار وغاندي
وجيفارا.. لعلنا نقتبس من نورهم ونسير على وحي
ثباتهم.



الحياة الأولى

زمان

الحلم

«عندي دهشة، ما زالت الحياة تمتحنني الدهشة».

أم العارفين بالله سيادة الحكمة «ميمنة النورانية»

رضي الله عنها.

«رأيت فيما يرى النائم أنني أعيش وكل من أعرف على شاطئ بحر، دخلت إلى البحر لأسبح وأنا لا أعرف السباحة فوجدت ماء البحر قرمزياً فاندعشت، أخذت أتحمس موضع قدمي وأستند إلى سور كبير مشيد وسط البحر، وعندما توغلت قليلاً وجدت الماء قد أصبح رائقاً صافياً في لون زرقة السماء ففرحت به أيما فرحة، نظرت إلى الجانب الأيسر للبحر فوجدت بيوتاً من فضة ذات قباب خضراء مقامة على الماء والماء يغمر أبوابها، أخذتني الدهشة فأخذت أعمل الفكر، كيف يعيش أصحاب هذه البيوت وكيف يقضون شؤونهم! وبينما أنا كذلك وجدتني قد توغلت كثيراً في لجة البحر فنظرت إلى الماء فوجدته في لون الحليب، بياضه غريب يبهج القلوب والأبصار، اندفعت موجة طيبة إلى وجهي تداعبه وكأنها ترغب في احتضانه

فتذوق لساني ماءها فإذا به أحلى من العسل المصفى!! ابتهج خاطري وكاد قلبي يقفز من سعادة مندهشة خالطت عروقه، وإذا نظرت إلى الجانب الأيمن للبحر وجدت بيوتاً شاهقة كالسفن يحملها الماء الأبيض العذب، كانت هذه البيوت شفافة رأيت من خلالها ما خلفها ولكنتي لم أر ما فيها! تركت نفسي أسبح دون أن أتخسس موضع قدمي فإذا بالماء يحملني ويدغدغ مشاعري، مكثت في البحر لا أرغب في مغادرته، وكيف لي أن أترك البحر وأنا في عين النعيم!! ولكن الماء حملني للشاطئ وأنا أقاومه، وحين وجدتني أقف على الرمال سعيت سعياً للناس وصحت فيهم: إنكم لا تعرفون مدى حلاوة الماء الذي في وسط البحر، ادخلوا لتعرفوا، انظروا لتروا، تذوقوا لتبينوا، وحين استيقظت كانت حلاوة الماء لا تزال على لساني».

وإذ قصصت رؤيائي على جدي قال: ستعرف تأويلها بعد حين.



الزمن والمكان

مع الزمن ينتقل المرء من الشباب إلى الكهولة ثم إلى الشيخوخة، والشيخوخة «عُمر الحكمة» ومع شيخوختي بدأت الأمراض تغزو جسدي وتزلزل شراييني، هي الأمراض التي تعطيك عبق الحياة الحقيقي وحكمتها، هي التي تجعلك ترى الحقيقة على حقيقتها، تظل تكدح في الحياة وأنت تنظر إليها فتراها أحياناً صغيرة وأحياناً كبيرة، تظنها حيناً محدبة وحيناً آخر مقعرة،

وكانك تجلس عند طيب العيون تخضع لتجارب العدسات الصالحة لك، فإذا تهادت الأمراض إلى جسدك، انطبقت عدستها مع حياتك، وقتئذ سترى الدنيا بحجمها الحقيقي وتفصيلاتها الدقيقة، الأمراض تمنح بعضنا الحكمة، فنعرف أعمارنا الحقيقية، بالزمن الذي مر علينا، والزمن يمر على أجسادنا ولكنه لا يمر على أرواحنا أبدًا، نظل عمرنا كله نشعر أننا ما زلنا في ميعة الصبا، نقاوم مروره على أجسادنا مقاومة فارغة هشة وهمية، كأن يصيغ البعض شعره ليقضي على اللون الأبيض، أو يلجأ البعض لأطباء التجميل، ولكن مهبا حاولنا فإن الزمن يمر وسيمر وسينظر إلينا شزراً وهو يقول: حتماً سأضع بصمتي على أجسادكم، الجسد يفنى وتبقى الروح، ولأنها تبقى فإنها لا تخضع لقانون الزمن، في أحلامنا تهيم أرواحنا عبر الزمن فتعود بنا لطفولتنا، فتقابل مع رفقاء لنا فإذا بنا نراهم بهيئتهم التي كانوا عليها وهم في عمر الطفولة، نرى ذلك لأن الروح هي التي تسيح في الكون وليس الجسد، النوم نوع من أنواع الموت، روح النائم تفارق جسده إلا أنها تظل موصولة به، وهي في حركتها تنطلق في أزمنة مختلفة؛ لأنها غير خاضعة لزمان ولا مكان.

تفاقم عليّ المرض وعرفت أن الطبيب قال لأهلي إن أيامي في العمر معدودة، وإنه لا أمل لي في الشفاء، الآن يجب أن تتغير حياتي جملة، في هذه اللحظات لا ينبغي أبداً أن أخضع أو أضعف أو أركن للألم، يجب أن أمسك القلم وأكتب ذلك السر الذي عاش في وجداني دهرًا.

أخشى أن يداهمني الموت فيموت سري معي، أنا لا أخشى من الموت

أبدًا، فقد عرفته وشاهدته، ثم إنني أنتظره منذ زمن بعيد، تواري الألم واختبأ خلف رغبتني المحمومة في تبليغ الأمانة، إذ انقدحت عزيمتي، وانتويت ما ليس منه بد، فكان أن أمسكت بالقلم، فأخذ يجري بين السطور، يسابق الزمن ليحكى حكاية الزمن، حكاية جدي العمدة الحاج غريب يوسف، هذا هو سره، هذه هي حياته، سأرويها لكم ممتزجة بحياتي، فقد تعانقت الحكايتان، والتقتا، وها أنذا أكتب نصوصهما التي اختزنها قلبي وعاشها عمري، لكم ألا تصدقوها، ولكنها - رغم أن أي عقل لا يفهم إلا من خلال ما تستشعره حواسه - حدثت، رواية جدي لن يفهمها ويصدقها من سيقروها بعقله المجرد المتردد، ولكن سيفهمها ويعرفها من سيقروها بروحه، فاقرأها بروحك وإلا فدعها ولا تقرها.



حيوات الحياة الأولى

فتحتُ عينيَّ على الحياة فوجدت كل شيء أخضر، إلا السماء فقد كانت زرقاء صافية تغزوها في أيام الشتاء سحب بيضاء، ثم سرعان ما تراكم فتصبح ركامًا ماديًا يثير في النفس شعورًا غامضًا يقع بين الاكتئاب والانقباض والترقب والحذر والخوف، وحين ينقشع السحاب تعود للسماء زرقتها المحببة ويعود للنفس اطمئنانها، وعلى امتداد البصر عندما تلتقي الخضرة بالزرقة يتلون الكون أمام نظري فيصبح طيفًا على درجات «السيان» cyan تركوازيًا في أول النهار، مائلًا للزرقة الصريحة في وسط النهار،

تناوشه الأشعة الحمراء قبل الغروب، كل ذلك كان في «أنشاص الخاصة» التي بناها ولدت، وفيها رأيت طفولتي، كانوا يطلقون عليها أيضًا «أنشاص التفتيش» حيث كان بها مقر التفتيش الملكي بالشرقية، إذ كانت ذات يوم مقرًا ملكيًا، يتتبع فيها الملك فاروق، بها قصره الذي أقامه عام 1946 على ترعة الإسماعيلية، وحفه من كل جانب بالحدائق الغناء الممتدة، وخلف القصر أقيمت أنشاص الخاصة على نمط «الكبوندات» الحديثة وكأنها مستعمرة سكنية متميزة وسط الكتلة الخضراء الممتدة، أول شيء يقابلك خلف سور القصر هو «سرايا» كبيرة مكونة من ثلاثة أدوار يحيط بها سور مرتفع خلفه صف من الأشجار السامقة تحجب الرؤية، وفي الناحية الثانية المواجهة لسور السرايا حديقة من أبداع حدائق العالم اسمها «حديقة الصبار» فيها كل أنواع وأشكال نبات الصبار، بعدهما يوجد المسجد الملكي وهو مسجد كبير له حديقة كبيرة، ثم عدد من الفيلات مشيدة على النمط الإنجليزي، ولكل فيلا حديقة تحتوي على مجموعة من الأشجار والنباتات، وكانت الشجرة المميزة في كل فيلا هي شجرة المانجو التي كانت تثمر مع بداية الصيف وتظل تنتج ثمارها إلى ما بعد الخريف.

وبجوار هذه الفيلات توجد مجموعة من البيوت الصغيرة مشيدة على نظام واحد، وكأنها صف من العساكر المنضبطين، يقفون في مواجهة قليل من الضباط من أصحاب الرتب العالية.

أنشاص التفتيش - أو الخاصة - تقع على الناحية الأخرى لترعة الإسماعيلية، وهي تابعة لمركز بليس محافظة الشرقية، وفيما بعد أصبحت

تابعة لمركز مشتول السوق، يصلها بالعالم الخارجي كوبري يعبر التربة أقيم على نمط كوبري أبو العلا، ولكنه صغير الحجم والطول، وفور أن تدلف من الكوبري ستجد سور القصر على يسارك، وفي مواجهته حديقة النباتات التي كانت من أعجب وأندر الحدائق في العالم، كانت هذه الحديقة تحتوي على أشجار مصطفة وكأنها غابة مهذبة، وفيها فواكه نادرة الوجود في مصر مثل الفرامبواز، والباباؤ، والباشن فروت، وأنواع من التوت له ألوان غريبة مثل الأبيض والأحمر، بالإضافة إلى بستان به أنواع مذهشة من الزهور قد لا ترى مثيلاً لجمالها في حياتك.

كان أبي «عبد الحق الجوسقي» مهندساً بالإصلاح الزراعي بتفتيش أنشاص، إذ بعد ثورة 1952 أصبح القصر الملكي تابعاً للقوات الجوية وكان يُستخدم كاستراحة لقائد القوات، أما باقي أنشاص بحدائقها وأراضيها، وورشها، وإصطبل خيولها، وتفتيشها كله فقد أصبحت تابعة للهيئة العامة للإصلاح الزراعي، فكانت السرايا سكناً لمدير «التفتيش» وكانت الفيلات سكناً للمهندسين ولطبيب المنطقة، وكانت البيوت المتراسة سكناً لباقي الموظفين، وأقام تفتيش الإصلاح الزراعي مساكن ريفية صغيرة للعمال والفلاحين الذين يعملون في الحدائق والورش وماكينه الكهرباء، وكان الطريق العام يفصل بين هذه المساكن وفيات المهندسين وكأنه الحجاب الحاجز بين طبقتين من بني البشر.

وفي أنشاص الرائعة نشأت وتسمتُ حدائقها واستغرقتني طبيعتها، حيث الخمائل والحدائق وعطر الربيع وسحر المكان وروعة الزمان، كانت

الفيلا التي نسكن فيها مميزة على كل الوجوه، ورغم أنها مطابقة لباقي الفيلات فإنها كانت متميزة بموقعها حيث كانت الغرف الخلفية لها تطل على الحدائق الملكية التي لا يستطيع البصر الوصول إلى متنهاها، كما أن حديقتها كانت أكبر من الحدائق الأخرى وتحتوي على عدد من الأشجار أكثر من باقي الفيلات.

قبل أن أدخل المدرسة أرسلني أبي وأنا في الخامسة إلى كتاب الشيخ محمد عثمان لأحفظ ما تيسر من القرآن ولأتعلم القراءة والكتابة والحساب، كان الشيخ محمد هو إمام وخطيب المسجد الملكي، وكان بارعاً في الخطابة مولعاً بالقراءة، خبيراً في تعليم الصغار، وكان يتتحي بنا جاتباً من المسجد قبل صلاة الظهر بساعتين فيأخذ في تحفيظنا قصار السور، والحروف الهجائية، فنخرج من الكتاب ونحن نثغني « ألف باء أبت ثججج » وعندما وجد شغفي بالحروف قال لي: أنت تذكرني بشاعر كبير خرج من كتابي هذا، سألته بنهم المتشوق للمعرفة: وما هو الشاعر؟

- هو الذي يكتب الشعر.

- وما هو الشعر؟

- ألا تغني حينما تخرج من الكتاب مع رفاقك « أبت ثججج »؟

- يعني الشعر أغنية!

- هو كذلك.

- ومن هو الشاعر؟

زِمَكَان

- الشهيد هاشم الرفاعي .

- اسمه «الشهيد»؟

- لا اسمه هاشم، الشهيد يعني أنه مات في سبيل الله .

- وما معنى « مات »؟

- ألم تسمع عن الموت من قبل !!

كانت هذه أول مرة يحدثني فيها أحد عن الموت مباشرة، كان ذكر الموت يأتي عرضًا في أحاديث البعض ولكنني لم أكن أتوقف عنده، لا بد أنه شيء مثل المرض، ولكن ذكره كان يخيفني ويجزع قلبي، يومها شرح لي الشيخ محمد طبيعة الحياة، ومن هو أبونا آدم، ولماذا خلقنا الله، والموت الذي هو نهاية كل حي، ويوم القيامة، والجنة والنار ويبدو أنه تعجب حينما سألته: هل يعرف كل واحد من الناس متى يموت؟

وقتها ابتسم دهشة وقال: علم ذلك عند الله، فقد أخفى عنا هذا السر .

- ولماذا يخفي عنا؟

- هو يخفي عنا أيضًا موعد يوم القيامة؟

- لماذا؟

- حتى نعبده حق العبادة، فلو عرفنا موعد موتنا لعبدناه فقط قبل الموت .

الموت، الموت، ظلت هذه الكلمة تتردد في أذني، وعندما كان الموت يرد

على بالي كنت أرى بخيالي جسداً شفيفاً أبيض لا ملامح له، ما هذا الخيال؟ ولماذا البياض هو الذي يظهر أمامي عند ذكر الموت؟! وعلى مدى عدة أيام كنت أرى أمي في الحلم وهي تبكي وتلبس السواد، وكنت أرى ضيوفاً يدخلون إلى بيتنا والحزن يرسم على وجوههم، ونساءً يبكين، وامرأة تولول، كنت أصحو فزعاً، وأحياناً كنت أصحو باكياً، هرعت لي أمي تطمئن على حالي، ما الذي أفرعني في المنام، فرويت لها ما رأيته، فبسملت واستعاذت بالله من الشيطان الرجيم وطلبت مني أن أتفل ناحية اليسار ثلاث مرات ففعلتُ مثلما قالت، ثم أراحتني على الفراش ووضعت يدها على جبھتي وقرأت لي بضع آيات من القرآن حتى رحت في نوم عميق.

تكرر الحلم أكثر من مرة، وعرفتُ أن هذا النوع من الأحلام اسمه كوابيس، ولكن هل هذا كان كابوساً فعلاً؟ عندما أخذت أقص على أمي تفصيلات الحلم بدقة متناهية، كنت أرويه لها بصورتين، حيث كنت أعيش في أحداثه بشخصيتين، الشخصية الأولى هي أنا ذلك الطفل الصغير، أقف ساهماً شاردًا أنظر بذهول إلى أمي وهي تبكي بحرقة وترتدي السواد، وإلى أطراف الضيوف الداخلين إلى البيت مقطبين مكفهرين، وإلى المرأة التي تولول، والشخصية الثانية هي أنا الذي يجلس وكأنه ينظر لشاشة كبيرة يرى فيها المشهد الفاتت، قالت أمي وهي تحتضني: يا ضنايا، عقلك يتذكر يوم ماتت جدتك، كنت قد بدأت تدخل عامك الثالث حينما ماتت، كان كل ما تراه هو ذكريات عقلك عن هذا اليوم، لم تنسه ولكنك دفنته في قلبك؛ لذلك تراه في الأحلام.

جدتي! جدتي لأمي! نعم أتذكر طيفها كملاك يرتدي البياض، كنت «أنده» عليها مثل كل الأحفاد في العائلة: نينا الحاجة، أو نينا سيادة، وكان جدي العمدة يناديها دائماً «بالحاجة سيادة» كانت جدتي صاحبة عيون زرقاء ووجه أبيض مفرط في الطيبة والهدوء والاستكانة والرضا، كانت حكاة ماهرة بالفطرة، أتذكرها وهي تحكي لي وأنا في حضنها وهي جالسة متربعة على سريرها، حدوتة الشاطر حسن وست الحسن والجمال، وحدوتة قطر الندى، وحدوتة الشاطر حسن والشاطر محمد والشاطر علي الدين، ومغامرات علي الزبيق المضحكة، وحينما كنت أضحك بسبب مقلب من مقالب علي الزبيق كانت جدتي تزيد من جرعة ضحكاتي فتزغزغني من باطن قدمي الصغيرة فتقطع أنفاسي من كثرة الضحك، فتقول لي بطيبة مفرطة: هاموتك من الضحك يا ابن بنتي، فأقوم هارباً من أمامها.

لا أعرف لماذا كان الموت شريكاً لنا في الحوادث المفرحة أو التي فيها شغب، رغم أنه في حقيقته كئيب مقبض، أبي عندما كان يغضب علي غضباً مصطنعاً يقول مهدداً وهو يهيم بالقيام: هاموتك من الضرب، فأجري من أمامه وأنا أكتم ضحكاتي، وجدتي تقول لي: هاموتك من الضحك، وأختي الكبرى تقول لي عندما تتصاعد شقاوتي: باموت فيك، فكنت أظن أن الموت حياة، وإذا بي أفجع عندما أعرف أن الموت موت، نهاية للحياة، ولكن الشخصية المصرية الغربية طوّعت الموت فجعلته حياة، في مصر يصبح الموت طوعاً للحياة، حتى إن الشاعر عبد الرحمن يوسف وجد هذه اللمحة في الشخصية المصرية فكتب في قصيدة «الراحلون بلا قبور»:

فِي مِصْرَ قَدْ تَبَدُّو طُقُوسَ الدَّفْنِ لِلعَيْنِ العَرَبِيَّةِ ذِرْوَةَ اسْتِسْلَامِ شِعْبِ
للدِّيَانَاتِ القَدِيمَةِ والسَّلَاطِينِ العُتَاةِ.

لَكِنِ طُقُوسَ الدَّفْنِ فِي مِصْرَ اخْتِرَاعُ عَنقَرِي يَنْتَعِيدُ بِهِ الفَقِيدُ وَجُودَهُ
فِي قَلْبٍ مَنْ عَرَفُوهُ عَبْرَ العُمَرِ كَاليَخْضُورِ يَجْرِي فِي النَّبَاتِ.

فِي مِصْرَ مَخْتَرِلُ الجِنَازَةِ كُلُّ أَشْكَالِ الحَيَاةِ.

استمر الحلم معي لا يفارقني حتى أصبت بحمى رفعت حرارتي
وجعلتني أدخل في هذيان، تردد علي بالبيت الدكتور جورج ميلاد طيب
المنطقة وصديق أبي، كنت أنظر إليه بوهن وأنا أراقب ما يفعل، فكان يعطي
الحقنة لعم «عبيد» الذي يعمل عندنا في البيت ويطلب منه غليها في الماء، فإذا
تم غلي الحقنة كان يخرق بسنها غطاءً مطاطياً لزجاجة صغيرة، ثم يسحب
السائل الذي في الزجاجة ويحقني به فتندني صرخة مكتومة متأوهة، كانت
يد عمي الدكتور جورج خفيفة جداً ولكن الخوف أحياناً يصنع الألم.

وبعد أن اقتربت من الشفاء أعدت لي أمي دجاجة مسلوقة، وطلبت مني
أن أكل منها ما أستطيع، راقبتني وأنا أأكل، ثم قالت متعجبة: كل ده كان في
قلبك وكاتم، حزنت على جدتك التي ماتت من سنتين، ولم تعبر عن حزنك
إلا هذه الأيام!

فرغت من الطعام فأغلقت أمي نور الغرفة وقالت لي: نم بسلام، وقبل
أن أهم بالنوم سمعت صوت امرأة آتيا من الصلاة يقول: دي عين وصابته
يا بنت خالتي.

دخلت المرأة إلى الحجرة فلم أتبين ملامحها، ولكنني وجدت بها تحمل ورقة،
 أغمضت عيني وأخذت أستمع للحديث، إذ تقول المرأة: خمسة وخمسة في عيون
 الحاسدين، أنا جيت له عروسة ورق كي أبطل العمل المعمول له، هاتي لي إبرة
 وركية نار، أخذت أستمع للمرأة وهي تتلو بعض الكلمات التي لم أفهم معناها،
 ولكنها كانت كلمات منعمة، تعجبت، هل هي شاعرة مثل هاشم الرفاعي؟!
 وعندما تسارع صوتها وارتفع فتحت عيني ونظرت إليها مدققًا، فوجدتها
 متشحة بالسواد ولكن يبدو عليها أنها أكبر من أمي سنًا، بحلقت في وجهها
 ثم صرخت منزعجًا، فقد كانت هي المرأة التي تولول في الحلم.



أصبحت من بعدها أخاف من خالتي مفيدة ابنة خالة أمي، مجرد ذكر
 اسمها يثير في نفسي حالة من الانقباض، إلا أنني كنت أحمد الله؛ لأنها لا تأتي
 لزيارتنا إلا نادرًا، نكاد لا نراها إلا في الملمات، وأكاد أقسم أن عقلي الواعي
 لا يتذكرها إلا بدءًا من ذلك اليوم الذي جاءت فيه لزيارتي إذ كنت محمومًا،
 وقد اعترتني دهشة مزوجة بالخوف، كيف تكون هذه المرأة التي أمامي هي
 نفسها المرأة التي كنت أراها في أحلامي، أختي الكبرى مجيدة التي كانت
 في الصف السادس الابتدائي وقتها، والتي أرشدتني فيما بعد لطريق القراءة
 قالت لي: هذا طبيعي فعقلك الباطن يتذكرها، كانت خالتك مفيدة تنوح
 وتولول يوم أن وصل لنا خبر موت جدتي سيادة، نسيها عقلك الذي تفكر
 به، ولكن عقلك الباطن ظل محتفظًا بالحدث.

قلت وأنا أنظر لها بعين جاحظة: وهل للبطن عقل؟ أنا أعرف أن العقل في الرأس، والمعدة في البطن كما قلت لي من قبل، فهل هناك عقل احتياطي في بطني بجوار معدتي؟!

أخذت مجيدة تشرح لي ولكنني لم أفهم نصف كلامها، بالكاد عرفت أن الأشياء المولمة يخفيها الواحد منا ولا تستدعيها ذاكرته، ولكنها تظل مخبوءة في مكان سرّي بالإنسان، فأخذت أفكر بجديّة: «يجب أن اخترع ذات يوم اختراعاً يمنع الذكريات من الدخول إلى العقل الباطن، يجب أن يتذكر الإنسان كل الأشياء، ليس عليه أن ينسى».

النسيان رحمة من الله: هكذا قال لي الشيخ محمد عثمان عندما ذهبت إليه في الكتاب بعد شفائي، ثم استطرّد: وما سمي الإنسان إنساناً إلا لأنه ينسى، ثم قرأ لي من القرآن ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ نُجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ أخذت أستحثة كي يروي لي المزيد من قصة سيدنا آدم وستنا حواء، فروي لي الكثير، ثم قال: وبعد أن نزل آدم إلى الأرض أصبحت ذريته مثله، تنسى، والنسيان رحمة من الله.

سألته: ومن الذي يجعله ينسى؟

- الله.

- ولماذا عاقبه إذن على النسيان؟

- ومن قال إن الله عاقبه؟

- ألم يطرده من الجنة؟

- نعم لم يطرده، الله خلق سيدنا آدم ليكون في الدنيا، والجنة هي مكافأته يوم القيامة، ولكنه جعله ينسى الحكمة عنده، فخرج من جنة الخلق، فجنة آدم لم تكن هي جنة الآخرة، ولكنها كانت جنة أخرى خلقه الله فيها، والله يا بُني لا يعاقب على النسيان فرسولنا الكريم يقول: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» لولا النسيان يا بُني لمات الإنسان من الهموم، الحزن في أوله يولد كبيراً جداً، كأنه أكبر عملاق في الدنيا، شايف قصر الملك كبير ازاي؟ الحزن في أوله يكون مثله، ثم برحمة الله يصغر هذا العملاق المزعج، ويظل يصغر ويصغر حتى يتلاشى.

ثم وضع أصبعه على سجادة المسجد فعلق بها ذرات من التراب، واستطرد: أو يصبح صغيراً مثل ذرة التراب، ولولا هذا لكبس الحزن على أنفاسنا وما تحركنا على الأرض خطوة.

بعد أيام قليلة نشبت حربٌ في أنشاص، فعند الظهر بينما أنا في البيت سمعنا أصوات طلقات رصاص تدوي في كل مكان، وتعالى صراخ الناس، أصاب الذعر أُمي، فهي لا تعرف ما الذي حدث، وأبي في الشغل، كل إخوتي في البيت ما عدا مجيدة أختي الكبرى، فقد كانت تستذكر عند صديقتها في الدراسة «نجاح» بنت عم فتحي شرشر الموظف بالتفتيش، فقد اقترب موعد امتحانات شهادة «القبول».

دخل علينا عم عبيد الذي يشتغل عندنا، وقال: إن الجيش يضرب في الأهالي، وهناك حرب أهلية.

قالت له أمي بذعر: لماذا يا عبيد ما الذي حدث؟

- عربية جيش صدمت في الطريق الخارجي بتنا صغيرة من الفلاحين فقتلتها، وعندما وقفت العربية لتستطلع الأمر، طلع عليها الأهالي وقتلوا السائق وعسكريًا وضابطًا، فجاءت سيارات جيش محملة بالجنود وهم الآن ينتقمون من الأهالي.

- ولكن هذا بعيد عنا.

- لا، فقد هرب الأهالي إلينا يختبئون في الحدائق، والجيش يجري خلفهم وهم الآن في شوارع التفيتش، وضرب النار على آخره يا ست هانم. قالت أمي وهي تكاد تولول: مجيدة موحودة عند نجاح شر شر يا عبيد، روح هاتها بسرعة.

- يا نهار اسود، الدكتورورة عند نجاح شر شر «كان عبيد يطلق على كل واحد منا اسمًا خاصًا به، فمجيدة دكتورورة، وهادية أستاذة، وأنا برنس، ومروة النونّة، وأحمد دُكش».

هرع عبيد إلى الخارج، وفي الحال كانت أمي تدير منفلة التليفون وتطلب من عامل السويتش «الخاص بمنطقة التفيتش» أن يوصلها برقم 16 الذي هو رقم عم فتححي شر شر، اطمأنت على مجيدة وأخبرتها أن عبيد سيأتي لاصطحابها على أن يسلكا طريقًا آمنًا.

بعد أن عادت مجيدة، عاد أبي أيضًا واجتمعت الأسرة كلها، وظلت الحرب الأهلية مشتتة طوال النهار، اتصل بنا جدي العمدة، ليطمئن علينا

بشغب بسبب حادث سيارة جيش، وأن المشاغبين قتلوا ثلاثة من قواتنا المسلحة، وأن الرئيس أصدر قرارًا بحظر التجول في أنشاص إلى أن تستتب الأمور» ولم يرد بنشرة الأخبار عدد القتلى من الأهالي.

وفي اليوم التالي عرفت من عبيد أن الشيخ محمد عثمان شيخ الجامع والكتاب كان من ضمن القتلى، مات الشيخ محمد!



كانت الدنيا وكأنها تتحداني، مات الشيخ محمد الذي حدثني عن الموت، عندما أوصل لي عبيد الخبر زاغت عيني وجف حلقي، التزمت عدة أيام بالصمت التام، وكنت أقف شاردًا في الصالة العلوية للفيلا وأنا أبهلق في لا شيء، كأنني أنظر للفراغ، وذات يوم وعقب أن صليت العشاء مع أبي في المسجد أخذت أدعو الله قائلًا: يا رب لا تجعل الملائكة تنسى حسنات الشيخ محمد فأنت جعلت الإنسان ينسى، والإنسان غير الملائكة، ولا تطرد الشيخ محمد من الجنة كما طردت سيدنا آدم، فهو يجب جنة الآخرة أكثر من حبه لجنة أنشاص بتاعة الملك، آسف يا رب أنت لم تطرد سيدنا آدم من الجنة كما قال لي الشيخ محمد، أنت لا تطرد أحدًا من عندك يا رب لأنك كريم.

وفي اليوم التالي بينما كنت ألعب في مدخل الفيلا رأيت سربًا من النمل يمشي بهمة في طابور طويل. جلست وأخذت أترقبه، كان النمل يحمل ذرات صغيرة وفتافيت على رأسه، كانت هذه الفتافيت أكبر من حجم النملة كلها، ومع ذلك فالنملة الصغيرة تحملها ببساطة، عن لي خاطر، لماذا

لا أصنع الموت، لماذا لا أجعله أمامي مرتين، أمسكت بعضاً صغيرة، فجعلتها حائزاً يحول بين النمل واستمراره في طريقه، فلإذا به ينحرف بجوار العصا ويستكمل مسيرته، وضعت أصبعي على عدد من النمل ودهستهم، ماتوا، وجدت حالة من الهرج والمرج تحتاح الطابور، حتى النمل يدرك الموت، انتظرت قليلاً دون أن أتدخل، فوجدت النمل عاد لسيرته الأولى، يسير في الطابور المنتظم وهو يحمل حبات الفتايت، ولكنني رأيت عدداً آخر من النمل يأتي إلى النمل الميت ويحمله، راقبته فوجدته يدخل به إلى حفرة في الأرض، توقفت وعدت إلى داخل الفيلا.

بعد أيام أتى إلينا وافد جديد للعمل في بيتنا معاوناً لعبيد، وسيختص بشئون الحديقة ومتابعة الدواجن التي نربيها في الحوش الخلفي للفيلا، وعند هذا فلا جديد، فقد كان البستاني السابق عليه اسمه «حسن الصادق» ولكن الجديد الذي كلبشني هو أن محمداً هذا أشتهر بين الناس باسم «محمد الميت».

أخذت أراقبه بحذر، وهو اجس تتابني، هل محمد هذا هو الموت؟! أو لعله يعرفنا سيدتنا عزرائيل الذي كان الشيخ محمد عثمان قد أخبرني عنه أنه هو قابض الأرواح! وفي إحدى المرات رأيت يصلي بالحديقة، ويسجد على الطين الذي في الأرض، تعجبت جداً، كيف يصلي هذا الرجل على الأرض دون أن يفترش سجادة صلاة، هذا والله أمر عجيب! اقتربت منه، وما إن أتم الصلاة حتى سألته: إنت بتعمل إيه؟!.

قال: أصلي الظهر.

- على الطين! من غير سجادة صلاة؟!!

ضحك وهو يقول: هذا حلال طالما أن الأرض غير نجسة.

- أليس الطين نجاسة؟

- لا يا برنس، فالله خلقنا من الطين.

- الطين الشوكي؟!!

ضحك مرة ثانية: اسمه التين الشوكي، مش انت عارف الحروف وفاهم

الفرق بين الألف وكوز الذرة.

- لا أنا عارف الألف لكن لا أعرف كوز الذرة.

- ما علينا، المهم أنك تعرف أن الأرض طاهرة والطين طاهر طالما

لا مؤاخذة ما فيش عليه مخلقات البهائم، رسولنا قال هذا.

- قال إيه؟

- قال إن ربنا جعل الأرض مسجدًا طاهرًا للمسلمين.

- طيب انت عايش ولا ميت؟

فوجئ محمد بالسؤال وقال: أنا عايش لكن شهرتي الميت.

- ليه؟

- من أعوام وأنا شاب صغير أغمي عليّ فظن أهلي أنني مت، فأحضروا

لي الكفن، وغسلوني، وقبل أن يدفنونني في الأرض ربنا بحكمته تدخل فقمت

زمكن

من الإغماء وإلا لكنت قد مت فعلاً، فالتاس كبرت والنسوان زغردت، ومن ساعتها أطلقوا عليّ محمد الميت.

- وهل الميت يتم دفنه في الأرض؟

- أي نعم.

وحكى لي محمد الميت قصة أول قتيل في البشرية وكيف أن الغراب أرشد القاتل عن طريقة الدفن.

- وهل الغراب راح للنمل؟

- يروح للنمل ليه؟

- أنا قتلت شوية نمل، فحضر بسرعة فريق نمل وقام بحمل النمل الميت ودخل به في حفرة تحت الأرض.

- ربنا بيهدي كل الخلق ويعرفهم الحق.

أصبح محمد الميت رقيقاً لي عندما يأتي للفيلأ نهاراً، وبعد أن كنت أخاف منه استأنسته وفرحت به وبطريقته في الحديث.

وفي بداية العام الدراسي كانت أيامي الأولى في مدرسة بساتين الإسماعيلية الابتدائية القريبة من الفيلا، دخلت إلى الصف الأول الابتدائي وأنا أتقن الكتابة والقراءة، يرحمك الله يا شيخ محمد يا من علمتني القراءة والكتابة، وبارك الله في أختي مجيدة التي جعلتني متقناً لهما، كان محمد الميت هو الذي يقوم بتوصيلي للمدرسة كل صباح، ثم كان يأتي بعد انتهاء اليوم الدراسي لاصطحابي للبيت،

وفي المدرسة التقيت بأصحابي من أبناء الموظفين والمهندسين، بعضهم كان في سني وصفي وبعضهم كان أكبر مني بعام أو عامين، وفي المدرسة رأيت الأستاذ حمدي شملول الناظر، أحببناه كثيراً، وشغفنا به وبطريقته الأبوية، فقد كان رجلاً طيباً تربوياً، فاهماً، وكانت المدرسة تحفة تعليمية، ففيها مسرح كبير، وبها معمل للتجارب، ومكتبة كبيرة كان يشرف عليها وقتها أستاذ من أحب أساتذتي هو «الأستاذ عبدالقادر البيهقي».

وبدخولي المدرسة أصبحت الأمور المتاحة لي أكبر مما مضى، فالآن أنا أخط السير قدماً في عالم الكبار، أصبحت تلميذاً في المدرسة، أجلس في الصف الأول وأستمع لدروس أبله «نبوية» وفي الفصل معي أصدقاء تلقُّهم سداجة الطفولة، كان منهم محمد جمعة، وعدلي عبد الغفار، وسوسن ابنة الدكتور جورج ميلاد، وممدوح حفني، وأحمد فتحي شرشر، وكنا جميعاً نؤلف فريقاً متفاهماً متعاوناً، ننتبه للدروس معاً، ونلعب معاً، ونمارس كل الأنشطة معاً.

كانت هادية أختي تسبقني بعامين دراسيين، وكانت تسبقني في حب القراءة، وفي أحد الأيام الأولى للدراسة جاءت لي في الفسحة وطلبت مني أن أذهب معها إلى مكتبة المدرسة، لم أكن مستوعباً لمعنى المكتبة، إذ وقع في خلدي أنها مكتبة خشب صغيرة مثل التي في بيتنا، ولكنني وجدتها قاعة فسيحة يحيط بجدرانها مكتبة ضخمة فيها عدد مدهل من الكتب، صحت مندهشاً عندما رأيت المكتبة مثل «علي بابا» حينما وقع على كثر المغارة، قلت هادية وأنا منشده للمكتب: إيه ده، إيه ده، إيه ده!؟.

- كتب جميلة، ستحبها، بدلاً من أن تلعب في الفسحة تعال هنا وقرأ القصص الجميلة.

ذهبت إلى أصحابي مسرعاً وأنا أخبرهم عن المفاجأة التي عثرت عليها في المكتبة، سألتني سوسن ميلاد: كتب كثيرة يا عبد الله؟

قلت لها وأنا أمط الكلمات وأفتح ذراعي للدلالة على كثرة هذه الكتب: قد الدنيا.

كان هذا الخبر مفرحاً لنا جميعاً، فكلنا تعلمنا القراءة والكتابة قبل المدرسة في كتاب الشيخ محمد، حتى سوسن ميلاد! ورغم تنوع شخصياتنا فإننا جميعاً كنا نحب القراءة، لربما كانت هي إحدى الوسائل القليلة للتسلية، وكان أكثر من يتسابقون للقراءة من فريقنا، محمد جمعة، وسوسن ميلاد، وأنا، وكان لهادية أختي الفضل في إدخالنا إلى عالم المكتبات والقصص.

كان أول كتاب وقع عليه بصري في مكتبة المدرسة عنوانه «موت نملة» استلب هذا الكتاب نظري فأخذته كي أقرأه في البيت، لم يكن الكتاب كبيراً إذ لم يتعد بضعة صفحات فيها العديد من الصور، ولكنه كان يحكي قصة نملة ضحكت بحياتها في سبيل أن تعيش أسرتها، وقفت عند الصفحة الثانية وقرأت فيها: «وقام الولد الشقي بهدم جحر التمل، فخرجت نملة تعاتبه: لماذا فعلت هذا بنا؟ فلم يرد الولد عليها، فقالت: سأقف مدافعة عن أهلي حتى ولو كنت أنت أكبر مني، فقتلها الولد، فحزنت كل الكائنات عليها».

يا الله، أنا فعلت مثل هذا الولد، قتلت نملاً بريئاً، أنا مجرم قاتل، قضيت

بقية اليوم وأنا أبكي في داخلي، وبعد فترة وجيزة نسيت الأمر وهان عليّ الخطب، ففهمت قيمة أن ينسى الإنسان أحزانه، إلا أنني أصبحت عاشقاً للمكتبة أهرع إليها في الحصص الخالية وفي الفسحة، وأستعير في آخر اليوم كتاباً أقرؤه في البيت، ومر العام الدراسي، وانطلقنا في الإجازة الصيفية، حيث أخذت أصطحب أترابي فنذهب إلى حدائق الملك، حيث الجداول والظلال والخنازل والأشجار الباسقة، وعند الغروب كنا نذهب لترعة الإسماعيلية فنجلس في وليه لمشاهدة مشهد عجائبي من مشاهد الكون، حين تغيب الشمس عن الوجود في موكب برونزي تتيه به العقول، لا شك أن الطبيعة الساحرة عكست صورها في وجداننا فاتسع أفقه ورحب خياله.

وفي أرجاء الحدائق أخذنا نتعاون مع الطبيعة ونشتبك معها، فأخذنا في تسلق الأشجار وكأننا قروء، وانتظمتنا في قطف الأزهار وإعداد باقات للزهور نتسابق بها، وبرعنا في اختراع الألعاب ووسائل التسلية فكنا مثلاً نجتمع أغطية زجاجات الكولا ونثقبها ونمرر منها «أستك» فتتكور فنصنع منها عجلة صغيرة نشبكها «بسيخ حديد مطاوي» ونجري بالسيخ الذي في نهايته العجلة في سباقات ساذجة وكأننا نقود سيارات فارهة.

في منتصف العام التالي وبينما نحن في الفسحة، وإذ كنت في المكتبة عاكفاً على كتاب يحكي رحلات جلفر في بلاد الأقرام، جاء لي محمد جمعة وسوسن ميلاد وهما في حالة هلع والدموع تنهمر من عيونهما، ما الذي حدث؟ مات الأستاذ حمدي شملول ناظر المدرسة الذي كنا نحبه.



الموت هو القاعدة، والحياة هي الاستثناء، إذن لماذا كانت الحياة؟ من أجل الموت، إنك لا تستطيع الموت إلا إذا كنت حيًا، فالعدم غير قابل للموت، ولكن هل الموت عدم؟ بما أن العدم غير قابل للموت إذن العدم غير الموت، ما الموت؟ ولماذا كل شيء في الدنيا يقبل المساومة والتأجيل والمفاوضة إلا الموت؟ الموت هو الشيء الوحيد المنضبط في الكون، ولكنني لا أفهم من هذا التعريف معنى الموت، فقط عرفت دقته.

هلاوس في هلاوس أخذت تتنابني، وتشدد عقلي الصغير شدًا وأنا راقد على فراشي، أخذت أتمتم بكلمات غير مفهومة، جسّت أُمِّي جِبْهَتِي ثم صرخت: يا لهوي الولد سخن، اتصلي يا مجيدة ببيت الدكتور جورج بسرعة.

لم يكن الدكتور جورج موجودًا، فحضرت إلينا مسرعة زوجته طنط سعاد عبد الله، كانت لديها خبرة كبيرة في التمريض اكتسبتها من زوجها، قامت بقياس الحرارة واستمعت بالساعة إلى صدري، وقامت بقياس نبضي، ثم أدارت منفلة التليفون وطلبت توصيلها بالوحدة الصحية، تكلمت مع عمي الدكتور جورج قليلًا وشرحت له الحالة، بعد قليل جاء حامد تومرجي الدكتور وهو يحمل معه أدوية، وكالعادة تم غلي الحقنة، ثم قامت طنط سعاد بحقنني، لم أشعر بشيء فقد رحت في إغماءة.

ظللت قيد الفراش فترة حتى هزل جسدي - الذي كان أصلًا هزيلًا - وكان الدكتور جورج يمر عليّ يوميًا، أما طنط سعاد فكانت لا تكاد تفارقنا

حتى تعافيت.

حتى شالها فصر

أصبحت مشهورًا «بالإغماء» ما إن يحدث شيء مفزع حتى أروح في إغماءة وكأنني أحتمي بالغياب عن الوعي، من الأشياء التي لا أستطيع تحملها، ولكن الهواجس لم تتركني لحالي: «الإغماء هو نوع من الموت، فأنا لا أعرف ما الذي يدور فيه، كما أنني أنقطع عن الدنيا ساعتها، ولكنني أنقطع أيضًا عن الدنيا ساعة النوم، إذن النوم نوع من الموت، ولكنني في النوم أرى أشياء وأحلم، في النوم أعيش في دنيا أخرى، إذن الموت هو حياة ولكن في دنيا أخرى».

استرحت لهذا التعريف، وتكلمت مع مدرستي أبله نبوية فيه، تعجبت وقالت: كيف لعقلك الصغير أن يفكر في هذه الأشياء، أنت ما زلت صغيرًا، لا تفكر في الموت، الحياة قدامك طويلة، لكن لن أقول لك إلا: اطمئن، لما بنموت بنذهب إلى دنيا أخرى غير الدنيا بتاعتنا، بتزوح عند ربنا.

زاد اطمئناني، فما قالته لي أبله نبوية يتفق مع ما فكرت فيه، إلا أنني تعجبت من أن الأبله نبوية تظن أن التفكير في الموت يجب أن يكون مقصورًا على الكبار فقط! وكان الصغار لا يجوز لهم التفكير فيه، مع أن الذي مات أولاً في حادث الحرب الأهلية طفلة صغيرة، وترتب على موتها موت الكبار، الكبار يظنون أن عالم الصغار بليد وغبي ومحدود، ليس فيه تفكير ولا رأي، ولو سمعوا الحوارات التي كانت تدور بيننا لتعجبوا من عمقها، كنت دائمًا أجمع أصدقائي الذين في سني وأحكي لهم الحوادث التي كنت أسمعها من الكبار، وكان أحد مدرسينا واسمه الأستاذ يسري يختارني ومعني محمد جمعة وسوسن ومنى الجبالي؛ ليحكي كل واحد منا للفصل ملخصًا لكتاب قرأه،

فحكمت لنا سوسن ملخصاً لقصة سيدنا يوسف، وحكى محمد جمعة قصة عن حرب عام 1956، ثم وقفنا معه بعدها ننشد «الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر فوق كيد المعتدي، والله للمظلوم خير مؤيد»، وحكت منى الجبالي قصة سنديريلا، وحكيت أنا قصة جلفر في بلاد الأقزام، وأخذ الأستاذ يسري يسأل كل واحد منا عن الذي استفاده من القصة التي قرأها، وأذكر أنني قلت له: استفدت أني عرفت أن الدنيا فيها حاجات كثيرة فوق عقلنا، وأنا لا يمكن أن نعرف كل حاجة في الدنيا، لازم يكون فيه حاجات لا نعرفها، يعني أيام النبي ما كان أحد يعرف شيئاً عن التلفزيون، ولو رحنا لهم وحكيينا عن التلفزيون لن يصدقونا، ولو خد حكي لجلفر أن فيه في الدنيا أقزام بحجم النمل ما كانش هايصدق، لكن لما سافر شاف، ولو حكي للناس مش هايصدقوه لأنهم ما شافوش.

وبالرغم من عمق الصغار فإن هناك أشياء كثيرة بديهية لا يعرفونها، فكلنا كنا نجهل معنى الملكية الخاصة، فكان في ظننا أن ثمار الحدائق من مانجو وبرتقال، وفرامبواز وتوت هي من أملاكنا الشخصية ولنا الحق في اكتنازها فكنا نسطو على هذه الثمار كما نشاء في أي وقت، ومع الجهل بمعنى الملكية وحدودها كنت - أنا ورفاقي - نجهل كيف يتكاثر الإنسان، ونجهل تعدد الأديان واختلاف مذاهب الناس، وكان هاتين المنطقتين من الأشياء المحرمة التي لا يجوز الاقتراب منها، ولكن يحدث أحياناً ما ليس منه بد.

يمر الزمن علينا سريعاً، ولكنني لم أكن أشعر أبداً بالزمن الذي يمر، فالأحداث التي تتوالى علينا هي هي لا تتغير، ولكن في بعض الأحيان

كانت تحدث بعض التفاصيل الصغيرة التي تصير فيها بعد محل حديثنا
 وحكاياتنا، صرت في الصف الثالث الابتدائي، وفي شهر رمضان الذي كان
 يأتي أيامها في أوائل الشتاء كانت الدنيا تتغير معنا، وتضيف نوعاً آخر من
 الألعاب والأحداث لحياتنا، كان الحدث الأول هو انضمام صديق جديد
 لمجموعتنا وهو عصام ابن الدكتور جورج ميلاد، كان قد التحق بالصف
 الأول الابتدائي، وكانت شقيقته سوسن تتعهد برعايتها وكأنه ابنها
 فاعتبرناه جميعاً صديقاً لنا نصطحبه في كل ملاعبنا، ونسند له الأعمال الخفيفة
 والألعاب اللطيفة التي لا تشق عليه، وكان هو يبدو أكبر من عمره في الذكاء
 والفراسة، وكان مثلنا شغوفاً بالقراءة، وكأننا كلنا خلقنا من طينة واحدة،
 وفي شهر رمضان كانت مجيدة أختي الكبرى تقودنا في طرقات أنشاص في
 قافلة كبيرة من أطفال المنطقة - وكانت هي القائدة دائماً - ونحن نمسك
 بالفوانيس ذات الشمعة ونؤرجحها يميناً وشمالاً بشكل رتيب، ومجيدة
 تغني ونحن نغني وراءها «حلُّو يا حلُّو، رمضان كريم يا حلُّو، فك الكيس
 واديننا بقشيش لا نروح ما نجيش يا حلُّو» ثم نختم تلك القافلة الغنائية عند
 أذان العشاء حيث يذهب من يذهب إلى بيته، ويذهب بعضنا لصلاة العشاء
 بالمسجد، وفي سهرة من السهرات بعد أن هوننا وجرينا وغنينا رأيت عصام
 جورج يهم بالذهاب مع شقيقته سوسن إلى فيلتهم، فناديته: تعال سنستكمل
 اللعب بعد الصلاة، فاستأذن من سوسن فأذنت له على ألا يتأخر، وقالت لي:
 عصام معاك على ضمانتك يا عبد الله.

أخذته واقتربت من الجامع وقلت له: سندخل لصلاة العشاء أولاً.

قال لي: أنا لا أصلي في الجامع!

فقلت له متعجبًا: لماذا؟ أنت كبير الآن ولازم تصلي.

- أنا مسيحي فميتفعش أصلي في الجامع.

- إزاي يعني؟! ما هو أنا مسلم وينفع أصلي في الجامع، أنت شكلك لا

تعرف شيئًا، تعال وأنا أعلمك.

جذبتَه من يده فانقاد لي، ودخلنا على صناير الوضوء، وقلت له: اعمل

زبي بالضبط.

ففتعل مثلي، ثم دخلنا وانضمنا للصف الأخير وبعض المصلين ينظرون

إلينا شزرًا، لم ألق بالألهذه النظرات وقلت لعصام: افعل مثلما نفعل، إذا

ركعنا فاركع، إذا سجدنا فاسجد، ففعل، وانتهينا من الصلاة.

أخذ بعض المصلين ينظرون إلينا بدهشة وأنا لا أعلم سبب دهشتهم،

بل إنني اندهشت لدهشتهم، خرجنا مسرعين وعصام يقول لي: هما يبصوا

علينا كده ليه؟

قلت له بعبارات سريعة: معرفش، دي ناس غريبة والله!

وعند مدخل فيلا الدكتور جورج، سألت عصام: يعني إيه إنت مسيحي؟

هل المسيحيون لا يعبدون ربنا؟

- لا، طبعًا بتعبد ربنا.

- وازاي لغاية دلوقت لم يعلمك أهلك الصلاة، أنت كبرت يا عصام؟

- أنا أصلي زي ماما وبابا.
- يعني بتصلي في البيت؟
- كلنا في البيت نصلي قبل الأكل دايماً وساعات ماما بتصلي واحنا نصلي معاهها.
- اشمعنى يعني بتصلوا قبل الأكل! انتم ناس غريبة جداً! يعني لا يوجد عندكم الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء.
- نحن نصلي في كل وقت!
- ياااه انتم باين عليكموا متدينين قوي!
- لكن صلاتنا مش زي صلاتكم.
- يعني إيه؟ مش بتتوضوا ومش بتقروا الفاتحة؟
- لا مش بتتوضوا، لكن بنستحمى كثير، وما عندناش فاتحة.
- يا سلام دي صلاة جميلة وسهلة دي الي بالحُما ومن غير فاتحة.
- وفي اليوم التالي بالمدرسة أغاظتني سوسن دون سبب، فانتظرت إلى أن انتهت الحصة، وقلت لها بصوت مرتفع وكأنني أزفها: يا مسيحية، يا مسيحية، يا مسيحية.
- بهتت سوسن وكأنني ألقيت حجراً على رأسها.
- وفي البيت بعد الغداء جاءت سوسن لبيتنا، صعدت للدور العلوي، وسلمت على أمي وقالت لها: ينفع يا طنط إن عبد الله يفضل في المدرسة يقول لي «يا مسيحية يا مسيحية».

صرخت أمي: يا نهار اسود! ليه كده يا عبد الله.

- هي التي بدأت، أغاظتني فأغظتها.

- إنت غلطان جدًّا، غلط كبير إننا نغيظ حد بالدين.

- طيب فين الغلط، أنا قلت: إنها مسيحية، دول حتى يا ماما لا يعرفون

الفاتحة ويصلون قبل الأكل!

- إنت مالك هما دينهم كده، هما مسيحين، وبيعبدوا ربنا بطريقتهم.

- لأ، مش كلهم مسيحين، عصام مسلم.

- مسلم ازاي يا ولد، أنت هاتخرف، اعتذر لسوسن حالًا.

- أنا آسف يا سوسن، لكن عصام مسلم وكمان صلي معايا امبارح في الجامع.

وهنا قفرت سوسن من السلام في خطوتين وأمي تنادياها أن تعود، ولكن سوسن ذهبت، وجريتُ أنا من أمام أمي خوفًا من العقاب «والشيشب الطائر» يخطئني وصوته يصفر في أذني، وأنا أتعجب: «ما الذي فعلته حتى أستحق العقاب؟».

عرفت في اليوم التالي أن عصام تعرض لعقاب كبير من أمه، عدت إلى البيت ساهمًا وأخذت أفكر: لماذا نختلف في الأديان، وما المسيحية؟ ألسنا جميعًا أبناء آدم وحواء، وكلنا نؤمن بالله، فلماذا يكون هناك مسلم، ومسيحي؟ ما بال الناس يختلفون ويتفرقون؟ ولكنني أخطأت، فلطالما أن دينهم يمنعهم من الصلاة في المسجد فما كان ينبغي أن آخذ عصام للصلاة، هم أحرار، كل إنسان حر في عبادته، لقد حفظت مع الشيخ محمد عثمان الآية التي تقول

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ نعم حفظتها، ولكنها آية عن الكافرين، والكفار غير المسيحيين؛ لأن المسيحيين؛ يعبدون الله كما قالت لي أمي: هم يعبدون الله بطريقتهم، ونحن نعبد الله بطريقتنا، المسألة بسيطة.

أجمعت أمري وتوجهت إلى بيت الدكتور جورج، تلميتُ اللافتة على باب الفيلا «الدكتور جورج ميلاد خليل» وكأني أراها للمرة الأولى، اليوم أدركت أن الكون يحمل بشرًا ليسوا شيئًا واحدًا، ولكن طنط سعاد اسمها «سعاد عبد الله» وأنا اسمي عبد الله! فهل هي مسلمة ونحن لا نعرف؟!!

طرقت على الباب ففتحت سوسن، أشاحت بوجهها عني فقلت لها بصوت خفيض: ممكن أشوف طنط سعاد.

- اتفضل.

دخلت مسرعًا، فصاحت سوسن بصوت مرتفع: ماما، عبد الله عاوزك.

سمعت صوتها وهي تقول: اطلع يا عبد الله يا حبيبي.

صعدت الدرج للدور العلوي، فوجدتها تجلس على أريكتها المعتادة، اقتربت منها وقلبي يرتجف للمرة الأولى، هذه أول مرة أقابل فيها طنط سعاد وأنا أشعر أنني أذنبت في حقهم، قلت لها وأنا أغالب بكائي: أنا آسف يا طنط، أنا غلطت وماكتش فاهم، غلطت إني خليت عصام يصلي في الجامع وغلطت لما غظت سوسن، لكن هي غاظتني الأول.... وقبل أن أستكمل حديثي سمعت صوتًا مكتومًا يبكي آتيا من غرفة قريبة، فاندفعت في البكاء.



ربت طنط سعاد على كتفي وقالت لي: خلاص أنا ساحتك يا عبد الله،
كلنا أولاد حواء وآدم، والمفروض إن الدين بيخلىنا نحب بعض، احنا كلنا
لا نعبد إلا الله، احنا ولاده يا عبد الله.

تعجبت من تعبير كلنا أولاده! كيف نكون أولاد الله وهو الذي خلقنا؟
وما هي أبوة الله لنا؟ فقلت لها: لا أفهم يا طنط، يعني إيه احنا أولاده؟

- مش مامتك بتحبك قوي؟

- آه.

- وعاوزة لك الخير وبتضايق لما بيغص عليك؟

- آه.

- ربنا كذلك، يحبنا زي احنا ما بنحب أولادنا أو أكثر كيان، ربنا يحبنا لأنه
خلقنا يا عبد الله، ولو ما كانش بيحبنا ما كانش خلقنا.

- ممكن أسأل حضرتك سؤال؟

- أسأل يا حبيبي.

- هو بابا حضرتك مسلم؟!

سمعت من خلفي صوت سوسن وهي تكتم ضحكاتها، وابتسمت طنط
سعاد دهشة، ثم قالت: علشان اسمه عبد الله يعني؟ لا يا حبيبي هو مسيحي
بسي كلنا عبيد لله، وكلنا مستسلمين لله.

- طيب فين عصام؟ أنا سامع صوت عياط جوه.

- عصام متعاقب.

- سامحيه يا طنط علشان خاطرني، أنا هادخل أصالحه.

ابتسمت وأومات موافقة فهرعت إلى غرفة عصام، وقلت له إذ دخلت:
هات لعبة السلم والشعبان، سأغلبك كالعادة.

وفي هذه المرة تركته يهزمني، وكانت أسعد هزيمة نلتها في حياتي.

بعد أيام جاء لي خبر مفرح لم أستوعبه، قال لي أبي ونحن على مائدة
الغداء:

- صديقك أحمد شرشر سيترك أنشاص إلى الأبد.

- ليه؟!!

- والده تم نقله لمنطقة الإصلاح الزراعي في الدلنجات، وسيسافرون غدا.

- فين الدلنجات؟!!

- بعيدة، موجودة في مكان بعيد عن هنا.

تركت مائدة الغداء دون أن أستكمل طعامي، إلا أنني قلت: شبعت
والحمد لله.

وعلى الفور عدوت إلى بيت أحمد، وجدته فرحاً وكأننا في يوم من أيام
العيد، قلت له: هو صحيح انكم ها تعيشوا في بلد تاني.

- أيوه، الدلنجات، دي بلدنا أصلاً وكل قرابيي هناك، دي بلد جميلة.

- لا يوجد أجمل من أنشاص.

- بيتيالك.

- يعني أنت فرحان؟!

- طبعًا.

- طيب اكتب لي عنوانك وسأرسل لك جوابات.

فكتب لي في ورقة: (اكتب على الظرف: الدليجات، محافظة البحيرة، يصل
ويسلم ليد الأستاذ فتحي شرشر ومنه ليد ابنه أحمد، شكرًا لساعي البريد).

كان أحمد شرشر من الأصدقاء المقربين مني، وكنا نتنافس في «الخط
العربي» والحق أنه كان أبرع مني في هذا المضمار، كان يتفنن في تحسين خطه،
وكان بارعًا في بري القلم الرصاص بطريقة تجعل الكتابة مميزة، ولم يكن أحد
يباريه في هذا المجال، أما شخصيته فكانت ودودة مسالمة هادئة، لم يحدث أن
أثار مشاكل مع أحد، ولذلك كانت له مكانته عندي، وإذ سيتقل والده لبلد
آخر آن لنا أن نفرق، ولم يكن الفراق بالنسبة لي سهلاً أو عادياً.

وفي اليوم التالي تماشيت مقابلة أحمد، إلا أنني كنت أرقب بيته عن بعد،
فضلاً عن أن صديقنا عدلي عبد الغفار كان يأتي لي بالأخبار، وحين تحركت
سيارة العفش، وتحركت خلفها سيارة كبيرة تحمل أسرة «عمي فتحي شرشر»
أخذت أنظر إليها بأسى، وقبل أن تغيب السيارة عن نظري عدوت
بأقصى سرعة خلفها وأنا أبكي، وعدلي يجري خلفي وهو يصيح: رايح فين
يا مجنون.

أبطأت من سرعتي فاستطرد عدلي: كفاية كده، احنا بعدنا.
كنا قد اقتربنا من كوبري أنشاص فجلست على الأرض صامتًا لا أحيّر
جوابًا.

جلست باقي النهار في حديقة بيتنا ساهمًا واجمًا أخط بالعصا خطوطًا
متشابهة على الأرض وأحدث نفسي، ما هذا الذي حدث اليوم؟

• هذا فراقٌ للأحبة.

• مثل الموت؟

• نعم مثل الموت.

• لن أراه مرة ثانية.

• والموت كذلك، إذا مات الشخص فإننا لن نراه مرة ثانية.

• ولكن المسافر موجود.

• وكذلك الميت موجود.

• المسافر أستطيع أن أرسل له خطابًا.

• ونحن نزور نينا الحاجة وهي ميتة، وأسمع أمي وهي تكلمها وتحكي

لها أحداث حياتنا.

• ولكننا لا نراها.

• والمسافر لا نراه.

• ولكن الميت يرانا والمسافر لا يرانا.

• إذن الميت أفضل من المسافر.

• ولكن يظل في نفوسنا أمل بمقابلة المسافر، فقد يعود وقد نذهب إليه.

• والميت نراه في الحلم كما رأيت الأستاذ حمدي شملول، وسنذهب بالتأكيد للميت عندما نموت مثله، وهناك في هذا المكان المجهول الذي لا أعرفه سنلتقي.

• إذن السفر والموت قريبان، كأنهما توءمان.

استرحت للنتيجة التي وصلت إليها، إلا أنني كنت حزينًا لأن أحد لم يشعر بالحزن الذي كان في داخلي، كان في دنيا أخرى، يتشوق لبلده، كان صريحًا عندما قال: إن بلده أجهل من أنشاص، هل كل واحد في الدنيا يعتبر بلده أجهل البلاد؟

كنت أشعر بموجدة تجاه أحمد شر شر لأنه كان سعيدًا بانتقالهم للدلتجات في الوقت الذي كنت فيه حزينًا لهذا الفراق، أحمد كان في دنيا أخرى غير الدنيا التي كنت فيها، وبعد أسبوع كتبت خطابًا لأحمد، رأيت أن أضع له فيه بعض حبات من الفرامبواز والتوت حيث كان مغرمًا بهما، إلا أنني نحييت هذه الفكرة من خاطري واكتفيت بأن كتبت له: « أخي الحبيب أحمد إني مشتاق إليك كما يشتاق الجندي إلى الميدان، والبستاني إلى البستان، والمؤمن إلى شهر رمضان، وأبلغك أنني بخير أنا والأسرة كلها، وكل من عندنا في أنشاص يسلمون عليك، عدلي ومحمد وسوسن وممدوح، وكل أولاد عم

عَلَّام يسلمون عليك خاصة صلاح، وأرجو أن تكون أنت والأسرة الكريمة بخير، وسلامي لهم كلهم» ثم عنَّ لي خاطر فاستطردت كاتباً: «ملحوظة: كنت أريد أن أرسل لك جبات فرامبواز في ظرف الجواب ولكنني نسيت وأخطئت الظرف قبل أن أضع فيه الفرامبواز، فعذرًا والمرة الجارية سأرسل لك فرامبواز كثير... ملحوظة ثانية: رد على هذا الجواب في أسرع وقت: أخوك المحظوق عبد الله».

صرت الأيمل وتواري أحمد شرشر في المذكرات، لم أجد الأكرم كثيرًا والتشغلت بأحداث جديدة مدهشة حدثت في أنشاص، إذ عرفنا من الثالث الجدهيد الأستاذ فرحات أن الرئيس جمال عبد الناصر سيأتي لزيارة أنشاص ومع بعض رؤساء أجناسه، أخبرونا أننا ستغرب على أخانٍ معينة سنتشدها وقت استقبال الضيوف، تحولت أنشاص كلها إلى خلية نحل، كان الحديث مذهلاً بالنسبة للصغار، ولكن يبدو أن الكبار كانوا قد تعودوا على تلك الزيارات إذ استقبل الملك فاروق عام 1946 في قصر أنشاص كل الملوك العرب بمناسبة إنشاء جامعة الدول العربية، كانت زيارات الملوك هذه من التخصص التي كان القماماء في أنشاص يحكونها للصغار، فكان عم «الشافعي» طبخ للملك يحيى لنا عن الولائم، وكان عم «الطوخي» مصور الملك يحيى لنا عن أهم الصور التي التقطها آنذاك، ولماذا يزين بها حوائط الاستديو الخاص به، كنا نستمع لها بشغف رغم أننا كنا نعلم من أهاليها أن «الشافعي» لم يكن طباطحا للملك بالمعنى المعروف، ولكنه كان صبيًا من جملة مساعدي الطباخين، إلا أنه تميز في هذا الفن بعد ذلك وأصبح الطباخ الخاص لمنطقة

الإصلاح الزراعي والمسئول عن إعداد الولايم للضيوف المهمين الذين يأتون كثيرًا لزيارة مدير التفتيش، أما عم الطوخي فكان يصور العاملين في القصر وكان فنانًا في التصوير ومبدعًا فيه.

كان عم الشافعي مكلفًا أثناء زيارة الرؤساء الأجانب وعبد الناصر لأنشاص بإعداد وليمة ضخمة لهم، وكان عم الطوخي مكلفًا من مدير التفتيش بتصوير الأحداث وطوابير الاستقبال، وكنا قد حفظنا جميعًا الأناشيد الحماسية، واصطففنا منذ الصباح الباكر في مدخل أنشاص، وأخذنا نغني معًا في بروفات ميدانية «تيتو، خروشوف ونهرو، أحسن رؤساء في الدنيا، ومعاهم عبد الناصر حررنا من بريطانيا».

كان اختيار مدير المنطقة وكبار المسئولين في أنشاص قد وقع على أخي مجيدة وصديقتها منى عباس كي تقدا للرؤساء باقات الورد، وكنت أقف في أحد الصفوف الخلفية إلا أنني كنت أشرب بعنقي وأستطيل بهامتي حتى أرى المشهد، كنت أتوق شوقًا لرؤية مجيدة وهي تقدم الزهور، وكدت أفقد وعيي من فرط الذهول وأنا أرى طيف عبد الناصر وهو ينحني لمجيدة آخذًا منها باقة الورد، ولكنني على حين غرة سمعت خلفي صوت حوار آتيا من بعيد، تغالفت عن الصوت برهة، فعاد الصوت من جديد، لم يكن الحوار عاديًا ولكنه كان دالًا على ألم ومعاناة، طبيعته تختلف عن الحوار الذي أعرفه، إذ كان خافتًا لاها متقطع الأنفاس، شدني حب الاستطلاع، أجننت أنا؟ أتترك هذا الاستقبل الذي لن يتكرر لأجري وراء صوت بقرة تخور؟! ولكن هذا هو الذي حدث، انسللت من الطابور وتبعت صوت البقرة، كان آتيا

من حظيرة الإصلاح الزراعي الكبيرة التي تبيت فيها الأبقار والخرفان وباقي الدواب، وكانت فيما مضى إسطبلاً عملاً لخيول الملك، اقتربت من الحظيرة فاقترب صوت الخوار إلا أنه كان أكثر تقطعاً وخفوتاً، شيء ما أثار الرهبة في نفسي قبل أن أرى المنظر، وحين دلفت إلى الحظيرة وجدت الدكتور محسن الطيب البيطري للمنطقة ومعه مجموعة من عمال الإصلاح الزراعي وهم يحيطون ببقرة نائمة على جنبها على الأرض، تتأبها ارتعاشات تشنجية، كان أحدهم يجلس عند رأسها ويربت عليه، وآخر يجلس القرفصاء عند النصف الأول من بطن البقرة وهو منهمك في تدليكها، أخذت أمعن النظر وأنا ذاهل عن الدنيا كلها، كان الدكتور محسن يقول لأحد العاملين: هات الحفّار.

فأعطاه أحدهم آلة غربية تشبه السكين، فقام الطيب بشق جزء من بطن البقرة من الناحية اليسرى الخلفية، والبقرة مستسلمة تماماً لمصيرها، ثم قال الطيب: هات المشرط، فأعطاه نفس الرجل مشرطاً، فأخذ الطيب يوسع من الفتحة التي شقها في بطن البقرة، ثم قام بإدخال ساعده كله في بطن البقرة، وأخذ يدير ساعده ويحركه في بطنها وكأنه يبحث عن شيء. كنت قد انقطعت تماماً عن الدنيا التي في الخارج وأصبحت دنياي كلها منحصرة في هذا المكان، رأني بعض العمال وأنا أبهلق في المشهد إلا أن أحدهم لم يعلق ولم يوجه لي حديثاً وكأنه من الطبيعي أن أكون بينهم، قال العامل الذي كان يربت على رأس البقرة: البقرة ماتت يا دكتور. لم يعقب الطيب ولكنه صاح: أمسكت رجلها، أول ما تطلع حد يبجي يشد معي.

ومن بطن البقرة الميتة أخرج الطيب قدمًا لبقرة صغيرة، فاشترك معه

أحد العمال، وأخذنا يجذبان القدم، والعمال يصيحون: «هيلا هيلا، صل عالنبسي» ثم خرجت بقرة صغيرة كاملة من بطن البقرة الكبيرة الميتة، ألقوها على الأرض، ثم حملها عاملان من قدميها الخلفيتين بحيث أصبح رأسها لأسفل، وأخذ الطيب يضرب ضربات خفيفة على رأسها المضرج بالدماء، وآخر يصب بعض الماء على هذا الرأس الذي لا تبدو عليه حياة، كرروا هذه العملية عدة مرات وألقوا البقرة الصغيرة على الأرض، وأخيرًا حركت قدميها وأخرجت من أنفها صفيراً دل على أن الهواء أخذ يتدفق إلى رثتيها، فصاح العمال: الله أكبر الله أكبر، وأخذوا يحتضنون بعضهم فرحاً.

وهنا جلس الطيب على الأرض وتنفس الصعداء وقد امتلأت ملابسه بالدماء التي تناثرت من البقرة الكبيرة، نظر الطيب نظرة أسى للبقرة الميتة وسمعته وهو يقول بصوت خافت: سبحان الله ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾.

خرجت مسرعاً من المكان وأنا أجري ما وسعني الجهد وكأني أهرب من شيء، ثم أتوقف فجأة وكأني أنتظر شيئاً، كنت حائراً مضطرباً مرتبكاً، كيف يجتمع الموت والحياة في آن واحد؟ إذن الموت والحياة شيء واحد، إنهما يلتقيان، بقرة جاءت إلى الدنيا، وبقرة ذهبت إلى دنيا أخرى، ولكن أين كانت البقرة قبل أن تولد؟

• كانت في بطن أمها.

• وأين كانت قبل أن تدخل لبطن أمها؟

• كانت عدماً، لا شيء.

- إذن هل الحياة تخرج من العدم؟
- أبونا آدم كان عدماً قبل أن يخلقه الله، الدنيا كلها كانت عدماً.
- إذا كان الله خلق الدنيا من العدم، فمن هو الذي خلق الله؟
- أستغفر الله، أستغفر الله، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هذه أشياء ينبغي ألا أفكر فيها أبداً.

تَفَلَّتُ عن يساري وكأنني كنت في كابوس وجريت إلى البيت أستكين تحت شجرة المانجو، وتحت الشجرة رأيت نبتة صغيرة تحاول شق طريقها للحياة فأحضرت نضحة ماء وألقيت بها على النبتة فاهتزت، ففرحت، إلا أنني سرعان ما تهمت، ما هذا الذي كنت أحدث به نفسي؟! هذا كفر، لقد أصبحت كافراً ويجب أن أقتل نفسي.



تعرضت في داخلي لتأنيب ضمير قاسٍ، ما هذا التخريف الذي دار في خاطري، عبيد الذي يعمل عندنا قال لي منذ أيام: لا تفكر في هذه الأشياء وإلا كفرت، وأنا فكرت، إذن أنا كفرت، والكافر يجب أن يقتل نفسه، هكذا قال الشيخ «علي الدين» خطيب المسجد الذي خلف الشيخ محمد عثمان، كان الشيخ علي الدين في خطبة الجمعة يتوعد الكفار بعذاب الله في نار جهنم خالددين فيها، ويقول: إن الله لن يتوب عليهم إلا إذا قتلوا أنفسهم ثم قرأ آية من القرآن تقول: ﴿يَنْقُومِ إِلَيْكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلِ فَتُوبُوا﴾

إِلَى بَارِيكُمْ فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴿١٠﴾ ولكنني لم أعبد العجل، أنا فقط فكرت في حياته وموته، هذا صحيح ولكنني فكرت في كلام آخر وسألت نفسي: من خلق الله؟ وهذا كفر، ويجب أن أتوب، ولكن التوبة كما قال الشيخ تكون بأن أقتل نفسي، لذلك سأقتل نفسي.

ظلمت ساهراً الليل أفكر في طريقة أقتل بها نفسي دون أن أتألم، وفي اليوم التالي بعد أن عدت من المدرسة قلت لنفسي: فلا تمهل قليلاً، ينبغي أن أموت وأنا شبعان، أتناول الغذاء أولاً ثم أفكر ماذا أفعل.

شبعت وتناولت الفاكهة ثم قلت لنفسي: أنام قليلاً حتى أموت وأنا مستريح. نمت فترة طويلة حتى أيقظتني أمي، فأخذت أتلكأ في القيام وكأنني أهرب من موعد ثقيل، ولكن اتهامني نفسي بالكفر قطع علي طريق التلكؤ، الآن لا بد مما ليس منه بد، إلى الموت، فلا توجه لترعة الإسماعيلية وألقي بنفسي فيها.

وعلى حافة الترعة أخذت الأفكار تتداعى على رأسي، أنا كافر، أنا كافر، ليس كفراً هيناً، بل إنه أغشى كفر في العالم، جاءت لحظة المواجهة، سأموت الآن وأعرف حقيقة الموت، هناك أشياء لا يمكن أن نعرفها كاملة ونحن في الحياة الدنيا، هناك أشياء ستظل الأسئلة فيها معلقة لا تجد إجابة حتى نذهب إلى ربنا، يجب أن أذوق الموت بنفسني لأعرفه، هل يمكن أن نعرف طعم شيء إلا إذا تذوقناه؟ والميت الذي مات لا يستطيع أن يحضر للحياة فيخبرنا عن الموت.

ولكن انتظر هناك معضلة كبرى، فالشيخ نفسه قال في خطبة أخرى إن من يقتل نفسه يموت كافراً!! فهل التوبة من الكفر تكون بالكفر؟! هذا أمر

عجيب، يعني لو لم أقتل نفسي فإن الله لن يتوب عليّ، ولو قتلت نفسي حتى يتوب الله عليّ فإنني سأموت كافرًا، وبذلك لن يتوب الله عليّ، لقد أغلقت في وجهي جميع السكك، أنا في حيرة.

ابتعدت قليلًا عن حافة الترفة وجلست أتأمل وأفكر بهدوء، من هو الكافر؟ ومن هو المشرك؟

• هل كل من لا يؤمن بالله يصبح كافرًا؟

• وهل كل من يعبد غير الله يصبح مشرّكًا؟

• وهل كل من لا يؤمن بالإسلام يصبح كافرًا؟

لم يجد ذهني الصغير إجابة عن هذه الأسئلة، ولكنني قفزت فجأة: أنا أو من بالله، وأؤمن بالإسلام وسيدنا محمد، أنا أصلي، وأصبحت أصوم، بل أنا أفعل كل التعليمات الدينية التي يقوها لنا الأستاذ محمود مدرس الدين، وأقرأ القرآن، وأحفظ كثيرًا من الأحاديث، الشيخ عليّ الدين غلطان، وعبيد غلطان، ربنا لن يحاسبني على التفكير أبدًا، ووجدتني فجأة أصبح: هيبه. وأخذت أجري وأنا أقول بنغمة واحدة، أنا مسلم، أنا مسلم، أنا مسلم، وبعض الفلاحين العائدين إلى بيوتهم ينظرون لي باستغراب، ونساؤهن ينظرن لي ويضحكن، وواحدة من الفلاحات تقول: ابن الباشمهدس. وعند الفيلا توقفت وفكرت: هل أنا مجنون؟ بالمصيبة! - محمد
الأستاذ أسعد المدرس في مدرسة الشهيد هاشم الرعي ش .



يمر الزمن ولكن الأطفال لا يشعرون به، وكأنهم لا يكبرون أبدًا، ومنع ذلك فكل آمياتنا أن نكبر ونصبح مثل الكبار، لنا شوارب، ونلبس النظارات، ونمسك الغليون مثل الأستاذ أسعد المدرس المجنون، لماذا يرد الأستاذ أسعد على بلي، لأنه يمسك الغليون ويرتدي بذلة بيضاء وبيونة حمراء، ولماذا يرتبط الغليون عندي بالأستاذ أسعد مع أن أبي وكل أصحابه يستعملونه في تدخين دخان «التوباكو»؟ نعم هذا صحيح ولكن الأستاذ أسعد يتميز عن الجميع بشرب الهواء من غليون فارغ لا يوجد فيه دخان، ولا يتم إشعاله بالولاعة أو الكبريت، لذلك كنت أحيانًا ما أمسك غليون أبي وأضعه في فمي وأنفخ فيه وهو فارغ من الدخان مثل الأستاذ أسعد بالضبط، وبهذا أكون مجنونًا، ينقصني فقط أن ارتدي البذلة البيضاء والبيونة الحمراء حتى يكتمل المشهد، ولكن ما الذي جعل الأستاذ أسعد مجنونًا؟

يقولون: إنه كان عبقرًا، مدرس رياضيات، عبقرًا، والعباقرة مجانين، ويقولون: إنه ضبط زوجته في وضع مخل مع أحد طليته فأصابه الجنون، المهم أنه دخل مستشفى الأمراض العقلية بالخانكة عدة أشهر ثم فر منها وأخذ يظهر في أنشاص أحيانًا ويختفي في أحيان كثيرة، وكان عندما يظهر يتصرف بغرابة تجعلنا نخافه، فقد كان يدخل المسجد ليصلي جماعة، وفي نصف الصلاة كان يترك الصلاة ويقول بصوت مرتفع: أتم لا تعرفون الصلاة، أين أنتم من صلاة زمان وفاتحة زمان وقرآن زمان، أعتبرون هذه صلاة؟

وفي مرة أخرى دخل المسجد بعد صلاة الجماعة، فوقف يصلي منفردًا، فإذا بمجموعة من الفلاحين لا يعرفونه يدخلون للصلاة خلفه، وفي منتصف

الصلاة سلّم وقال: أتموا صلاتكم فإن إمامكم كافر. فوق المصلون في حيرة، ماذا يفعلون، وخرجوا جميعهم من الصلاة وهم يلعنونه، لولا أن أحد الموجودين بالمسجد كان يعرفه، فأخبرهم بحاله عن طريق الإشارة فسكتوا عنه، وإلا لكانوا قد فتكوا به.

السؤال الذي كان يجيرني وقتها: هل الأستاذ أسعد المجنون يعتبر كافرًا كما يقول عن نفسه؟

هو مجنون، والمجنون لا عقل له، طيب لو كان واحد من الناس غيبًا ولم يفهم معنى الدين والإسلام، وأن الله هو الذي خلقنا، فهل يعتبر كافرًا؟ وبنفس الطريقة لو أن المؤمن الحقيقي لم يستطع شرح معنى الإيمان بالله لواحد كافر، والكافر بالتالي لم يقتنع، فهل هذا كافر حقيقي وسيعذبه الله؟ هذا ليس عدلًا، ربنا هو الذي خلق عقولنا، وعقولنا التي خلقها لنا الله لم تفهم، ثم يعذبنا الله لأنه خلق لنا عقولًا لا تفهم! أين العدل إذن؟ إذا كان الموضوع بهذا الشكل فإن الله غير عادل.

يا للمصيبة، سأعود للتخريف مرة أخرى... ولكن هذا ليس تخريفًا، هذا مجرد تفكير، وربنا لا يحاسبنا على التفكير لأنه عادل.... يا الله، ما هذا التناقض! هذه موضوعات يجب أن أعلق عليها عقلي بالضربة والمفتاح، الشيطان هو الذي يوسوس لي بها، فإذا جاءت على خاطري سأقرأ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١﴾
﴿مَلِكِ النَّاسِ ۝٢﴾ ﴿إِلَهِ النَّاسِ ۝٣﴾ ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤﴾.

ولكن كيف أقنع عقلي بالسكوت وعدم التفكير؟ عقلي يؤمني جدًا بهذه الأشياء، ولكن تمهل يا عبد الله، أنا ما زلت صغيرًا، لم أكبر بما فيه الكفاية.

ولكن الكبار أنفسهم ليست لديهم إجابات لكثير من أسئلتني.

اصمت، لا تفكر.

وكيف أصمت؟

اقرأ القصص الجميلة المسلية.

عندما أقرأ مجلة ميكي تزيد الأسئلة في ذهني، فكل الشخصيات التي في ميكي لا تموت، وتظل في نفس العمر لا تكبر أبدًا، سوسو، ولولو، ونوتو، يظلون صغارًا طول الوقت، وميكي وبنديق ويطوط يظلون كبارًا، وعم ذهب والجدة بطة يظلون جدودًا، ثم إن كل الشخصيات لا تتغير، الطيب يظل طيبًا، والشيرير يظل شيريرًا، والساحرة تظل ساحرة، عندما أبدأ في كل قصة من ميكي أعرف نهايتها من البداية؛ لأنه لا جديد، فلماذا في ميكي لا يمر الزمن على الناس؟ وما هو الزمن؟ ولماذا نكبر؟ لماذا لا نظل كما نحن مثل شخصيات ميكي؟

ما بال هذا الطفل النكد الذي يفكر في أشياء غريبة؟ لماذا لا يفكر مثل باقي الأطفال، وما الذي حرك عقله ناحية هذه الأشياء؟ وكيف يفكر بهذه الطريقة؟

يبدو أن هذا كله كان تجهيزًا له حتى يستقبل في مقبل الأيام سرًا رهيبًا يعجز العقل البشري عن تصديقه، ولكنه حدث.



في ثلاث سنوات حدثت أشياء مرعبة، وقعت نكسة 1967 ومصر، التي كانت زعيمة المنطقة، تلقت هزيمة ساحقة مؤلمة من إسرائيل! ورأينا في السماء من الطائرات الإسرائيلية وهي تغير على مطار أنشاص وتلقي عليه بالقذائف، ثم رأينا الجنود المصريين الذين كانوا في المطار وهم يهربون ويسلكون الخدائق ويغيرون ثيابهم حتى يسهل لهم الهرب من الجندية والحرب، انتاب الفرع أنشاص كلها، وأخذنا أبي إلى قرية السعيدية القريبة من أنشاص والتي كان جدي لأمي عمدة لها، لنقيم عنده أيام الحرب، في المحن يقرب الناس من بعضهم ويتآزرون، فما بالك بالأقارب والجدود والأبناء والأحفاد؟

وفي العام التالي مات محمد الميت، مات محمد الميت ذلك البستاني الطيب المستكين، مات محمد الميت الذي حكى لي قصة قاييل وهاييل وبعض قصص الأنبياء، مات حقيقة لا خيالاً ولا تمثيلاً ولا إغماءً، عندنا وصلني الخبر من عبيد ذهبته إلى بيته في الفلاحين، وعلى باب الدار صحت بأعلى صوتي متشنجاً: محمد الميت مغمى عليه، لم يمته، هاتوا له دكتور.

ولكن الدكتور جورج خرج من الدار واقترب مني وربت على كتفي وهو يقول: محمد الميت مات.. ثم وجه حديثه لعبيد: يا عبيد خذ عبد الله إلى بيته.

وفي العام الذي يليه مات عبيد، مات الذي كنت أركب خلفه الدراجة فيسابق بها الريح وأنا أصرخ وهو يضحك، مات الذي كان يحملني فوق كتفيه ويجري بي في البيت، ويصعد السلالم عدواً، مات الذي كان يمسك

يا ثم يلمس يدي لمسة خفيفة فتتابني رعدة الكهرباء
 يا أكاد أموت من الخوف والضحك في آن واحد وهو يجري
 براني صاححا وأنا أقول محذرا: عبيد بيكهرب، عبيد بيكهرب.

في العام الثالث كانت الطامة، كنت قد أصبحت في الصف الثاني
 الإعدادي بمدرسة الشهيد هاشم الرفاعي في أنشاص الرمل، ذهبت
 في المدرسة مع جملة من أصحابي إلا أن أحد المدرسين كان واقفاً عند باب
 المدرسة فجاءه إحدانا من الباب قال لنا: عودوا إلى بيوتكم فقد مات جمال
 عبدالناصر، لم نسمع من الكلام، هل من الممكن أن يموت جمال عبدالناصر
 مثل بقية الناس؟ إنه مختلف عنهم جميعاً.

عدنا إلى بيوتنا فوجدنا الخبر قد وصل إلى أهالينا، رأيت الرجال في
 طرقات التفطيش وهم يبكون، ورأيت النساء في الشوارع يولولن بحرقة، كل
 الفلاحين كانوا في الطريق العام وكأنهم لا يصدقون بل يرفضون التصديق،
 فهؤلاء أخذ كل واحد منهم خمسة أفدنة بعد أن كانوا أجراء لا يملكون شيئاً،
 وهم على ذلك يعملون في الإصلاح الزراعي ولهم رواتب ومعاشات.

أما الموظفون والمهندسون فقد رصوا كراسي أمام مقر هيئة الإصلاح
 الزراعي وجلسوا في حزن وصمت، وصوت الشيخ مصطفى إسماعيل
 يخرج من إذاعة القرآن الكريم، وعن بعد جلسنا على الأرض وأخذنا نبكي
 بأصوات خافتة أقرب ما تكون إلى الأنين، ثم سرعان ما تصاعد الأنين وصار
 نحيباً.

أريد أن أقهرك أيها الموت، حين أكبر سأصير طبيبًا وسأبحث عن علاج للموت، سأجعل الناس يعيشون للأبد، لن تقهرني أبدًا، ولكن يبدو أن الموت أخذ في اعتباره هذا التحدي فناوشني في أعلى من أملك، إذ لم يكد العام الدراسي يمر وبعد الامتحانات وقبل ظهور النتيجة، وفي أحد أيام الخميس حتى عاد أبي إلى البيت في موعده المعتاد، ودخول أبي للبيت كانت تعقبه مراسم معينة، إذ كنا نصمت جميعًا ولا نتكلم إلا همسًا، إذ لا يصح أن نتكلم أمام أبي بصوت مرتفع، فإذا كنا نتشاجر كففنا عن الشجار، وإذا كنا نلعب ونلهو كففنا عن اللعب وانضبطنا، ثم نقترّب منه الواحد تلو الآخر ونسلم عليه ونقبل يده، ويدخل هو إلى غرفته ليغير ملابسه ريثما تضع أمي مائدة الغذاء فيقوم أبي بالنداء علينا، فنأتي من حجراتنا ونجلس على المائدة، كل واحد منا على الكرسي المعتاد له، فيتلو أبي دعاء الطعام ثم يبسم فنفعل مثله ونبدأ في الأكل.

بعد ذلك دخل أبي إلى غرفته لينام القيلولة، كان لا يمكث في نومه أكثر من ساعة، ولكنه في هذا اليوم ظل نائمًا فترة طويلة حتى أيقظته أمي ليلحق صلاة العصر، وفي المساء نده عليّ فذهبت إليه، أجلسني بجواره على كنبته المفضلة، ووضع يده على كتفيّ ضامًا إياهما، كان أبي رجلًا طيبًا بلا حدود، كل الناس يعرفون أنه صاحب قلب أبيض شفاف، لم يحمل حقدًا ولا ضغينة لأحد، وكان بالرغم من صرامته الظاهرة وجديته الواضحة يسبغ علينا دائمًا حنانه المفرط، فسكن في قلوبنا حبه واحترامه.

قال أبي: أنت كبرت الآن يا عبد الله، أصبحت رجلاً.

رهكان

استربت من طريقة الحديث، إلا أنني قلت له: نعم.

قال: وتؤمن أن الموت والحياة بيد الله.

- نعم.

- أنت رب الأسرة من بعدي.

سكت ولم أرد.

- أنا أجلي اقترب وسأموت في هذه الأيام.

- بعد الشر، هل أنت مريض؟

- لا، لا أشعر بأي مرض ولكنني رأيت في أحلام كثيرة أنني سأموت،

جاء لي الأموات من أهلي في المنام وأخبروني أنهم ينتظرونني قريباً.

- هذه كوابيس اتفل عن يسارك يا أبي وقل أعوذ بالله من الشيطان

الرجيم.

ابتسم أبي وقال: لا، ليست كوابيس إنها حقيقة، المهم أن تتماسك بعد

موتي لأنك ستكون القائم بشأن هذه الأسرة، وقد تركت لك في هذا الظرف

كل الأوراق التي ستساعدكم في المعاش، وتستطيع أن تلجأ للباشكاتب

الأستاذ عبد الشكور وهو سينهي لك كل الإجراءات، وقد كتبت لك ورقة

وضعتها في الظرف فيها وصيتي، عليك أن تقرأها بعد أن أموت مباشرة.

غاب صوت أبي عن أذني فقد لفني اكتاب مريع، وتاهت أفكاري

وانفصلت شعورياً عن اللحظة التي كنت فيها وكأني أصبت بالعمى

والطرش، ولم أشعر إلا وأبي يخبط على كتفي ويقول لي: مالك؟ أنت رجل،
يجب أن تتمالك نفسك، الموت مكتوب علينا جميعاً.
اغتصبت ابتسامة باهتة وقلت لأبي وأنا أهم بالانصراف: هذه كوابيس
وأنت بخير والحمد لله يا بابا، ربنا يطول عمرك.

وعند فجر الجمعة سمعت صوت أبي وهو يخرج من غرفته ذاهباً للحمام حتى
يتوضأ فقمتم مسرعاً، كنا نصلي فجر الجمعة في المسجد دائماً، وبعد أن توضأت
أنا كذلك، قال لي أبي: أنا متعب بعض الشيء وسأصلي الفجر في البيت.
قلت له: وأنا سأصلي خلفك.

انضمت أمي إلينا في الصلاة وبعد أن انتهينا، قامت أمي وهي تقول لأبي:
سأصنع لك كوب الشاي باللبن، فرد عليها رافضاً وقال لها أن توقظه بعد
ساعتين، وساعتها سيشرّب الشاي باللبن.

دخلت إلى فراشي لأستكمل نومي، إلا أنني استيقظت على أمي تهزني
بعنف وهي تتحب: أبوك مات يا عبد الله، أبوك مات يا عبد الله.

قفزت من الفراش قفزاً وأسرعت إلى حجرة أبي فوجدته نائماً على شقه
الأيمن، أمسكت يده فوجدتها باردة، ووجدته وكأنه في نوم هانئ، رأيت على
الكومودينو المصحف الذي كان يقرأ منه فأمسكته وفتحته وإخوتي يحيطون
بالفراش ويبكون، كانت الصفحة التي فتحت عليها المصحف هي أول سورة
النحل، قرأت أول آية ﴿أَفَإِنَّ أَمْرَ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعِجِلُوهُ﴾ فأغلقت المصحف.



كانت مقبرة الأسرة في قرية الجوسق التابعة لمركز بلبليس والتي ينتمي لها أبي، صممت على أن أدخل القبر مع أبي، سأكون آخر من يخرج من القبر، حاول أعمامي أن يثنوني عن ذلك، إلا أنني رفضت بجديّة مفرطة، وكان أن دخلت معه وأخذت أراقب أحد الأعمام واثنين من الأقارب وهم يجمعون بعض العظم الذي في المقبرة ويكومونه في جانب داخل قطعة قماش مهترئة، قال العم: هذه عظام الأجداد والأعمام رحمة الله عليهم، الفاتحة لهم.

تلقي القريبان اللذان معنا جثمان أبي الملفوف في كفنه، وساعدناهما أنا وعمي، أدار عمي الجثمان كي يكون مستقبلاً القبلة، ثم فك الأريطة وأمسك بعض التراب من القبر ورشّه على الجثمان وأنا أتعجب مما يفعل.

كنت منفصلاً تماماً عن ذاتي وكأني لست أنا، ولكنني لم أبك أبداً رغم انفطار قلبي، ومع ذهولي الذي كان بادياً عليّ عرفتُ لماذا دخلت إلى القبر، فقد وضعت في ذهني أنني أريد أن أواجه الموت في عقر داره، أليس القبر داراً للموت، أنا الآن معه في داره وأتحده، أنت يا موت أبليت عظام أجدادي وأعمامي وستبلي عظم أبي؟ لن أهتم بك ولن أبالي، أنت يا موت لا شيء.

حين عدت للبيت قرأت الوصية:

«ابني الحبيب عبد الله، هذه وصيتي عن المدخرات، فلا تقلق فهي مع والدتك وهي ستكفيكم كثيراً إن شاء الله، اهتم بنفسك وبإخوتك وكن أباً لهم جميعاً، الدفن في الجوسق والعزاء على المقابر ولا داعي لغير ذلك».

ولكن الأعمام والأخوال صمموا على إقامة عزاء كبير على مدار ثلاثة أيام

أحدها كان في الجوسق، والثاني كان في أنشاص، بعد مراسم العزاء تغيرنا كثيراً إذ أصبحنا أسرة حزينة لا تعرف مكاناً للسعادة، وزاد من حزننا أننا يجب أن نترك السكن في الفيلا لأنها مخصصة للعاملين فقط، أما الذين تركوا الخدمة موتاً أو معاشاً فعليهم المغادرة.

كانت مجيدة أختي قبل وفاة أبي بعامين قد التحقت بكلية طب عين شمس، وكانت تسكن عند أحد أخوالي وتأتي إلينا الخميس من كل أسبوع وتعود للقاهرة الجمعة، وبعد وفاة أبي رأت أمي أن نستأجر لأنفسنا شقة بالقاهرة بجوار خالي في شارع ابن سندير بسراي القبة لتجمع شمل الأسرة، ولكن شمل الأسرة يتأبى على التجمع، فقد أصر جدي لأمي «العمدة غريب يوسف» على ألا أترك مدرستي «الشهيد هاشم الرفاعي» خاصة وأنني سألتحق في بداية العام بالشهادة الإعدادية، وأي تغيير للبيئة التي نشأت فيها أو المدرسين الذين تعلمت على أيديهم قد يؤدي لنتيجة سلبية، فوافقْتُ ووافقت أمي المغلوبة على أمرها.

وفي السعيدية تكون لي رفاق جدد، كلهم من أقاربي ومن جيلي، وبعضهم معي في نفس المدرسة، إذ تبتعد مدرسة هاشم الرفاعي عن السعيدية بنفس المقدار الذي تبتعد فيه عن «التفتيش» وكنا نذهب إليها من السعيدية في القطار، في حين كنا نذهب إليها من التفتيش في «الترولي» الذي كنا نطلق عليه ترولي الملك.

كان رفاقي الجدد هم مصطفى الشراوي ابن خالتي «فاطمة» وأحد ابن

خالي سعيد، وحسن ابن جدي أحمد « جدي أحمد هو الشقيق الأصغر لجدي
العمدة » كنا نمضي يومنا معًا لا نفارق بعضًا إلا وقت النوم، وكانت أطيب
أوقات المذاكرة عندنا هي تلك الساعات القليلة التي نستذكر فيها دروسنا
في مقام «سيدي سعيد» الذي كان يتوسط المسجد الكبير بالقرية. كان أهل
القرية يحكون كثيرًا عن كرامات سيدي سعيد، وكان كل ما يعرفه الناس عنه
أنه كان من الصحابة الذين جاءوا مع جيش عمرو بن العاص إلى مصر، وأنه
أقام في بليس فترة ثم تركها في آخر أيامه وأقام في هذا المكان وشيد لنفسه بيتًا
صغيرًا فيه، أصبح مقامًا له فيما بعد.

كان جدي العمدة رجلًا شديد الطيبة إلا أنه كان في نفس الوقت حازمًا،
شخصيته طاغية ورأيه حكيم، ولديه فراسة غريبة، بحيث كان يعرف من
عيوننا الأخطاء التي ارتكبناها، ومع شدته كنا نحبه ونسعد بالجلوس معه
والإستماع إليه، وجدته نمطًا فريدًا من الناس، كلماته، عباراته، تفسيره
للأحداث السياسية، قراراته كعمدة، فهمه للدين، كل هذه الأشياء كان
مختلفًا فيها عن باقي الناس، حتى إنه كان يخبرنا بأننا سنتنصر على إسرائيل
بعد عامين ولكن أحدًا من أقاربنا لم يكن يصدق، كانوا يعتبرونه «كبير
وخرف» ولكنه دائمًا كان متأكدًا مما يقول.

وكان في عبادته مختلفًا عن الذين أعرفهم، فقد كان ينام بعد صلاة العشاء
بساعة، ولكن نومه كان متقطعًا إذ كان كثيرًا ما يقوم للذهاب إلى دورة المياه
ثم يعود إلى فراشه حتى يستيقظ تمامًا في الثلث الأخير من الليل، ويظل
صاحيًا يصلي متهجدًا لله، وكنت أحيانًا أستمع له وهو يدعو الله قائلًا: اللهم

اغفر لأخي أحمد الشيباني، وأخي عبد الله، وأخي مصطفى، اللهم أسعدهم
واجمعني بهم في جنات الفردوس.

وكان يقضي يومه ما بين قراءة القرآن وتصريف أمور البلد، إلا أنه كان
يعتمد بشكل كبير على خالي سعيد الذي كان يساعده في شئون العمودية.

وفي شهر رمضان كان يأتي إلى بيت جدي «الشيخ عبد الرحمن عرفة» وهو
رجل من رجال القرآن ويمت لنا بصلة قرابة، وما إن يدخل الشيخ إلى الدار
بعد صلاة العشاء حتى يلتف حوله رجال الأسرة وشبابها وأطفالها فيبدأ
في قراءة القرآن بصوت ندي خاشع، ويستمر في القراءة إلى وقت السحور،
فيتسحر ثم ينصرف.

وغالبًا كان المكان يخلو من الأقارب قرب السحور، إلا أنني كنت أظل
جالسًا مع الشيخ أسمعته وهو يقلد الشيخ عبد الباسط عبد الصمد، وكان
حين يقرأ وأنا جالس معه وحدي يتوقف عند بعض الآيات ويشرح لي
معناها ببساطة شديدة.

وفي إحدى الليالي كان يقرأ من سورة النحل ﴿أَنِّي أَمَرُ اللَّهَ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾
كان جدي يجلس معنا وقد انفض القوم إلى شئونهم، استوقفت الشيخ
وسألته: كيف يكون أمر الله قد أتى ومع ذلك لا نستعجله؟

قال الشيخ: نزل الأمر بأمر الله من عند الله إلى الدنيا، ولكنه لم يدخل إلى
علمنا بعد، وسيدخل في علمنا عندما يقدر الله ذلك.

لم أفهم شيئًا من الشيخ، فهممت أن أستفسر منه ولكن جدي أوقفني
وقال لي: ستحدث عن ذلك لاحقًا.

لم يتحدث بعدها جدي معي في هذه الآية، ومرت الشهور ونجحت في الإعدادية، وعدت إلى القاهرة حيث أمي وإخوتي، إلا أنني كنت قد تعودت على السعيدية وعلى الساعات التي أقضيها مع رفاقي، والساعات التي أجلس فيها مستمعًا لجدي، فكنت أقضي الإجازة الصيفية كلها بالسعيدية.

وفي الإجازة التي حصلت بعدها على الثانوية العامة قضيت شهور الصيف عند جدي، وفي هذه الإجازة قص لي جدي حكاية وقعت له وعاش فيها، كانت البداية عندما قلت له ذات يوم: لم تجبني يا جدي عن سؤالتي القديم.

ابتسم جدي وقال: نعم.. الآية التي قرأها الشيخ عبد الرحمن، أعرف أن هذه الآية تشغل بالك منذ أن فتحت المصحف يوم موت أهلك فوجدتها أمامك.

ذهلت، لم أكن قد قلت لأحد من قبل أي شيء عن هذا الأمر، فكيف عرف جدي؟! استرسل جدي: هناك أشياء لا تستطيع أن تعرف معناها إلا إذا عشتها، فعقولنا نسبية، والعقول النسبية لا تستطيع أن تفهم الأشياء المطلقة ولكنها تستطيع أن تلمس جانبًا منها، وقد تلمس جوانب أكثر لو عاشت حقيقة في المعنى، ولكن كل الحقيقة ليست معنا، الحقيقة عند صاحب الحقيقة.

وجدت كلام جدي غامضًا، لأول مرة لا أفهمه، وقبل أن أستفسر قال لي: انتظر، ستعرف حالًا ما خفي عليك، هذه الآية ترتبط بغيب غاب عنا

خبره، ولكنه مع ذلك موجود في دنيانا، والله يقول لنا: إننا سنعرف هذا الشيء قريبًا، هل فهمت؟

أومأت أن نعم، عاد للكلام قائلاً: ليلة القدر نتظرها في شهر رمضان، أليس كذلك؟

- بالتأكيد.

- نقول إنها تنزل إلينا في الدنيا في العشر الأواخر من رمضان، أو في الليالي الفردية من العشر الأواخر، ويظل الناس ينتظرون الليالي الفردية بفارغ الصبر، ثم بعد ذلك هناك من يقول: إنها كانت في يوم كذا، والآخر يقول: لا، إنها كانت في يوم كذا، وذلك يدل على رأيه بعلامات يذكرها، وهذا يذكر علامات أخرى رآها في اليوم الذي حدده.

- نعم أنا سمعت مثل هذه الحوارات كثيرًا.

- وطبعًا أنت تعرف أن الدول العربية تختلف أحيانًا في بداية رمضان على حسب اختلافها في رؤية الهلال.

- فعلاً يا جدي، هذا صحيح.

- وبالتالي يا عبد الله تكون الليالي الفردية عندنا زوجية عند البلد الآخر الذي صام قبلنا أو بعدنا.

- لم آخذ بالي من هذا الموضوع من قبل!

- والسؤال هو متى تكون ليلة القدر؟

- علمها عند الله.

- والله أعطى لنا مفاتيح هذا العلم.

- كيف؟

- ليلة القدر موجودة بيننا، وما علينا إلا أن نسعى للوصول إليها، لذلك قال الرسول قال التمسوها، والالتماس مستمد من «اللمس» واللمس لا يكون إلا لشيء موجود وملموس، فأنا مثلاً لو خبأت كنزاً في مكان لا يعرفه أحد، وحددت له علامات، وقلت لك: التمس هذا الكنز، فإنك ستبحث عنه وفقاً للعلامات التي قلتها لك، ولكن في كل الأحوال الكنز موجود ولكنه غُيِّب عنا.

- فهمت، معنى ذلك أن الغيب لا نعرفه ولكنه موجود في الدنيا، والله إذا أراد؛ يكشفه لمن يشاء.

استمر جدي وكأنه لم يسمعني: وعلى نفس المعنى كل الاختراعات الحديثة كانت غيباً ثم كشف الله سرها لمن شاء من عباده، الراديو كان غيباً والتلفزيون، والتصوير، والتليفون، ولذلك تجدي مشغوقاً بكل الاختراعات، فأنا أول من اشترى راديو ترانزستور في الشرقية كلها، واشترت تلفزيوناً مع بداية الإرسال رغم أنه لم تكن هناك كهرباء عندنا في الريف كله، وأظنك شاهدت هذا التلفزيون وهو يعمل ببطارية السيارة التي كنا نشحنها يوماً بعد يوم، وتعرف أن لديّ ثلاثية كانت تعمل بأنبوبة البوتاغاز، ولا يوجد اختراع عرفته البشرية إلى الآن إلا وهو عندي، بل إنني سأريك شيئاً ما يذهلك.

أخرج جدي من جيبه صورة له وهو في الخمسين من عمره، وكان معه في الصورة شخصان لا أعرفهما، أحدهما يبدو في الخمسين مثله وإن كان شكله ليس غريبًا عني، والثالث يبدو أكبر منهما سنًا، وجنتاه غائرتان وعيناه جاحظتان، وجانبا وجهه مليتان بالتجاعيد، وعمامته غريبة.

- هذه صورة ملونة يا جدي! والتلوين لا يوجد إلا في بعض استديوهات بالقاهرة، فهل كانت هذه الصورة أبيض وأسود ثم لونها حديثًا في أحد الاستديوهات؟ ثم من هذان الرجلان اللذان معك في الصورة، أحدهما شكله ليس غريبًا عني.

- هذا علم سأقوله لك اليوم إن شاء الله، وستجد في الذي سأرويهِ لك إجابات قد تساعدك على فهم أمور شغلتك كثيرًا.

- أي أمور؟

- الموت، والحياة، والزمن، والكفر، والإيمان، والشرك، والإسلام، والمسيحية، والجنة، والنار، والرحمة والمغفرة، والعدل، والحرية، والعقل.

- يا جدي أمرك معي غريب! من أين عرفت أن هذه الأشياء شغلت بالي؟

- أنت رويت لي بعضها عرضًا، وأنا تفرست في البعض الآخر، واليوم وفي الثلث الأخير من الليل ستستيقظ معي فنصلي ركعتين ثم سأروي لك أمرًا، ستظنه أسطورة، وما هو بأسطورة، ولكنه حقيقة مسطورة.

لم أستطع النوم، أخذت أتقلب يمينًا وشمالًا وأترجى النوم أن يزور

جفوني ولكنه أبى واستعصم، كان شخفي بمعرفة الأسطورة فوق احتمالي، وأنا بطبيعتي مشغوف بالمعرفة؛ فظللت أفكر في ماهية هذه الأسطورة حتى سمعت صوت جدي يدعوني للاستيقاظ، فقممت مسرعًا وكأنني أسبق جسدي حتى أقف على هذه الأسطورة.

كان رأسي مشوشًا وأنا أصلي الركعتين وراء جدي، وبعد أن فرغنا من الصلاة روى لي جدي حكاية لم أستوعبها، كان يمسك الصورة وهو يحكيها، وكان يبكي في بعض مواضعها، حتى إنني كنت أبكي معه، وحين وصل إلى نهاية القصة علا نسيجه، وفقدت وعيي.



الإغماء هو عادتي المفضلة عندما يشق الأمر عليّ، هكذا كنت منذ الطفولة الباكرة، وكأنني أحتمي به من الأشياء التي فوق تصوري وفوق احتمال قلبي أو عقلي، أفقت من الإغماء فوجدت جدي ممسكًا بقطعة قماش في حجم المنديل، قام بتدليك وجهي بها، شممت رائحتها فوجدتها معطرة بعطر لم أشم مثله من قبل، عطر لا أستطيع أن أصفه فهو فوق الخيال وفوق النهي، لا يكفي أن أقول: إنه رائع، بل إن أدق وصف له أنه ليس من ديانا أبدًا.

قلت لجدي بصوت باهت: هل الذي قلته لي يا جدي حقيقي.

- وهل جربت عليّ كذبًا قط؟

- لا.

- ولكن العقل لا يستوعب أن هذا الأمر حدث فعلاً.

- العقل لا يستوعب أشياء كثيرة، ولكنها موجودة أو حدثت، عقولنا ضعيفة، والدنيا ممتدة، والكون يتسع، والعلم عند الله يعطي منه ما يشاء لمن شاء، في الوقت الذي يشاء وبالطريقة التي يشاء، لا راد لمشيئته.

- ليس كل العلم يصدقها الناس يا جدي، معظم العلوم لم يصدقها الناس وأنكروها قبل أن تفرض نفسها.

- يا بُني، إن الناس أبناء ما تعودوا عليه وأعداء ما يجهلون، لا تقبل عقولهم ما لا يفهمونه، لذلك فأنا أوصيك أن تكتم ما قاتته لك عن الدنيا كلها، لا تحكه لأحد، ولو خرجت على الناس بالسرا الذي قلته لك لا تهموك في دينك وعقلك، وإن أحسنوا الظن بك فسيقولون: إن هذه مجرد «تهاويم» خطرت على قلب أحد الصوفيين ما بين اليقظة والنام. أنا أشفق عليك وعلى دنياك. قالها لي جدي برفق وأناة.

- إذن سأحتفظ بالسري يا جدي، ولكن إذا وجدت أن العالم يحتاج إلى أن يعرف ما أخبرتني به فسأحكيه ساعتئذ، لا بد وأن أكتب للناس وقتها سر، هذا علم والعلم يجب أن أبوح به.

- ليس عليك هذا، فهناك علم يجب أن تتعلمه للناس، وهناك علم لا يطيقه الناس، لا تثريب علينا إن كتمناه عنهم.

- ولا تثريب علينا كذلك إن قلناه لهم عندما نجدهم على شفا حفرة من

الهلاك.

- وهو يريد - عفون يا ولدي أن تقبل وتفهم ما يتجاوزها؟! أخشى أن يظنها السرس حدوتة من بت الخيال

- العلم كله با جدي في الحكاية، فإذا مجت عقول أجيالنا حكايتك، وسخرت من سرك، فستأتي أجيال في قادم الأزمان ترحب بها، بل لعلها قد تكون وقتئذ من الثوابت التي لا شك فيها، من يدري؟! ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ألم يقل الله ذلك؟

- إذن أنت تعرف الحكاية وتحفظها كما تحفظ اسمك، لك أن تخبر الناس بها ولكنني ناصحك أن تحسن اختيار الزمان، هذه هي الأمانة التي سأتركها لك، ولك حرية التبليغ والكتمان.

أذن الفجر، فقمنا للصلاة، وبينما جدي يؤم العائلة كلها للصلاة غاب في السجدة الثانية في الركعة الثانية، فتململ أحدنا، ونحن آخر، ولم يصدر صوت من جدي! فقام خالي سعيد وهز جدي الذي كان ساجداً، ولكنه كان قد مات.

كان عزاء جدي فريداً في الشريعة كلها فلم يحدث أن تجمعت قرى بأكملها لتوديع ميت، حتى إذا الناس من كل القرى والمدن القريبة والمراكز والعزب والكفور كانوا يتوافدون على الجنازة بشكل أكبر من قدرة القرية على استيعابهم، وكانت الغنيمة التي احتفظت بها لنفسي هي صورة جدي الملونة مع الشيخ أحمد والشيخ مصطفى، ومعها قطعة القماش ذات الرائحة الذكية التي ترك بهجة في النفس وجلاء في الروح.

كنت وقتها على مشارف الشباب، أتلمس خطواتي في الحياة، ومن بعدها أخذتني الدنيا بأريجها وريحها وضجيجها، انفعلت مع الحياة وانفعلت معي، حنكتني الأحداث وتجارب الحياة، تزوجت وأنجبت، نجحت كثيرًا وفشلت كثيرًا، ومع رحلة الحياة لم ينقطع السر عني ولم يغادرني، بل تستطيع القول: إنه كان يرسم الكثير من خطوات حياتي ويحدد بعض اختياراتي، يزورني في الأحلام دومًا فأعيش معه وأنفصل عن الدنيا كلها، ولكن مع إلحاح السر على ذاتي وكيونتي كلها فإنني لم أفصح عنه لأحد ولا حتى لأقرب المقربين مني، غريبة تلك النفس التي تظل عمرها محدودبة على سر كوني أقرب للخيال هو من الحقيقة! هناك حقيقة تدركها الحواس وحقائق أخرى تُفجزها، ومن الحقائق ما تذهل بسببها العقول والأفئدة، فإذا عجزت وذهلت استشرفتها الأرواح.

شيئًا فشيئًا ومع مرور الزمن أصبحت حكاية جدي سر أسرار حياتي، وكان هذه الحكاية ابني الصغير الذي أتعهده بالرعاية والمتابعة، أقرن هذا السر دائمًا بالواقع الذي نمر عليه ويمر علينا، أتأمل آيات الكون، أسرع الخطى ناحية من سمعت عنهم الصلاح والعلم والحكمة فأجالسهم، ألتقط المعرفة من أي طريق، تعرفت على شيوخ كنت أحسبهم على شيء فإذا بهم كالوعاء الفارغ، وصاحبت نفرًا من الرجال تزدريهم الأعين وهم في حقيقتهم نور آدمي يسري بين البشر، لو علم الناس والملوك فضلهم لتقاتلوا على الجلوس معهم والأخذ منهم وهم مع ذلك نكبات بين الناس، وفي كل رحلتي في الحياة كان «سر جدي» وحكايته هما شغلي الشاغل وحلمي الأعظم.

ولأن الأمانة التي حملتها على كاهلي والسر الذي ضمخ فؤادي يتعلق
بالزمن فقد أصبحت «قصة جدي» حياة كاملة أعيشها وأحلم بها، هي حياة
تحولت إلى حلم سرمدي، أذهب في أحلامي إلى طفولتي، أراني في صباي
الأول عاكفاً على كتاب أو متجولاً في حديقة أو جالساً وحدي على ترعة
الإسماعيلية، وأراني في حلم آخر وأنا أصيل إلى قمة الدهشة عندما يخرج
جدي من «محفظة الكبيرة» قطعة القماش البيضاء الغريبة النسج ذات
الرائحة الذكية، والتي تقرأ فيها عبارة مطرزة على النسيج «من أبي عبد الله
أحمد بن محمد الشيباني لعبد الله غريب بن يوسف السعيد الثقفى باركك
الله ورفع قدرك في الدنيا والآخرة».

والآن إذا وصلت رسالتي إليكم، فترحموا على أحمد بن محمد الشيباني،
والحاج غريب بن يوسف السعيد الثقفى، والعبد الفقير إلى الله ناقل هذا
العلم عبد الله أبو يحيى الجوسقي.

الحياة الثانية

زمان

الإنسان والإنسان

«يجتازنا الزمن ولا نجتازه، يمر بنا ولا نمر عليه،
وحين يمر بنا لا نستطيع أن نخرج منه أو نوقفه إلا أن
يشاء الله. إن الله على كل شيء قدير».

الشيخ محمد الفضالي

ولما كان يوم الثلاثاء الموافق الحادي والعشرين من شهر رمضان من
سنة مائتين وتسعة عشر للهجرة، والذي يوافق التاسع والعشرين من شهر
سبتمبر عام 834 ميلادية،

استشاط الخليفة أبو إسحاق محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد غضبًا:
أقسم أن أقتل هذا الشيخ الغبي المهرطق⁽¹⁾ الذي لا يفهم شيئًا ولا يجب أن
يفهم، ما بال هذا الرجل يتماذى في غيه، ما باله لا ينزل على رأبي حتى بلغ
به الصلف أن جاهر بمعارضتي أنا المعتصم بالله، ألم ير علماء البلاد وهم

(1) المهرطق هو الذي يتدع في الدين ما ليس فيه.

يتقاطرون عليّ، وينحنون أمام رأبي ويقولون بأن القرآن مخلوق، هذه قضية منطقية لا شك فيها، ألم يقرأ هذا الشيخ الحرف ما قاله الله في محكم كتابه ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ فكل ما جعله الله فقد خلقه، ليس هذا من عندي ولا هذا من ظنوني، بل إن الله هو الذي قال ذلك ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ جعل أي خلق أيها الغبي الذي لا يعرف شيئاً عن القرآن، أليس في عيني هذا المتمرد نظر؟! كيف يظنه الناس فقيهاً أو عالماً أو محدثاً، إنه ومن معه شر الأمة ورءوس الضلالة، إذن لا بد مما ليس منه بد، إذا لم يعدل هذا الشيخ عن بهتانه فسأقتله، أقسم أن أقتلك يا ابن حنبل وليكن ما يكون.

اقتيد ذلك الشيخ المريض المنكود⁽¹⁾ أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني لمجلس الخليفة وهو يرسف في الأغلال، تناقلت قدماء وهو يثن في داخله من الضعف والمرض والوهن والأنقال، سمع ابن حنبل صوتاً صافياً ندياً، انتبه للصوت وأرهف السمع، ولكنه أدرك أن هذا الصوت ليس صوت أحد الجالسين في مجلس الخليفة، كما أنه لم يصله من خلال الأذن، من أين أتى هذا الصوت الشجي وكيف تردد في فؤاده؟! وي⁽²⁾، إنه صوت لا تدركه الأسماع ولكن تدركه القلوب! هذا صوت انتقل إلى روحه من روح أخرى، وكان أحداً يخاطبه عن بعد، كان الصوت في بدايته بعيداً ثم أخذ في الاقتراب شيئاً فشيئاً، اجتمع الحرف مع الحرف والكلمة مع الكلمة، فانسابت المعاني

(1) منكود: أي تعس سبي الحظ.

(2) وي: كلمة تقال للتعجب.

واضحة إلى قلب ابن حنبل، ها هو يرهف روحه للصوت وهو يقول: لك
الله يا ابن حنبل، أنت في ضعفك جبل شامخ، يزيدك موقفك قوة على قوة،
يحمل جسدك الأغلال والأثقال والأقياد، وتحمل روحك الأمانة التي تحملها
لك رسول الله ﷺ، وتحتمل إرادتك تلك المحنة، أنت تثوب عن الأمة كلها
أنت الآن في موضع الرسالة، ومن كان نائباً ورسولاً لا يضعف ولا يتلين،
لا تخف يا ابن حنبل، لن يقتلك الخليفة، لن يستطيع ولو اجتمعت معه الأمة
على قلب رجل واحد، بل سيخلد ذكرك، افتر ثغر ابن حنبل عن ابتسامة
سمحاء أضاءت وجهه كأنه انتهى من وضوئه تَوَاضَعًا

نظر إليه الخليفة المعتصم: ويحك⁽¹⁾ يا أحمد، أفي هذا الموقف تبتسم؟! والله
ما أراها إلا ابتسامة سخرية، ومع ذلك فأنا عليك شفيق، وإني لأشفق عليك
مثل شفقتي على هارون ابني، فأجني.

نظر ابن حنبل لقيوده، وتفرس حاله، ونظر حواليه وهو يزم شفتيه،
ثم استشرف بوجوده حال الأمة كلها ثم قال بصوت شديد الوهن: يا
أمير المؤمنين، أعطوني شيئاً من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ، يقول ما
تقولون، يا أمير المؤمنين، أتكلم معك وقد أثقلتني الأقياد، ولكن الحق أحق
أن يتبع، أنا يا أمير المؤمنين أو من بحديث جدك ابن عباس الذي رواه عن
رسول الله ﷺ، فعندما جاء وفد عبد القيس لرسول الله ﷺ أمرهم بالإيمان بالله،
فقال: أتدرون ما الإيمان بالله؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. فقال: شهادة أن لا
إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة و... و...

(1) تقال للتريخ.

قاطعه المعتصم بحسم: ماذا تقول في القرآن؟

كاد ابن حنبل أن يقع على الأرض من شدة الأثقال والأغلال والوهن إلا أنه تماسك وشرأب بعنقه وهو يقول: كلام الله، قديم غير مخلوق، فقد قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَةَ اللَّهِ﴾.

المعتصم: أعندك حجة غير هذه؟

ابن حنبل: نعم ﴿الرَّحْمَنُ ۝۱ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ فلم يقل خلق القرآن. ضجر الخليفة من ابن حنبل، وتأفف من ثباته: عليك لعنة الله يا ابن حنبل لقد كنت طمعت فيك، وقع في ظني عندما رأيتك أنك رجل علم وفهم، فإذا بك رجل غم وهم.

ثم نظر حواليه وقال موجهًا حديثه لأحدهم: ماذا تقول في هذا؟

وقف أحمد بن أبي داود قاضي قضاة المعتصم وقد أعماه الغضب: اقتله يا أمير المؤمنين حتى نستريح منه، هذا كافر مضل.

قال الخليفة: إني عاهدت الله ألا أقتله بسيف ولا أمر بقتله بسيف.

سكت ابن أبي داود برهة ثم حك عمامته بيده وهو يقول: اقتله ضربنا بالسياط، الأشراف يُقتلون بالسيف، والعبيد يُقتلون بالسياط، وهذا في مرتبة العبيد.

صاح الخليفة: ستموت اليوم يا ابن حنبل شر موة.

ولما كان يوم الخميس الثامن من ذي الحجة من عام 1366 هجرية،
الذي يوافق الثالث والعشرين من أكتوبر سنة 1947 ميلادية،

بعد صلاة الفجر يوم التروية تحركت القافلة الصغيرة متجهة من مكة
صوب منى وهم يرتدون ملابس الإحرام، ركب الحاج غريب يوسف ومعه
زوجه «سيادة» ناقة تقدمت الركب، وكان قد اشترى من جدة «شُقْدَف»
يوضع على ظهر الناقة فيسعهما، والشقدف عبارة عن سريرين منفصلين
بطول الإنسان وله فراش من أعلاه يقضي الراكب من الشمس والمطر،
وسارت خلفه بقية النوق وفوقها «المحففات» تحمل زوج ابنته «ناجية»
الحاج محمد فَرَّاج، وبعض الحجيج من مديرية الشرقية، وتوسط الركب
ناقة تحمل متاع الحجيج، أخذ ابن المطوف محمود بن عبد القادر الهمداني
موقعه كحادي للركب⁽¹⁾، صدح بالتلبية «ليك اللهم ليك» فارتجت القافلة
من صيحات الملبين، انتفض قلب الحاج غريب يوسف انتفاضاً إيقاعياً مع
أصوات الملبين، وارتجف رهباً مع ارتجاف الناقة في سيرها، فها هو في الحج
للمرة الثانية في حياته، كانت الرحلة الأولى شاقة إلا أنها كانت أروع ما مر
على حياته، وها هي الرحلة الثانية يصطحب فيها زوجته أم أولاده «سيادة
علي عرفة الرفاعي» من نسل السيد أحمد الرفاعي والتي يصل نسبها لسيدنا
الحسين رضي الله عنه، أما هو فيصل نسبه إلى قائد الجند الأموي الحجاج بن
يوسف أبي عقيل بن الحكم الثقفي من ثقيف بالطائف. كان فؤاد زوجته

(1) الحادي هو الذي يسوق الإبل بالفناء.

يرتفع في فيض من إيمان ورضا وقناعة لا مثيل لها، وكان قلبه بين اثنتين، فهو الحاكم الذي لا يلين، وهو الزاهد الصوفي الذي لا ينقطع عن البكاء من خشية الله، منذ أن أصبح عمدة لقرية السعيدية بمركز بلبليس مديرية الشرقية منذ سنوات قليلة وهو يديرها بقوة شكيمة ومضاء عزيمة ونفاذ بصيرة، وكان في ذات الوقت يتفرغ للعبادة وكأنه لا يحكم ولا يدير.

كان الظاهر بيبرس قد أقام هذه القرية عام 668 هجرية 1269 ميلادية إبان حكمه، جعلها درة من الدرر الفريدة في مديرية الشرقية ناحية بلبليس، وجعل في أوسطها قصرًا له - لم يُقم فيه أبدًا - حتى عدها المؤرخون من أعماله العمرانية النيرة، ولأن الظاهر بيبرس كان ممن يتفاءلون ويتطيرون فقد أشار له أحد المنجمين أن يطلق على هذه القرية اسم السعيدية نسبة إلى أحد الأولياء المدفونين فيها « سيدي سعيد » - والفلاحون ينطقون سعيد بتسكين السين وكسر العين على عادة طريقة نطق المصريين أيام الفراعنة - والذي كان مقامه مزارًا لأبناء قرى حفنا والجوسق والعبسي وبير عمارة وهي القرى التي تحتضن المقام وتحيط به.

وفي نهاية حكم الظاهر بيبرس اشتعلت النار في قصره بالسعيدية وامتدت إلى بيوت القرية فأحرقتها بالكامل فابتأس بيبرس واعتبر أن هذا الحريق نذير شوم، وبالفعل لم يمر العام حتى مات بيبرس مسمومًا بسم كان قد أعد له لأحد القادة من قواد جيشه ولكنه أخطأ وتجرعه.

أقام بعض المماليك قرية السعيدية مرة أخرى بعد ذلك طمعًا في قصرها

وموقعها وغيطانها، إلا أن ما حدث في السابق تكرر مرة أخرى، فقد احترقت القرية بكاملها، سبع مرات والقرية تُبنى ثم تُحرق حتى أطلق عليها الناس اسم «المحروقة».

ومع ذلك لم ينصرف الناس عن السكن في تلك القرية، وكيف يتركونها وفيها مقام «سيدي سعيد» الذي لم تصل إليه النار ولا لمرة واحدة رغم أنه كان في قلب القرية؟! كانت النار تصل إلى جميع الدور فإذا أتت ناحية المقام انحرفت بها الرياح إلى جهة أخرى فيظل المقام سليماً، وهو الأمر الذي جعل أهل القرية أشد الناس تمسكاً بها تبركاً بسيدي سعيد ومقامه الغريب.

مرت الأزمان والقرية واقعة في لعنة الحريق، قامت فيها حرائق لا حصر لها حتى اعتبرها الفلاحون قرية موبوءة بالحريق إلا أنهم في ذات الوقت اعتبروها واقعة في حماية سيدي سعيد، ولكن شيئاً ما يمنع بركة سيدي سعيد من أن تحل بالمكان! وفي كل مرة يشتعل فيها حريق بالبلد يهرع الأهالي للمقام يوقدون له الشموع ويقدمون له النذور، ومع ذلك فلا يمر العام حتى يتكرر الحريق مرة أخرى حتى بات أمراً اعتيادياً مألوفاً على مر الأجيال، وإذا كان الفلاح من أعيان تلك القرية يذهب إلى بلبس في حاجة له، سواء للاتفاق مع «الخواجة» فرغوبلي «تاجر الأقطان، أو ليشترى ماشية لأرضه كان الخواجة أو التاجر يقول له: أنت من قرية المحروقة؟ إذن يجب أن تقوم بتوريد القطن قبل موسم الحريق. أو إن كامل ثمن الماشية يجب أن يتم سداده قبل أن تشعلوا النار في قريتك، فيضحك الفلاح ملء شذقيه وهو يقول: القطن بتاعي واخذ من بركة سيدي سعيد فلا تمتد له النار، كنت

زمكان

تيجي تشوف الحريق بتاع «أول عمّوّل» النار كلت الدنيا كلها وجات على داري ووقفت.

أو يقول لتاجر المواشي: طب دا ديك النهار لما النار مسكت في البلد وكانت رايحة نحية الزريبة يادوبك قلت يا سيدي سعيد قامت النار حودت بعيد غادي.

أخذ الأهالي يبحثون عن حلول لمواجهة هذه الحرائق مجهولة السبب، وفي ليلة صيفية هادئة اجتمع أحد رجالات القرية واسمه «يوسف غُرَيْب» ومعه إخوته غريب وحفني وحسن، مع جده لأمه الشيخ «حسن أبو عرفة» عمدة القرية، وضم الاجتماع رءوس عائلات فراج والأهواني وعرفة وغالي. كان الحاج حسن أبو عرفة عمدة المحروقة من كبار ملاك الأراضي في تلك الناحية وكان يقتني عددًا من العبيد جعل بعضهم لحراسة مخازنه وغلاله وأطيانه، وجعل البعض الآخر لخدمة البيت والأضياف، يعرف الناس قدره ونسبه إذ يصل نسبه للسيد أحمد الرفاعي وصولًا إلى سيدنا الحسين رضي الله عنه، وكان أهل المنطقة يطلقون عليه «الشيخ حسن أبو عرفة حفيد النبي» وهو الأمر الذي كان يضيف إلى مقامه مقامًا وعلوًا، ورغم تنامي نفوذه وسلطانه في قرى المنطقة فإنه كان رجلًا حكيمًا حصيفًا حافظًا للقرآن رءوفًا بالناس رحيماً بعبيده، لم يره أحد ينهر أو يسخط أو يتأفف، فإذا قال له أحدهم إن شئون العمودية تقتضي الحزم والغلظة، كان يرد قائلًا: إنما أتأسى بجدي النبي ﷺ.

وفي الاجتماع الذي انعقد في بيت العمدة أو «البيت الكبير» كما كانوا يطلقون عليه، قرر الحاضرون بناء مسجد كبير يحيط بالمقام، فقد سمع يوسف غُرَيْب من الشيخ ذائع الصيت محمد الفضالي أن المقام بلا مسجد كالرجل بلا بيت، ولعل الحرائق التي تنشب في البلد يكون سببها غضب سيدي سعيد على إهمال أهل البلد له وعدم بناء مسجد له، أيكون عندهم سيدي سعيد ولا ينون له مسجدًا ويقيمون مسجدهم بعيدًا عن المقام!؟

المهم أن بناء المسجد اكتمل ودخل المقام إلى المسجد وأصبح له خادم مقيم ينظفه ويقوم على شأنه وشأن شموعه وبخوره ونذوره، ولكن ما إن حال الحول حتى نشب حريق كبير في البلد كالعادة!!

ولما كان يوم الأربعاء الموافق الثاني والعشرين من شهر رمضان من سنة مائتين وتسعة عشر للهجرة، والتي توافقت الثلاثين من شهر سبتمبر عام 834 ميلادية

اجتمع خلق كثيرون أمام بيت ابن حنبل في حي الكرخ ببغداد يطلبون الاطمئنان على الإمام، فخرج عليهم ابنه عبد الله وقال لهم: إنه الآن في أسر المعتصم لا يعرف شيئًا عن حاله منذ أن أخذوه من الدار. وأين هو الأسر يا عبد الله؟ هكذا قال له أحد الخلق.
— الأسر في القصر.

ضجت الرعية بالبكاء وجارت⁽¹⁾ بالدعاء والتضرع حتى خرج عليهم

(1) جارت: استغاثت ورفعت صوتها.

من بيت مجاور لبيت ابن حنبل رجل رُبَّعَة ليس بالطويل ولا بالقصير أبيض الوجه مُشَرَّبٌ بِحُمْرَة، أخذ هذا الرجل يصيح بصوت جهوري أسر فسكت الناس عن الكلام وأخذوا ينصتون له وكأن على رؤوسهم الطير.

- يا عباد الله، إن الله لا يستجيب لقوم قعدوا، إن الله لا يستجيب إلا لمن يتحرك صوب الحق، إن تنصروا الله ينصركم، إمامكم الآن يُمتحن عن الأمة كلها في فتنة عمت وطمت⁽¹⁾، وسيجلدونه في أحد أفنية قصر الخليفة، فاذهبوا إليه وانصروه.

تحرك الناس على الفور زرافات⁽²⁾ وفرادى، واتجهوا صوب قصر الخليفة، وعند أسوار القصر وجدوا جماعات من الناس يصيحون ويصخبون، والجند يحاولون منعهم من التقدم، ظل الناس على تجمعهم، وكانت أعدادهم تتزايد كل برهة حتى أصبح الرائي لا يستطيع الوصول بصره إلى نهاية الجموع.

ظل العامة خارج القصر ينتظرون نتيجة الامتحان، وما عثموا أن هجسوا⁽³⁾ بامتحان إمامهم وتعذبه حتى عراهم الاضطراب، ولج⁽⁴⁾ بهم القلق، وظهر كأن قصر الخليفة سيغدو هدفا لهجومهم، فأخرج المعتصم لهم «إسحاق بن حنبل» عم الإمام أحمد ليموه عليهم بأن الخليفة لم يلحق بأحمد

(1) عمت وطمت: زادت وغطت.

(2) زرافات: جماعات.

(3) ما عثموا أن هجسوا: ما لبثوا أن خطر على بالهم وسرعان ما انتابتهم الهواجس.

(4) ولج بهم القلق: داخلهم القلق.

أذى ولم يصبه بسوء، وقف إسحاق بن حنبل بين الناس قائلاً: أيها الناس، إن إمامكم ابن أخي بخير حال وهو يناظر العلماء إلا أن دروب الجدل طويلة، وسيعود إلى بيته بعد المناظرة سليماً مكرماً إن شاء الله.

ومن جوف الناس برز عبد الله بن أحمد بن حنبل وتقدم ناحية باب القصر فأفسح له الجند وأدخلوه فوقر في يقين الناس أن الإمام في خير حال، فهدأت النفوس إلا أنهم ظلوا على حالهم لا يغادرون أماكنهم قيد أنملة.

وعند الفجر رفع رجل الأذان ثم أقيم للصلاة، وإذا بمن رفع الأذان يتقدم الصفوف ليؤم المصلين، قال: الله أكبر. فكبر الناس ودخلوا في الصلاة، سكت طويلاً ثم قال: السلام عليكم ورحمة الله، السلام عليكم ورحمة الله. تعجب الناس مما حدث وقالوا: نجبول يؤم المصلين! إنا لله وإنا إليه راجعون. فصاح الرجل: إي وربي، إنا لله وإنا إليه راجعون، لقد مات القرآن، مات القرآن، كيف أصلي بكم والقرآن قد مات، مات القرآن، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فهيا بنا نغسله ونكفنه وندفنه!!

صاح الناس: أنت مجنون، أنت مجنون.

قال الرجل الغريب: لست أنا المجنون، بل المجنون هو من يقول إن القرآن مخلوق، فكل مخلوق لا بد وأن يموت.

ولما كان يوم الخميس الموافق الثالث والعشرين من شهر رمضان من سنة مائتين وتسعة عشر للهجرة، والذي يوافق اليوم الأول من شهر أكتوبر

عام 834 ميلادية،

دخل ابن حنبل على مجلس الخليفة وهو مكبل بالأغلال مثقل بالأقياد يرسف⁽¹⁾ من وطأة ما هو فيه، قال له الخليفة المعتصم بالله: هذه فرصتك الأخيرة أيها الشيخ الخرف، هل ما زلت على قولك؟ إنك إذن من الذين سلكوا مسلك الثنويين والوثنيين والمجوس الذين جعلوا الإله الواحد آلهة متعددة، أنت بقولك هذا تجعل من القرآن إلهًا، يا ابن حنبل، كل ما عدا الله مخلوق، فهل القرآن هو الله في زعمك؟!

كانت الدنيا تدور بابن حنبل، وكان الألم يعتصره، ولكنه كان ثابتًا على موقفه، مرت عليه في هذه اللحظة ذكريات حياته، يتذكر يوم أن كان طفلاً صغيرًا وجنازة تخرج من بيتهم، فقد مات أبوه، لم يكن وقتها يستشعر معنى اليتيم، ولكن الرجل الطيب الذي كان يحنو عليه اختفى، أين ذهب؟ كان هذا هو السؤال الذي ظل يسأله أمه، وكانت الأم تجيب الصغير بفطرتها: لقد ذهب إلى مكان أحسن من مكاننا.

فيرد الصغير وهو يحبس دموعه: وهل هناك أحسن من بيتنا؟

- نعم. يوجد يا بُني.

- نعم عرفنت، ذهب إلى قصر الخليفة.

- بل ذهب إلى قصر رب الخليفة.

- وعن رب الخليفة؟

(1) يرسف: ينسحب، ينسحب من أجل القيد.

- الله ربنا جميعًا.

- أنا أريد أن أذهب إلى ربنا.

تلاشت الصورة من ذهنه على صوت المعتصم وهو يغلظ له القول: أجب أيها السفية، هل القرآن هو الله؟

رد ابن حنبل بصوت مرتفع: أحد صمد، لا شبيه له ولا عدل، وهو كما وصف نفسه.

ارتفع الضجيج في مجلس الخليفة من أتباع هذا السلطان، يوجهون الأسئلة لابن حنبل، وهم يطمعون في هزيمته وقهره وإذلاله.

أغمض ابن حنبل عينيه، غاب مرة ثانية بروحه عن أهل المجلس وكأنه ليس معهم، هام في دنيا أخرى، جرت في خياله صورة الإمام الشافعي، كان قد مات منذ خمسة عشر عامًا، ولكنه كان ماثلاً أمامه وكأنه يشد أزره، شاخصًا أمام بصيرته يهدد جأشه، ندت عنه ابتسامة شاحبة وهو يتذكر نبوءة الإمام محمد بن إدريس الشافعي، النبوءة، نعم النبوءة! الله در الشافعي أي رجل كان! لا يزال ابن حنبل يتذكر ذلك اليوم الذي جاء له فيه رجل من مصر يدعى الربيع بن سليمان، تدخل الرجل عليه في المسجد وأخذ ينظر إليه مليًا، وعندما عرفه وتيقن أنه هو سلم عليه وقال له: أنا رسول أخيك محمد بن إدريس الشافعي وقد أرسل إليك هذا الكتاب. فرح ابن حنبل فرحًا كبيرًا، يا الله، ما هذه الليلة السعيدة، أليستادي وشيخي الشافعي بنفسه يرسل لي رسالة! أخذ ابن حنبل يسأل الرجل عن الشافعي وأحواله وأحوال أهل مصر قبل أن ينظر في الكتاب، ثم قال للرسول: هل نظرت في الخطاب؟

قال الرسول: لا.

فض ابن حنبل الختم وقرأ الكتاب حتى إذا بلغ موضعاً منه بكى.

قال رسول الشافعي: يا أبا عبد الله، أي شيء قد كتب إليك؟

ابتسم ابن حنبل: ذكر الشافعي في كتابه لي أنه رأى النبي ﷺ في نومه وهو يقول له: بشر هذا الفتى أبا عبد الله أحمد بن حنبل أنه سيمتحن في دين الله، ويدعى أن يقول القرآن مخلوق، فلا يفعل، فإنه سيضرب بالسياط، وأن الله عز وجل ينشره بذلك علماً لا يطوى إلى يوم القيامة.

فرح رسول الشافعي وقال لابن حنبل: هذه بشارة ورب الكعبة، إن الله سينشر لك علماً لا يطوى إلى يوم القيامة، فأأي شيء جئتني عليها؟

عاد ابن حنبل بويعه إلى مجلس الخليفة على صوت الوزير ابن أبي داود وهو يقول: تبأ لك، إنك أحدثت في ديننا أمراً عظيماً، ليست أمامك فرصة أخرى للعدول، فيما أن تعدل، وإما أن تقتل.

ظل ابن حنبل ساهماً وكأنه لم يسمع الوعيد، وعاد بروحه إلى رسول الشافعي حامل الخطاب، رأى نفسه وهو يخلع من على كتفيه غطاءً كان يتدثر به من البرد ويعطيه للرسول هدية، ابتسم ابتسامة هادئة بشوشاً وهو يتذكر تلك اللحظة وفرحة الرسول بالهدية، ومرة الأحداث على ذهنه فزادت ابتسامته اتساعاً على وقارها وهو يتذكر وقع الهدية على الشافعي نفسه «إذ عاد الربيع بن سليمان إلى مصر ودخل على الشافعي، فعرف الإمام قصة الثوب، فقال للرسول: والله لا نفجعك فيه ولكن اغسله وجئنا بهائه. ولما

غسله وأعطاه الماء في قنينة، أخذ الشافعي يمسح كل يوم من هذا الماء على وجهه تبركًا بذلك الفتى المغمور الذي سيمتحن ذات يوم في كتاب الله وفي دين الله وسيثبت على الحق! ».

وها هو الآن يُمتحن وفقًا لنبوءة الشافعي ورؤية رسول الله ﷺ، انتبه ابن حنبل على رجال يجذبونه بغلظة إلى آلة الضرب ليربطوه فيها، فأوقفهم بقوة شكيمته ونظر إلى الخليفة: يا أمير المؤمنين، لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن سيدنا محمدًا رسول الله إلا بإحدى ثلاث، فبم تستحل دمي؟ يا أمير المؤمنين، اذكر وقوفك بين يدي الله كوقوفي بين يديك، يا أمير المؤمنين راقب الله.

بوغت الخليفة بكلام ابن حنبل فتغير وجهه وأطرق برأسه وانسابت الدموع من عينيه، وظهر لين قلبه من قسماته، كاد الخليفة أن يوجه حديثه للجنود بترك الرجل المقيد بالأنتقال، ولكن الوزير أحمد بن أبي داود قفز من مكانه وكان عقربًا لدغه: يا أمير المؤمنين، إن تركته قيل: إنك تركت مذهب المأمون وسخطت قوله، وإن هذا الدعي الكافر غلب خليفتين، أتقبل أن يغلبك رجل من أغمار أمتك؟ عاد الهياج إلى وجه الخليفة فأخذ يتجول في المكان حيرة، ماذا يفعل وايم الله، أتركه، أم يقتله؟ ابتعد الخليفة إلى أقصى المكان وكأنه يتبعد عن الذنب الذي يوشك أن يقع فيه، ثم طلب كرسيًا فأتوه إياه ثم جلس وقال: اضربوه.

تقدم صاحب الشرطة إلى الخليفة باضطراب وقال له: رجل يبدو أنه مجنون يثير الناس خارج الأسوار ويقول لهم: إن القرآن قد مات.

قفز ابن أبي داود خطوة وقال للخليفة، رأيت كيف يعيشون بعقول
الناس؟

رد عليه الخليفة وقد ضاق صدره: هذا كلام المجانين، ليس على المجنون
حرج يابن أبي داود.

ضحك ابن حنبل، وما رآوه ضاحكاً من قبل، فقال له الخليفة: علام
تضحك يا رجل؟

قال ابن حنبل: هي منحة لا محنة، فقد فقه العامة ما جهلته الخاصة، هذا
الرجل يرد عليكم، يقول إذا كان القرآن مخلوقاً فحق عليه الموت مصداقاً
لقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾.

تمعر⁽¹⁾ وجه الخليفة وقال للجند: اضربوه، قطع الله أيديكم.

استمهلهم ابن حنبل ثم أخذ صرة صغيرة من قماش وربطها إلى كم
قميصه، فقام إليه صاحب الشرطة إسحاق بن أبي إبراهيم المصعبي وسأله:
ما هذه الصرة التي صررتها في كم قميصك يا أحمد؟

نظر له ابن حنبل بوجهه الهادئ المتعب: فيها شعرتان من شعر النبي ﷺ.

وإذ جذب أحد الجنود قميص ابن حنبل ليمزقه نهره صاحب الشرطة:
لا تمزقه، ولكن انزعه عنه.

تقدم الجندي الأول فضرب ابن حنبل ضربتين والخليفة يقول له: أوجع،
قطع الله يدك. فقال ابن حنبل: بسم الله.

(1) تمعر: تغير لون وجهه وعله الصفرة.

وضربه الجندي الثاني فقال ابن حنبل: لا حول ولا قوة إلا بالله.

وضربه الثالث، والرابع والخامس وهكذا دواليك وابن حنبل يقول عقب كل ضربة: «القرآن كلام الله غير مخلوق»، ثم «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا»، ثم «ما شاء الله كان»، ثم «هذا في رضى الله»، وعند الضربة الثلاثين انقطع رباط سرواله وكاد السروال يقع فتنكشف سوءته، فرمى ابن حنبل طرفه نحو السماء، وحرك شفثيه قائلاً: اللهم إني أسألك باسمك الذي ملأت به العرش إن كنت تعلم أني على الصواب فلا تهتك لي سترًا ولا تُبد عورتني، فما أسرع أن ظل السروال في مكانه لم يتحرك رغم انفصال رباطه عنه!

ومع توالي الضربات خف أثرها عليه، وعاد ابن حنبل إلى أزمته وهو بعد صغير، فرأى أمه وهي تتعهد برعايتها وترسله وهو في الخامسة عشرة من عمره إلى المحدث «هشيم بن بشير الواسطي» ليتلقى منه علوم الحديث، رأى ابن حنبل نفسه وهو يبحث الخطى ناحية المسجد الذي يلقي فيه بن بشير دروسه، يسير بخطواته الوثيدة وهو يحمل معه جرابه الذي فيه لوحه وريشته وقطعة جبن صغيرة وكسرة خبز، ثم رأى نفسه وهو يجلس على شيوخ الحديث فيأخذ منهم ويسلك دروبهم، ثم إذا به يرى نفسه في السجن مقيدًا بالأغلال وهو شيخ عجوز: أترى كان موقفي صحيحًا عندما تمسكت برأبي في قضية خلق القرآن؟

■ لماذا لا أفعل مثل باقي العلماء وأخذ بالتقية، أقول للخليفة ما لا أعتقد

حتى أنجو من الضرب والقتل؟

• وهل ثباتي هذا سيجعل هذا الخليفة المغرر به يعدل عن موقفه؟

• أحمد بن أبي داود لعب بعقله، أقنعه، فماذا سيجديه ثباتي؟

• ما هذا الذي أفكر فيه؟! لا يعنيني اقتناعه أو عدم اقتناعه، يعنيني الحق والباطل واللعب بعقول العامة وتحريف الدين.

• إن ترخص كل الناس فلا ينبغي أن يترخص ابن حنبل:

عاد ابن حنبل إلى دنيا الضرب والجلد، لم يعد لوقع السوط على ظهره أي ألم، وكأن جسد الإنسان جُبل على اعتياد الألم حتى يصبح جزءاً منه.

وبينما هو في الضرب رأى ابن حنبل رجلاً يعرفه، رَبَّعَةً⁽¹⁾ أبيض الوجه مشرباً بحمرة يقف أمامه، تتمم ابن حنبل: هل بصري يخاتلني⁽²⁾، أم أن ما أراه وهم اعترافي من أثر الضرب! هذا هو جاري في السكن عبد الله الرصافي، كيف دخل إلى هذا المكان؟! خاطبه الرصافي برفق وكأنه سمع تمتماته: نعم أنا هو، اثبت يا بن حنبل.

- وهل لي إلا أن أثبت؟ ولكن يخيل إليّ أن أحدًا معك.

- وهل ترى الذي في معيتي؟

- أراه ولكنه كواقف خلف غمامة لا أستطيع أن أتبين تفاصيله!!

- بصرك لم يدركه ولكن روحك هي التي أدركته فاستبصرته وسترته

(1) ربيعة: متوسط القامة ومعتدلاً.

(2) يخاتلني: يخادعني.

شاخصاً أمامك في أقل من لمح البصر، هل لا يزال جسدك يشعر بألم الضرب؟

- لا يوجد ألم! هل توقفوا عن ضربي؟
- لا ولكن الله جعل ضربك بزداً وشفاء كنار إبراهيم.
- كيف دخلت، وكيف لم يمنعك الجند؟!
- هم لا يروني، فقد فست قلوبهم ولف الصداً أرواحهم.
- أنا أهذي؟

- أنت في كامل وعيك، انظر لقد انتهوا من ضربك وهم يحملونك الآن إلى حجرة من حجراتهم، سأجملك أنا وسأخرج بك من هذا المكان، فهم لا يقدرّون على حمل رجل مثلك.

كان الرصافي يحمل دورقاً طف⁽¹⁾ الماء فيه حتى سطحه، وضع أصابعه في الدورق ثم نثر الماء الذي علق بأصابعه في وجه ابن حنبل، وأخذ يمسح بالماء على هذا الوجه الأسمر الوجيه.

انتبه ابن حنبل للدورق، فابتسم وقال للرصافي: هذا دورق أعرفه ويعرفني، تحمله وتحملني، سقيتني منه مرة، ومسحت منه على وجهي اليوم فلا تضع في فمي ماء فإني صائم، ولكن إلى أين ستحملني؟ سيبحثون عني في كل مكان.

(1) طف: ارتفع.

زمكان

- سيرونك أمامهم مغشياً عليك، ولكنك ستكون معي.
- يبدو أن الحمى أصابتني، أنا محموم، أين ستذهب بي؟!
- أنت صحيح ولست محمومًا، وسأذهب بك إلى مصر.
- عند الشافعي صاحب النبوءة! اللهم ارحمه رحمة تليق بك، والله إنه أحد ستة أَدْعَوْهُمْ كُلَّ يَوْمٍ فِي قِيَامِ اللَّيْلِ.
- هناك أترك يا من تباركت بشعرات رسول الله ﷺ، الماء الذي غسل به الشافعي ثوبك، وجعل الماء في قنينة ليمسح به على وجهه كل يوم، كان الشافعي يتبرك بأثر منك يا ابن حنبل.
- ومن أنا حتى يتبرك بي الشافعي؟!
- أنت ابن حنبل من ذاد عن الأمة في فتنة خلق القرآن.
- إن أمرك عجيب يا رصافي، تأتيني في هذا الموقف لتذكرني بالشافعي وحاله معي، ثم إذا بك تدبر أمر سفري لمصر دون أن تحفل بمن سيطاردنا من رجال المعتصم! أي قافلة تلك التي ستقلنا إلى هناك وأي ناس سيرافقوننا، ثم لماذا مَصر؟!
- قافلتنا لن يطاردها أحد، وسنذهب لِمَصر لتُرى فتناً كقطع الليل المظلم.
- صه، كأنني رأيت من قبل نفس ما يمر بنا الآن، هو هو، أظنك أتيت لي في سجن العنابة بدرب الموصلية منذ عدة أشهر ودار بيننا نفس الحديث.

- حدث وسيحدث، قلت لك من قبل إن الزمن يدور بنا ولا نديره.
- كثير من كلامك يا رصافي مثل كلام الصوفية، ولكنني أرى بعيني ما يعجز عقلي عن تفسيره، ولكن هل يتحمل جسدي سفرًا.
- جسدك سيتبع روحك، وستكون في مصر بالنفس والروح، إن شاء رب العزة.
- يارب سلم سلم، عرفت أن حاكمها « كيدر نصر بن عبد الله ⁽¹⁾ » يمتحن العلماء هناك في خلق القرآن، أخرجني من حفرة لتوقعني في نقرة؟ بيسلمني الوالي « كيدر » للمعتصم، لا شك في هذا.
- زمان « كيدر » ولّى يا بن حنبل، وهناك من هو ألعن من كيدر، وفتنة خلق القرآن هي أهون الفتن، فماذا لو رأيت ما هم عليه الآن؟!
- يارب سلم سلم، دعني هنا في محنتي.
- أتكون فنتتهم ولا ابن حنبل لها؟!
- إذن خذني وانطلق، ولكن كيف تأخذني! وكيف أغيب عن هؤلاء الذين أثقلوني بالأغلال فلا يلحظون غيابي؟!
- بقوة «أَنَا أَيْنِكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ».
- سيحدثها منك من قبل.

(1) كيدر نصر بن عبد الله: هو حاكم مصر في زمن الخليفة المعتصم بالله، وكان يمتحن العلماء أيضًا في خلق القرآن وفقًا لأوامر المعتصم.

ولما كانت الساعة الثامنة من صباح يوم الخميس الثامن من ذي
الحججة من عام 1366 هجرية، الذي يوافق الثالث والعشرين من أكتوبر
سنة 1947 ميلادية،

توقفت النوق في الطريق للراحة رغم أن منى كانت على مرأى البصر،
قال ابن المطوف للعمدة الحاج غريب يوسف: إننا نأخذها يا حاج غريب
على مرة واحدة دون توقف، ولكن لأجل خاطرنا وخاطر الحريم فإننا أنخنا
المطايا هنا لراحتكم وراحتهم، المسافة قصيرة كما رأيت، وأنت حججت معنا
من قبل وتعرف الدروب والمسالك، فالذي نفسي بيده لقد سلكت بكم
أقصر الطرق وأكثرها راحة وأمنًا، قل لمن معك أن ينتشروا في المكان مقدار
ذبح شاة وسلخها أي بالكثير نصف ساعة، ولكن فليحذروا من الصيد
أو قطع الحشائش أو فعل أي شيء يخرجهم من إحرامهم، ولكن لهم فقط
قتل الحشرات الضارة.

جلس الحاج غريب بجوار زوجته «سيادة عرفة» في مكان قصي يستريحان
فيه من عناء حركة واهتزاز الناقة التي كانا يركبانهما، ورغم أن الحاج غريب
كان قروي الشكيمة كجده الأكبر الحاج بن يوسف الثقفي، فإنه كان ضعيف
الجسد واهن كأيه يوسف غريب.

ومع ذلك فإن ضعف جسد أبيه «يوسف غريب» لم يمنعه من الإصرار
هو وباقي رعوس العائلات في البلد من الجهاد ضد الخرائق التي ما فتئت
تشتعل في قريتهم كل حين، ولسبب لا يعرفونه استمر غضب «سيدي

سعيد» على أرض القرية وموقعها فلم يسبغ حمايته عليها، لك الله يا سيدي سعيد، أنتخار هذا المكان مدفناً لك ومكاناً لمقامك ثم تترك النار ترتع في بيوت أهل الناحية دون أن يكون لك حول ولا قوة؟! وفي سبيل إرضائك أقام الفلاحون مسجداً لك اقتطعوا نفقاته من «لحم الحسي» حتى يضم بين جنباته مقامك، ورغم ذلك يا سيدي سعيد لم يهنأ أهل البلد إلا بضعة أشهر وبعدها قامت قيامة الحريق المعتاد!!

ولكن على من؟ أبضعة حرائق تفت في عضد رجال القرية الذين جُبلوا على خوض الصعاب! إذا عُدتِ يا نار، عُدتنا يا رجال.

عاد يوسف غريب وإخوته مرة أخرى للاجتماع مع رؤوس العائلات في البلد بقيادة العمدة الحاج حسن أبو عرفة الرفاعي وعقدوا العزم مع الشيخ محمد الفضالي شيخ الطريقة البيومية على إقامة احتفال كبير في البلد قريبي لله، على أن يكون ذلك إحياء لمولد الشيخ علي نور الدين البيومي الأحدي مؤسس الطريقة البيومية، وفي اليوم الموعود من عام 1887 ميلادية تقاطر على قرية المحروقة الأتباع والمريدون من أبناء الطريقة البيومية، وجحافل لا حصر لها من أبناء ومريدي كل الطرق الصوفية، ليحتفلوا مع أبناء المحروقة بمولد سيدي علي البيومي، رضي الله عنه وأرضاه.

نصب يوسف غريب - بإشراف جده حسن أبو عرفة ومعه عائلات البلد - الخيام والمضارب خارج حدود القرية لتستقبل كل الوافدين المحترفين، وذبحوا الذبائح ومدوا الموائد، وقضت القرية ليلة لم تقض مثلها

من قبل في الذكر وسماع التواشيح، ولا تزال الأجيال تلهج بذكرها وذكر الذبائح التي آلت يومها إلى البطون.

انفض المولد والكل على يقين من أن القرية لن تعرف للحرائق طريقاً، فكيف تقترب النار من أرض شهدت ذكراً لله في مولد سيدي علي البيومي الأحدي؟ هذه أرض اجتمع فيها الأسياد، فمقام سيدي سعيد يتوسط القرية، ومولد سيدي البيومي يحيط بأطرافها، أهنالك حماية أكثر من ذلك؟!.

مرت الشهور ولا حس ولا خبر على نار أو حريق، اتخذت دور القرية كل الاحتياطات الممكنة لمنع الحرائق، فامتنعوا عن وضع حطب القطن وحطب الذرة وقش الأرز فوق الأسطح، واكتفوا فقط بوضع « الجيلة » - والتي يطلتون عليها اسم المسك - لتقابل الشمس في شروقها وتودعها في غروبها.

ظلت القرية ببركة سيدي البيومي وفضل سيدي سعيد تنعم بالبعد عن الحرائق فترة وصلت إلى عامين، وفي تلكم الأيام تزوج يوسف غريب من فتاة وضيئة فاتنة اسمها عيوشة من عائلة « العجل » بأنشاص الرمل وبنى عليها في ليلة كألف ليلة، ذبح فيها الذبائح وأولم وأطعم أهل القرية، وبارك زواجه الشيخ محمد الفضالي الذي أحضر معه بعض كبار المنشدين من مديرية الشرقية ومديرية الدقهلية هدية منه للعريس الشاب زينة عائلة «غريب» والذي اجتمع له نبل الأصل وشرف الأرومة وكرم المحتد، وكلما بعدت الشقة بين أهل القرية وبين ذكرى آخر نار اشتعلت في دورهم هدأت

النفوس وتباركت بليلة المولد ثم بزواج يوسف غريب آخر نسل الحجاج بن يوسف الثقفي.

وما إن وضع أهل القرية بطيخة صيفي في بطونهم حتى هاج حريق لم يكن له مثيلاً من قبل، وكأنه كان يدخر قوته ليفني القرية عن آخرها، وكالعادة لم يُصب المسجد ولا مقام سيدي سعيد بأي خسائر اللهم إلا مجرد «الحوسة» نار لحقت بجدران المسجد وطالت سور المقام، وعادت ريباً لعادتها القديمة «وكانك يا بوزيد ما غزيت».

أصبحت القرية أطلاً لا ينعم عليها اليوم، ترى الحزن في عيون الناس وقلة الحيلة بادية في قسماات وجوههم، ماذا يفعلون؟ وكيف يتصرفون؟

وقبل فجر أحد الأيام توجه ركبٌ غريبٌ جاء من خارج القرية صوب مسجد سيدي سعيد، كان على رأس هذا الركب الشيخ محمد الفضالي حيث كان في انتظاره يوسف غريب وعدد من أعيان القرية، صلى الجميع صلاة الفجر ثم جلس الشيخ الفضالي ومعه زمرة من أهل الطريقة يقرءون أوراداً تُبعد النار والشرر والضرر عن القرية، وعند الضحى صلى كل واحد من الحاضرين صلاة الضحى فرادى، ثم استمروا في أورادهم وأدعيتهم وقرأتهم إلى أن رُفع أذان الظهر.

وبعد صلاة الظهر اصطحب يوسف غريب الأضياف وأعيان القرية إلى بيته، بعد أن استأذن في ذلك من جده العمدة الحاج حسن أبو عرفة، وكان قد قام بترميمه على عجل، وفي أروقة الدار ودهاليزه وغرفته كانت الدنيا «تضرب

تقلب» فقد انشغل الجميع بإعداد الطعام، فقد وقفت شقيقته «كاملة» على الكوازين التي يطهى فيها الطعام، تُخرج صواني وتدخل غيرها، يتحلق حولها عدد من الإماء والخادmates يساعدها ويستجبن لطلباتها، وبجوارها وقفت الأم «أمونة» ابنة العمدة حسن أبو عرفة ومعها عدد من عبيد أبيها ممن لم يبلغوا الحلم بعد، تنهر وتأمر حتى يخرج الطعام في أشهى صورة، إلا أن زوجته عيوشة كانت في شهرها الأخير تنتظر مولودًا حان موعد نزوله إلى الدنيا، وإذ خشي عليها زوجها يوسف فقد أمرها بالاحتجاب في هذا اليوم وعدم مغادرة الفراش.

وبعد أن انتهى الأضياف والأعيان من تناول الطعام وشرب القهوة، انفرد الشيخ الفضالي بيوسف وأسر له بسر جعل وجهه يكاد ينطق من الفرحة. خرج يوسف ومعه الأعيان في توديع السادة الصوفية حتى وصلت الركائب إلى قرية الجوسق فسلموا عليهم سلام مودع، وقال الشيخ الفضالي قبل أن يستدير بوجهه إلى ناحية الطريق: خذ بالك يا سيد يوسف من ابنك القادم، فالبركة معه إن شاء الله.

وعند عودة يوسف وأعيان القرية أُلح عليه الشيخ مصطفى الأهواني زوج شقيقته كاملة أن يصدقه القول: ما الذي قاله لك الشيخ الفضالي يا يوسف عندما انفرد بك؟

بدت الحيرة على يوسف، أم يسكت؟ إلا أنه عزم أمره وأخبر زوج شقيقته بالسر: قال لي الشيخ الفضالي إن هذه القرية ملعونة من أيام الفراعنة،

لذلك لم يبن أحد في هذه الأرض، ولم يسكن فيها إلا سيدي سعيد الذي حصّنه الله بالقرآن، ويقال - والعهد على الشيخ الفضالي - إن سيدي سعيد صحابي جليل وهو جد أحد شيوخ الإمام أحمد بن حنبل، وكان من الصحابة الذين جاءوا مع جيش عمرو بن العاص، ثم استقر به المقام في هذا المكان، وقد عاش فيه وحده مستهزئًا بما قيل له عن لعنة الفراعنة، ورغم أن سكن سيدي سعيد في هذا المكان قد أزال جزءًا من رهبة الناس من هذه الأرض الموحشة، فإنهم ظلوا على بعدهم لا يريدون الاقتراب منها أو المرور بها، لذلك كانت منطقتها بورًا وقاحلة، بعيدة عن القرى المجاورة التي أقسمت ألا تقترب منها حتى لا تنالها لعنة الفراعنة، إلى أن رآها ببيرس فأعجبه المكان فأصلح أرضها وأقام قصره، وقد شجع هذا أهل القرى الأخرى على النزوح إلى قريتنا التي كان اسمها السعيدية، ومع ذلك ظلت الحرائق تنهبها.

قال الشيخ مصطفى الأهواني: كلنا يعرف يا شيخ يوسف هذه القصة ونحفظها من الألف إلى الياء، فما الجديد إذن؟

رد عليه يوسف غريب: قال لي الشيخ محمد الفضالي إن الله سيرزقني من زوجتي عيوشة بأبناء كثيرين بنين وبنات، أولهم وهو القادم إن شاء الله سيكون ولدًا، طلب مني أن أسميه «غريب» وقال إنه سيكون فريد عصره، وستحدث له حادثة من غرائب ما يمر على بني آدم، ولكنه سيكون مباركًا إن شاء الله، وسيكون حاكمًا في قوة جده الحجاج بن يوسف الثقفي، أما قلبه فسيكون عامرًا بالإيمان كقلب سيدي علي نور الدين البيومي، وسييسر الله له أمرًا يقضي به على لعنة الحرائق. قال لي في نهاية كلامه: اسمع مني يا يوسف

ابنك غريب هذا هو الذي سيطفئ نار اللعنة، لا أنا ولا غيري مهيتون لذلك، كل مهياً لما خلق له: فقلت له: وكيف سيطفئ نار اللعنة؟ قال لي: ببركة سيدي وسيده، سيفعل ابنك شيئاً يُعجز العقول ويُذهل القلوب، وما سيفعله عن أمره. فقلت له: ومتى سيفعله؟

فقال: فعله في زمن ليس كزمننا ﴿أَفَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾.

ثم قال لي: اعلم يا يوسف أن «سين» سيفعل هنا ليست للاستقبال ولكنها للاستمرار واليقين، كقوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ فقد كان الله قد كفاهم، وقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ﴾ وكانوا قد قالوها قبل نزول الآية، فكلنا رهن ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْآخِرُ﴾، ثم أخذ يكررها حتى انقطع الحديث بيننا.

حطت قافلة الحجيج الصغيرة رحالها في منى، وقام محمود بن عبد القادر الهمداني ابن المطوف بتوجيه «الحجيج» أبناء مديرية الشرقية إلى خيامهم، وكان قد أعد خيمة صغيرة للحاج غريب يوسف وزوجته سيادة علي عرفة وزوج ابنته «ناجية» الحاج محمد فراج، بحث الحاج غريب يوسف عن مكان قضاء الحاجة فدلّه المطوف على بيت خلاء خصصه له ولأسرته يحيط به ساتر من خشب غير بعيد عن خيامهم، عاد الحاج غريب من بيت الخلاء وتوضأ فأسبغ الوضوء وخلل الماء بين أصابع قدميه، ثم صلى الضحى فأطال، وإذا انتهى من صلاته جلس في خيمته يقرأ القرآن، وكان قد أقسم من قبل على أن يختتم القرآن دفعة واحدة يوم التروية، ولكنه لم يكن يعرف أن الساعات القادمة تنتظره بمفاجأة لم تخطر على باله أبداً.

وإذ أخذ يجتهد في القراءة وزوجته «سيادة» تحذب عليه وترعى شأنه،
وزوج ابنته محمد فراج يتجول خارج الخيام يتفقد الحجيج ويبعث عن
المعارف من أبناء الشرقية، وحين بغتة سمع الحاج غريب صوتًا مألوفًا له
حبيبًا إلى قلبه، هل هذا معقول؟! هكذا قال الحاج غريب في نفسه وهو
يرهف السمع لهذا الصوت: لقد تركته في مصر ولم يقل لي: إنه سيحج هذا
العام! إنه هو نفسه!!

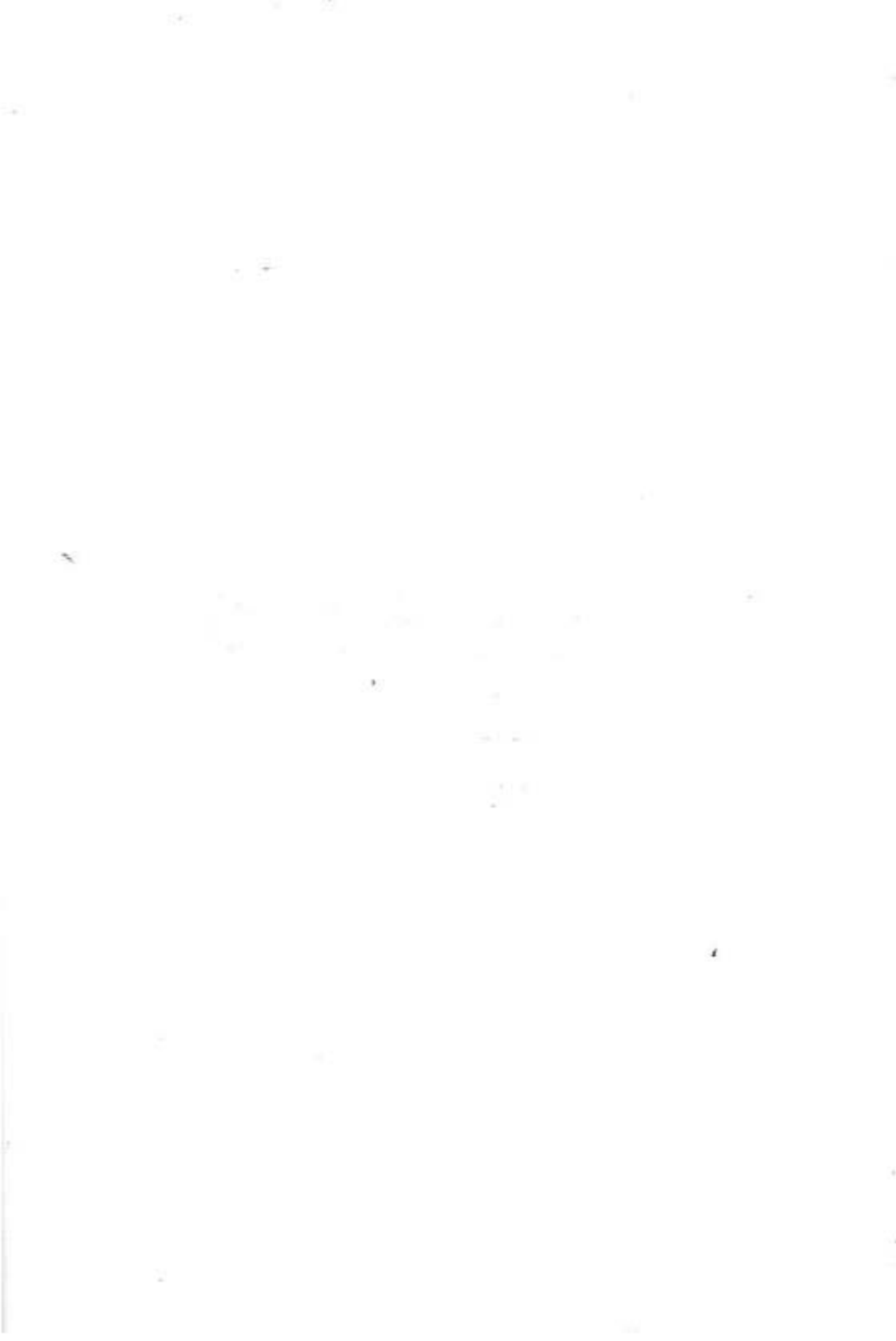
ارتفع الصوت قائلاً: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن
الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك. ثم أردف الصوت: أذن إبراهيم
فاستجبنا، وعلى كل ضامر أتينا، هوت الأفتدة فلبينا.

إنه هو، لا شك في ذلك، هذا أمر غير معقول!! انتفض الحاج غريب
مغادرًا الخيمة ليبحث عن صاحب الصوت.



الحياة الثالثة

زِمَكَان



كلمح بالبصر

«يحمل الإنسان لمحة من صفة المكان الذي مر به،
وقدرًا من طبيعته المكان الذي لبث فيه، وفضًا من
شخصيته المكان الذي مكث فيه.»

الشيخ عبد الله الرصافي

ولما كان المكان حي الكرخ الواقع على الجانب الغربي لنهر دجلة بمدينة
بغداد، كان الإنسان الذي مكث فيه هو أحمد بن حنبل، وكان الإنسان
الذي لبث فيه هو:

عبد الله الرصافي الذي عاد من رحلة طويلة ركب فيها سفنًا مخرت عباب
البحار، وطوى فيها على ظهر الإبل الفياقي والقفار، كانوا يسمونه في الزقاق
عبد الله السائح، وكان أهل الذكر من الصوفيين الذين يتحلقون للذكر في
مسجد «الصوفان» يسمونه عبد الله الغائب، فهو في الحقيقة لا يلبث معهم
إلا بضعة أشهر ليغيب عنهم بضع سنين، لا يعرفون عن حاله شيئًا، أخرج
للتجارة والتبضع، أم للحج والعمرة وطلب العلم؟ أما طلبه العلم في

مسجد ابن حنبل فيسمونه «عبد الله الغامض». فمنذ أن حل على الزقاق وهم لا يعرفون شيئاً عن نسبه وأصله، قال البعض: إنه من رصافة العراق. وقال آخرون: إنه من رصافة الرقة بالشام. ولكنهم أحبوه واستبشروا به، عرفوه عابداً ناسكاً زاهداً، ومع ذلك فإن الخير لا يتفد من داره، استغرب أهل الزقاق أن ليس له زوجة ولا أولاد، ولكنهم اعتبروا هذا الأمر من الحوادث التي تجري على النساك والمتصوفين، وللحق فإن عبد الله الرصافي كان صاحب يد على الزقاق كله، فعندما انفلت الأمن في زمن «الأمين» بعد وفاة هارون الرشيد قام الرصافي ببناء باب كبير للزقاق على نفقته، حيث أقام عضادتي (جانبي) الباب من الحجارة الضخمة المدببة، وجعل الباب نفسه من أخشاب جذور أشجار الحور الصلبة، واعتاد الزقاق إغلاق الباب بعد صلاة العشاء، وبعشرة دنائير شهرياً استخدم الرصافي رجلاً من «الصوفية» كي يكون حارساً على الباب، يراقبه ويفتح المزلاج في الليل لمن يفتد إلى الزقاق متأخراً، فحصّن الرصافي بعمله هذا الزقاق من هجمات اللصوص والعربان، وقد شهد أهل الزقاق ببراعته في البناء والنجارة وظلوا عمراً يتحاكون عن أهازيجه التي كان يترنم بها أثناء البناء، إذ كان ينشد قائلاً:

«امنعوا الزقاق يا عراق
«إنها القلوب في اشتياق»
«محصنوا البيوت والرواق
«واهجروا الذنوب والنفاق»

كان الأطفال يتصايحون حوله وهو يتناول الحجارة من البنائين، ينشدون كما ينشد، وهو يعدهم بصندوق حلوى لكل من يناوله ألواح الخشب، أما شباب الزقاق فكانوا يهرعون إلى المساعدة في حمل الحجارة الثقيلة وتعسيقها.

وفي الأشهر التي كان الرصافي يقضيها في الزقاق لم يكن أحد يراه إلا في المسجد أو عند حوائج الناس، ومن التصاريف أن كان بيته مجاورًا لبيت ابن حنبل، فكان دائم الانصراف إليه والجلوس معه، لم يرهما أحد يتحدثان عن الدنيا وأحوالها فقد كان حديثهما عن الآخرة والدين.

وكما عرفت المساجد ابن حنبل فقد عرفت الرصافي أيضًا، ولكن ابن حنبل كان يلقي دروسه ويعلم الناس الحديث وأمور دينهم، أما الرصافي فقد كان لا يتكلم إلا نادرًا، تجده مصليًا ساجدًا ذاكراً مستمعًا لدروس العلم.

ولكن شيئًا غريبًا لاحظته الناس خاصة الشيوخ والعجائز منهم فأدهش عقولهم، فمع مرور الزمن تغير الناس في خلقتهم ولكن الرصافي لم يتغير، لا يزال كما هو، ربعة، وجهه أبيض مشرب بحمرة، لحيته مخضبة بالحناء، لم تعرف التجاعيد طريقها إلى وجهه، في بدنه قوة وفي مشيته اعتدال، ما بال هذا الرجل لا تمر عليه السنون؟! أهو من البشر! والله إن أمره غاية في الغرابة، يقول البعض: لقد نضره الله بالإيمان. ويقول البعض الآخر: ليست له زوجة ولا أبناء، لذلك فإن قلبه خالي الوفاض لا يحمل للدنيا همًا. ورفع البعض من قدر بشريته فقالوا: لم نره يمد يده من قبل على طعام أو شراب، فإذا دعى إلى وليمة قال: إني صائم. ينبعث من داخل بيته نور ليس كنور المشكاة أو المصباح أو الشعلة، يسمع الجالسون بجوار داره قراءته للقرآن فيقولون: والله إن هذا صوت كصوت ابن مسعود الذي تروي الأحاديث والأخبار طراوته، فسرت الشائعات أن الرصافي ولي من كبار الأولياء يُخفي عن الناس خبره، وساعد على سريان تلك الشائعات الغموض الذي اكتنف سيرته، ورحلاته الكثيرة التي يخرج إليها بين الحين والحين.

يذكر الزقاق يوم أن التقى الرصافي بابن حنبل أول مرة، كان ذلك في المسجد وقت صلاة العشاء، فرغ المصلون من الصلاة، فأخذ هذا الوافد الجديد يتفرس وتجوّه القوم، حتى إذا رأى رجلاً نحيف القوام أسمر الوجه وسيم القسمات اقترب منه وألقى عليه السلام قائلاً: السلام عليكم يا ابن محمد بن حنبل الشيباني. رد ابن حنبل السلام وهو يتأهب للقيام فأجلسه الرجل قائلاً: أنا عبد الله أتيت من بلاد بعيدة ووضعت رحالي عندكم، بحث عن دار تجاورك فاكرتيتها.

قال ابن حنبل: نعم الجار أنت، أتعرفني؟

رد الرصافي: أنا ما أتيت إلا إليك.

نظر إليه ابن حنبل بامعان وقال: يخيل إلي أنني رأيتك من قبل!

- وستراني من بعد إن شاء الله تعالى.

ومن بعد وجد ابن حنبل قلبه مشدوداً إلى الرصافي، رآه ينطق بالحكمة مع أنه لم يَرَ في بيته كتاباً أو ورقة أو قلماً، استشرفه زاهداً ناسكاً حافظاً للقرآن والحديث حتى إنه كان يراجع معه أحاديث سبق أن راجعها مع إمام الحديث «عبد الرزاق» فيجد علمها عنده، وما إن تتبع أخباره حتى عرف أنه كان رفيقاً لمعروف الكرخي إمام التصوف السني فأكبره ووضعه في منزلة الأئمة الكبار. والأرواح جنود مجنّدة، تألف القلبان فأصبحا وكأنهما في قالب واحد، لاتعرف من يأخذ من الآخر، إلا أن الرصافي كان ينطق بالحكمة فيفتح لابن حنبل مغاليق كانت قد استغلقت عليه.

حينما عاد الرصافي هذه المرة من رحلته الطويلة أسرع إلى بيت ابن حنبل قبل أن يدخل داره، طرقت الباب طرقة خفيفةً فإذا بصوت ابن حنبل من الداخل يقول: هذا طرق الرصافي، والله ما غبت عنا إلا بالجسد، والروح تلقى الروح من دون الجسد.

فتح ابن حنبل الباب ورحب بالرصافي، وفي لحظات كان قد اجتمع نفر من الجيران يرحبون بذلك الجار الذي اشتاقت قلوبهم لرؤيته، فجلسوا على باب دار ابن حنبل يسمعون صاحبهم وهو يحكي لهم بعض ما مر به في أسفاره، ثم توجه بالحديث لابن حنبل قائلاً: لي رسالة لك يا ابن حنبل.

كان ابن حنبل دائم النظر إلى الأرض، فرفع رأسه وكأن الدهشة قد استولت على مجامع قلبه وقال: أي رسالة؟! ومن؟!!

- ركبت في بعض رحلتي سفينة حطت بنا في جزيرة من جزر الهند، فخرج الركاب يبيعون ويشترون، وبينما أنا أبحث عن دين الناس وعلى أي عبادة هم فعرفت أنهم يعبدون الشجر والبقر، ثم دلوني على رجل قالوا إنه مسلم يعبد الله على دين الإسلام، وحينما أخذوني إليه وجدته شيخاً مهيباً أبيض الرأس واللحية، فسلمت عليه وتحدثت معه فسألني: من أي البلاد أنت؟ فقلت له: من بغداد. فقال: إذا أتيت بغداد فأقري أحمد بن حنبل السلام وقل له: إن عبداً لله يقول لك: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ﴾ اصبر عندما تمتمحن في القرآن فأنت على الحق.

أطرق ابن حنبل ملياً ثم قال: وما الصبر إلا على طاعة أو عن معصية أو في محنة.

خشع وجه الرصافي وهو يقول: ولكن هذا الصبر هو صبر تبليغ الرسالة، هذا هو صبر الرسل، سُمِّتَحْن يا بن حنبل كما امْتَحَن رسل الله فصبروا على الحق، سيمتحنك أميرٌ، وسيغضبك وزيرٌ، وسيجلدك فقيرٌ.

دمعت عين ابن حنبل واهتز صوته: هذه نبوءة الشافعي، هذه نبوءة الشافعي.

قال أحد الجيران: وكيف سُمِّتَحْن يا بن حنبل وأنت الإمام، فهل يُمتحن الأئمة! أرى أن الرصافي يكذب، أيها الناس، هذا الرصافي غريب عنا ولا نعرفه، قلنا عنه إنه شيخ صالح، فإذا به جاء لكي يثير الفتنة بيننا، ويوغر صدور بعضنا على بعضنا، والله إن هذا الرجل ليس له إلا القتل.

ولما كان المكان قرية المحروقة بمركز بلبليس مديرية الشرقية، كان الإنسان الذي مكث فيه هو:

الطفل غريب يوسف الذي أتم العاشرة من عمره وهو يحفظ القرآن ويتقن الحساب والكتابة، لم يلعب بكباقي الصبيان، ولم يمسك جريد النخل ليصنع منه حصاناً متوهماً يركبه ليسابق به الغلمان، ولكنه انكب على القرآن وأحب مخالطة الرجال خاصة عندما كانوا يتدهجون في جلسات الذكر ويصل بهم الوجد إلى درجة التطوح، وكان في ذلك مختلفاً تمام الاختلاف عن أخويه الصغيرين «السيد» و«حسن» إذ كانا يهربان من الكُتَّاب، ويختبئان من أبيهما عندما يعرفان أنه في طريقه إلى جلسات الذكر.

عقد الأب «يوسف» النية على أن يرسل ابنه غريب إلى الأزهر ليتلقى

العلم، ولكن جلسة جمعته بالشيخ محمد الفضالي والجد الشيخ حسن عرفة الرفاعي انتهت إلى إلحاق غريب بالعمل كمساعد لكاتب حسابات وحامل للدفاتر في الدائرة الخديوية بأنشاص، يقول الشيخ محمد الفضالي ليوسف: هب ابنك للعمل وسيتعلم وهو في الدائرة البيوع والكرء والإدارة، وسيفهم مكر اليهود الذين يتعاملون مع الدائرة وكُهن التجار ولؤم الفلاحين، سيعرف ابنك أصول الحكم.

فيقول يوسف وهو يضرب كفاً بكف: وهل سيحكم مصر يا حَيّ!! هذا بعيد عن شنبات البلاسة والشراقوة، ألم تر ما الذي حدث لأحمد عرابي ابن الشرقية، لا ياعم الشيخ الفضالي، دعنا من هذه الحكاية ولندخله الأزهر ليكون مثل الشيخ السادات والشيخ الشرقاوي أو حتى الشيخ محمد عبده، وقد تكون المشيخة هي طريقه للحكم.

يقول الشيخ الفضالي: الحكم حكم ولو كان على قريرتك، ثم يوجه كلامه للعمدة الشيخ حسن أبو عرفة: أأست تحكم المحروقة يا شيخ حسن؟

يقول الشيخ حسن أبو عرفة الرفاعي: صلاح الحاكم صلاح للرعية، اسمع يا يوسف، ابنك هذا هو أحب الناس إلى قلبي وسيجلس على مجلسي هذا وبصلاحه وفهمه لأصول الحكم سيصلح الله به المحروقة وستكون على يديه السعيدية، أما العلم فإنه علم القلوب، هناك علم بالتلقي وهذا هو علم العامة، وهناك علم الترقى وهذا هو علم الخاصة، وإني لأظن حفيدي هذا ممن سيقرون.

اشتد عود غريب يوسف وبلغ مبلغ الرجال وظهر نبوغه في الحساب حتى إنه كان يحسب حسبة من أربعة أرقام مضروبة في مثلها في ثانية أو ثانيتين دون أن يستعين بقلم وورقة، وعندما وجد التجار الكبار يستأجرون حدائق الخديو عباس حلمي التي بأنشاص أشار على أبيه يوسف بأن يسلك هذا الطريق ويستأجر كما يستأجر التجار، ثم أفهمه تفصيلات المسألة ومسالكها.

ترك غريب العمل في الدائرة وأخذ هو وأبوه يستأجران حدائق الأمراء التي بناحية أنشاص، ثم استقل عن أبيه واستأجر حديقة كبيرة في قرية بيجام بالقليلية من أملاك دائرة إبراهيم باشا أدهم (والتي آلت بعد وفاته لابنته زينب هانم أدهم) وأصبح الخير يجري على يديه والمال يتدفق من أعماله وتجارته، وقد أفاء على أهله من الخير الذي أرسله له الله، فاشترى - على حادثة سنة - لنفسه ولأبيه وإخوته الأراضي والأطيان.

ولكن أين موضع الحرائق من المحروقة؟ سبحان الله! ابتعد زمن الحرائق، فبعد أن كانت تنشب في القرية مرة كل عامين تقريباً، لم تنشب منذ أن وُلِدَ غريب إلا ثلاث مرات، وكانت جذوتها ضعيفة وكأنها في طريقها إلى الأفول، ولذلك كان من حق الفلاحين أن يتساءلوا: أي بركة تلك التي بدأ نورها يطل على القرية؟! وعندما كان يطرح أحدهم هذا السؤال أمام يوسف كانت نبوءة الشيخ الفضالي تقفز أمام مخيلته، وسرعان ما كانت خواطره تلح عليه وكأنها تأمره: آن الأوان يا يوسف لكي يصل خبر النبوءة إلى غريب. تقول الأحداث: إن يوسف أخفى النبوءة عن ابنته منذ أن كان طفلاً صغيراً، إذ

خشي إن أخبره وهو بعد صغير أن يفتن بنفسه، والآن إذ وجدته وهو يقفز في مدارج الرجولة ينزه نفسه عن سفاسف الأمور، فقد حث نفسه على أن يخبره بها حتى يسير في طريقها.

يقول يوسف لولده الأكبر غريب: تنبأ لك الشيخ الفضالي قبل أن تولد أنك (ستكون حاكماً) في قوة جدك الحجاج بن يوسف الثقفي، أما قلبك فسيكون عامراً بالإيمان كقلب سيدي علي نور الدين البيومي، وسيسر الله لك أمراً يقضي به على لعنة الحرائق، وإنك أنت الذي سيُطْفَعُ نار اللعنة).

آثر غريب بعد أن علم من أبيه النبوءة أن يذهب للشيخ محمد الفضالي في الزقازيق، ودار بينهما حديث طويل يصلح أن يكون كتاب علم فريداً، ولكنه عرف من الشيخ أن كل شيء في الكون بأسره معلق بأمر رب الكون ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ وأن علم القلوب هو الحكمة ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ وأن الله يهب الحكمة من يشاء، وأن ثمن الحكمة هو المجاهدة، وثمر العلم هو المدارس، وإذا كان باب النبوة مغلقاً، فإن باب الحكمة مفتوح إلى يوم الدين، قال الشيخ الفضالي لغريب يوسف في نهاية الجلسة: «اطلب الحكمة بالمجاهدة، والمجاهدة هي قيام الليل، والصيام، وغض البصر، وضبط اللسان، وإنفاق المال، وكثرة الذكر، والدعاء، والاستغفار».

والآن لم يبق له إلا أن يتزوج ليكتمل دينه، نظر يوسف حوله يبحث عن عروس تليق بابنه غريب زينة الرجال، وكيف له أن يغفل عن «سيادة» ذات

الجمال الباهر والعبود الزرقاء. البيضاء ملبحة القسبات، حفيدة النبي ﷺ، وسبحان الله الذي صرّف الكون وقدر الأقدار، فسيادة هذه يا ولداه هي ابنة الشيخ علي أبو عرفة وهو الأخ غير الشقيق للشيخ حسن أبو عرفة عمدة المحروقة وشيخ الطريقة الرفاعية والذي كان قد توفاه الله منذ عام ونيف، والذي سبق ذكره في الحوادث السابقة، كان الشيخ علي أبو عرفة أبو «سيادة» في عمر يوسف أو أكبر منه قليلا، شَبَّابًا عن الطوق لا يفترقان، وتزوجا في نفس العام، إلا أن عليًا أخذ طريق المتصوفة وتسلم المشيخة من أخيه حسن، ويوسف أخذ طريق الزراعة وامتلاك الأراضي، ولكنهاها ومنذ الصغر ويوسف لا ينادي عليًا إلا بكلمة «يا خال» لأنه خال والدته «أمونة» ولذلك فإن «سيادة» الحسن والجمال كانت في مقام الخالة للعريس غريب وإن كانت تصغره بخمس سنوات، فقد تزوجها وهو في التاسعة عشرة وكانت هي في الرابعة عشرة من عمرها.

يقولون: إن فرحهما كان مثل فرح قطر الندى على الخليفة العباسي المعتضد بالله، تحدثت عنه مديرية الشرقية وتناقل الركبان خبره، وكان غريب قد استقر به المقام في ناحية بيجام بالقليوبية حيث كان يستأجر حديقة من دائرة إبراهيم باشا أدهم كما سلف القول، وأعد لنفسه بيتًا كبيرًا كالقصر إلا أنه كان ذا طابع ريفي، فانتقلت «سيادة» من المحروقة إلى بيجام وانتقلت معها أمها «أم الحسن» التي كانت لا تطيق فراقها، ولكنها بعد أسبوعين أذعنت لداعي الفطرة وخضعت لأم الفراق وعادت إلى بيتها وزوجها الشيخ علي أبو عرفة في المحروقة.

وما بين بيجام والمحروقة كانت إقامة غريب يوسف وزوجه «سيادة» التي أنجبت في عام واحد طفلتين!! طفلة أنجبتها في أول يناير أطلقوا عليها «نعمة»، وطفلة بنت ستة أشهر أنجبتها في آخر ديسمبر من نفس العام أطلقوا عليها «ناجية» إذ كان محكومًا عليها بالموت وقت الولادة فنجها الله، ولولا أن الله ألهمهم فأحضروا في منتصف الليالي الطيب البليسي الشهير «يعقوب حنا» الذي تداركها بالعلاج والمتابعة - ما كان الله قد «رد فيها النفس» أبدًا.

وأثناء إقامة غريب في المحروقة لم يكن يجد راحته إلا مع شقيق زوجته «سيادة» ويدعى «محمد علي عرفة» ومحمد عرفة هذا وحده قصة أخرى تستحق أن تروى، فقد شب قلبه على حب الله، عرفه الناس لئّن الجانب رقيق الحاشية كريم السجايا سريع البكاء لا يذكر الله خاليًا أو يُذكر الله عنده إلا وقد فاضت عيناه، كان يحفظ مع القرآن الكريم أشعار ابن الفارض والسهورودي، فإذا ما لفّته اللقاء بغريب حتى يأخذ في تشنيف الأذان والقلوب . . . الدرّ قاله في حب الله، ثم لا يلبث أن ينهمر في البكاء.

قاصدًا أن تلفته أثناء الارشاف عن الصبابة التي استوت حبه

كانت سيادة عرفة قد حملت حملًا جديدًا، لم تنتظر كثيرًا حتى تتم فطاه الوليدتين فقد كان شوقها للولد أعلى من كل ما كابدهته من آلام في حمل «ناجية»، قضى الزوجان الشهر الأخير للحمل في المحروقة حتى تتعهدا أمها «أم الحسن» بالرعاية، وكان فضل الله عليهما عظيمًا فقد وضعت ولدًا كالبدنر في ليلة تمامه، فحمدا الله وسمياه «حامد».

لك أن تتصور سعادة غريب وفرحته بابنه البكري حامد، يا الله، هذا هو الوريث، وقد كانت هبة الله لنا لا مثيل لها، فهو فريد في الجمال والبهاء، وكأنه ورث الجمال كله من أمه، والبهاء من طلعة أبيه، ذهب غريب إلى الصائغ اليهودي الشهير في الرقازيق الخواجة «ليفسي إسرائيل» واشترى لزوجه سيادة كردان ذهب يبهر الأبصار، ثم أمر رجاله بذبح بقرة منوفي مكتنزة، وقام بتوزيع لحمها على الفقراء والأقارب والأصحاب، ثم أحضر من طنطا مجموعة من الصيطة والمداحين ورواة السيرة، وظلوا عاصرين يصدحون في السرادق الذي أقامه أمام داره، وفي اليوم الثالث كانت الكبيرة وفيها حضر الشيخ محمد رفعت وأخذ يتلو من سورة مريم وأهل البلد يصرخون حوله من فرط النشوة.

وبعد أن انفض السامر، وهدأ خاطر «غريب» واطمأن على حال زوجته وحال ابنه البكري حامد ولي العهد، بحث عن محمد عرفه صديقه وشقيق زوجته الذي غاب عن مشهد الولادة، وعن الاحتفال، وما كان يغيب في هذه المشاهد أبدًا فعرف أنه في الإسكندرية يزور سيدي «المرسي أبو العباس» وأولياء الله الصالحين، وقد كان هذا دأبه بين الحين والحين.

عاد غريب إلى بيجام لتستعيد حياته مسلكتها المعتاد، وبعد أيام إذا بطارق يطرق عليه الباب بعد صلاة العشاء، كان الزائر هو محمد عرفة، تعانق الصديقان وبكى محمد عرفة بكاء المحبين، وبعد الاستقبال والسؤال عن الحال وإكرام الضيف ورؤية الوليد والسلام على الشقيقة «سيادة» قال محمد عرفة: أحمل رسالة لك يا بن أختي.

يقول غريب يوسف: خير يا خال.

يقول محمد عرفة: بعد أن صليت الصبح في مسجد سيدي المرسي أبو العباس رأيت رجلاً وضيئاً أبيض الوجه مشرباً بحمرة يذكر الله خفية ودون الجهر، يبدو الصلاح على وجهه وحاله، يكاد الدمع ينسكب من عينيه، أخذت أنظر إليه باهتمام فقد قر في قلبي أنني رأيت من قبل، قد أكون رأيت في مجلس من مجالس الذكر ولكنني أقسمت في نفسي أنني أعرفه، ودون توقع مني رأيت الرجل يقوم من مكانه ويقترب مني، ألقى عليّ السلام فسلمت عليه ورحبت به، ومن لهجته عرفت أنه ليس من أهل مصر، سألته من أي البلاد أنت؟ فقال لي: أنا من بغداد وقد حطت بي الرحال في الإسكندرية. ثم سألتني: ومن أين أنت؟

قلت له: أنا من مديرية الشرقية من قرية يقال لها المحروقة.

فقال لي وهو يتسمم: السعيدية تقصد؟ بلد سيدي سعيد.

تعجبت من معرفته هذا الأمر، فكيف لغريب ليس من بلادنا أن يعرف خبر المحروقة التي كانت سعيدية ومعظم أهل الشرقية أنفسهم لا يذكرون اسم السعيدية ولا يتذكرونه، وقبل أن أرد عليه قال لي: إذا أتيت غريب يوسف فقل له: إن عبداً من عباد الله يقول لك: آ ن أن تتحقق نبوءة الفضالي، فقد أظلنا هذا الزمان.

يقول غريب يوسف وقد امتلكته الدهشة: النبوءة، النبوءة!!

يقول محمد عرفة: المهم يا بن أختي أنني سألته عن اسمه، فقد أيقنت

يقول غريب يوسف: خير يا خال.

يقول محمد عرفة: بعد أن صليت الصبح في مسجد سيدي المرسي أبو العباس رأيت رجلاً وضيئاً أبيض الوجه مشرباً بحمرة يذكر الله خفية ودون الجهر، يبدو الصلاح على وجهه وحاله، يكاد الدمع ينسكب من عينيه، أخذت أنظر إليه باهتمام فقد قر في قلبي أنني رأيت من قبل، قد أكون رأيت في مجلس من مجالس الذكر ولكنني أقسمت في نفسي أنني أعرفه، ودون توقع مني رأيت الرجل يقوم من مكانه ويقترّب مني، ألقى عليّ السلام فسلمت عليه ورحبت به، ومن لهجته عرفت أنه ليس من أهل مصر، سألته من أي البلاد أنت؟ فقال لي: أنا من بغداد وقد حطت بي الرحال في الإسكندرية. ثم سألتني: ومن أين أنت؟

قلت له: أنا من مديرية الشرقية من قرية يقال لها المحروقة.

فقال لي وهو يتسمم: السعيدية تقصد؟ بلد سيدي سعيد.

تعجبت من معرفته هذا الأمر، فكيف لغريب ليس من بلادنا أن يعرف خبر المحروقة التي كانت سعيدية ومعظم أهل الشرقية أنفسهم لا يذكرون اسم السعيدية ولا يتذكرونه، وقبل أن أرد عليه قال لي: إذا أتيت غريب يوسف فقل له: إن عبداً من عباد الله يقول لك: آن أن تتحقق نبوءة الفضالي، فقد أظلنا هذا الزمان.

يقول غريب يوسف وقد امتلكته الدهشة: النبوءة، النبوءة!!

يقول محمد عرفة: المهم يا بن أختي أنني سألته عن اسمه، فقد أيقنت

وقتها أنه صديقك أو أنه من الذين كانوا يتعاملون معك أثناء نظارتك لدائرة
أملاك إبراهيم أدهم.

يقول غريب يوسف: وهل قال لك اسمه؟

يقول محمد عرفة: نعم قال اسمه ثم قام منصرفاً بعد أن ألقى السلام،
اسمه عبد الله الرصافي.

ولما كان المكان المنطقة الفسيحة أمام دار ابن حنبل في حي الكرخ؛

اجتمع الناس على صباح رجل من حي الكرخ يقال له «الواثق بن جعفر»
أخذ يرفع عقيرته⁽¹⁾ قائلاً: هذا رجل يريد أن يوقع الفتنة بيننا، حرّفوه ولا
تذروا⁽²⁾ منه لحماً ولا عظماً.

كان عبد الله الرصافي يجلس هادئاً مبتسماً وكان الكلام لا يعنيه، تغير وجه
ابن حنبل وبان عليه الغضب، وأخذ ينهر الرجل، أن اصمت.

ولكن الرجل لم يلق بالآلتوبيخ ابن حنبل له واستمر على حاله، وقام ممسكاً
ببذ الرصافي يريد جذبه ولكن الرصافي ظل ثابتاً وكأنه الطود الشامخ⁽³⁾

اجتمع الناس على الواثق بن جعفر وقال له أحدهم: إنك أنت الذي تثير
الفتنة يا وثاق، لِمَ هذه الجلبة، إذا كان الإمام ابن حنبل نفسه لم يعترض على
كلام الرصافي؟ أفأنت ستكون أكثر غيرة عليه من نفسه؟

(1) عقيرته: صوته.

(2) لا تذروا: لا تركوا.

(3) الطود الشامخ: الجبل المرتفع الثابت.

ظهر الغيظ على وجه الواثق وقبل أن يهم بالرد قام ابن حنبل واقفاً: والله إنني أرى أن في نفسك شيئاً يا واثق. تعالت الأصوات من كل جانب قائلة: ما هذا الهطل الذي تقول يا واثق؟! دعنا واذهب إلى بيتك. إنك أغضبت الإمام وصاحبه، على رأي المثل «ذيب يصيح لخدمتك، ستذهب السكرة فيأكلك».

قام الواثق غاضباً وانصرف وهو ينظر لابن حنبل نظرة غضب، هذه نظرة عدو، استعاذ ابن حنبل بالله من الشيطان الرجيم وجلس بجوار الرصافي وأخذ يربت على فخذه ويقول: لا عليك يا رصافي، إنها هبة رجل أصابه الخلل.

ابتسم الرصافي وظهر عليه أنه يفكر في شيء ما، فقال له أحد الجيران الجالسين بمودة مبالغ فيها: لماذا لم ترد يا رصافي على هذا المخبول؟
- ربما كان السكوت جواباً.

استأذن الجيران وانصرفوا وتركوا ابن حنبل مع صاحبه الرصافي، ومن مكان خفي كان الواثق يرقب الشيخين، فانتبه إلى أن الرصافي اقترب بقمه من أذن ابن حنبل وأسر له بكلمات، وبعد أن دخل كل واحد منهما إلى داره ظل الواثق في مكانه وكأنه يرصد شيئاً ما، إلى أن حل الظلام فانصرف.

وفي اليوم التالي قبل صلاة الظهر إذا بصاحب شرطة الخليفة المأمون ومعه بعض الجنود يطرقون بقوة باب ابن حنبل، فتح عبد الله بن حنبل الباب فدفعه بعض الجنود ودخلوا مرعين وصاحب الشرطة يصيح: أين أبوك؟

جاء صوت ابن حنبل قبل أن يشخص: من أنتم؟ وماذا تريدون؟
وقبل أن يجيب أحد ظهر ابن حنبل وكان يرتب ثيابه التي بدا أنه ارتداها
على عجل.

قال صاحب الشرطة: هناك شكوى مقدمة ضدك تقول: إنك كنت
تسب الخليفة المأمون بالأمس مع بعض جيرانك، وإنك تقول: إن القرآن
ليس مخلوقاً، بل هو كلام الله. وهذا يخالف مذهب الأمة الذي عليه الخليفة
المأمون ووزيره ابن أبي دؤاد.

- أنا لا أسب أحداً، فسيدي رسول الله ﷺ قال: «ليس المسلم بسباب
ولا لعان». أما عن القرآن فلا أقول فيه إلا ما قاله الله، وأما عن حضوركم
فقد كنت أعلم بالأمس أنكم ستحضرون وتأخذونني للخليفة المأمون في
طرسوس، افعلوا ما تشاءون ولكن مشيئة الله هي الغالبة، وما تشاءون إلا
أن يشاء الله رب العالمين، ستأخذونني ولكنني لن أقابل الخليفة.
- كيف لا تقابله؟ أقسم لك بالله خالق القرآن إنك ستقابل الخليفة
المأمون.

- وأنا بدون قسم أقول لك: لن أقابله.

نظر صاحب الشرطة إلى أحد الجنود وقال له: ضع الأقياد في قدميه
ويديه... ثم نظر إلى باقي الجنود وقال لهم: واحملوه حملاً.

رد ابن حنبل وكأنه يتحدث نفسه: أخبرني الرصافي بالأمس بهذا كله.

ولما كان المكان سجن العامة، بدرب الموصلية ببغداد الذي مر به أحمد

بن حنبل قبل أن يمتحن بالجلد؛

مات الخليفة المأمون وهو في مدينة طرسوس التي تقع بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم حيث كان يشن الحرب منها على « تيوفيل » إمبراطور الروم، وكان قد أمر صاحب الشرطة أن يشخص⁽¹⁾ إليه في طرسوس ابن حنبل مقيداً مهاناً موثقاً في الأغلال، ولكن أمر الله نفذ، مات الخليفة المأمون وصعدت الروح إلى خالقها وولي الخلافة أخوه المعتصم بالله الذي ظل على قول المأمون بخلق القرآن، لم يكن أمام صاحب الشرطة إسحاق بن إبراهيم إلا أن يعود بابن حنبل - وهو في منتصف الطريق - إلى مدينة الرقة التي كان خلفاء العباسيين قد اتخذوها عاصمة صيفية لهم، ومن الرقة حملوا أسيرهم ابن حنبل مكبلاً بالأغلال إلى الياسرية ببغداد وقد أخذ الوهن من قوته كثيراً، ثم اكترى صاحب الشرطة داراً يجلس فيها ابن حنبل، فهذا المثلث بالأقياد ليس كأبي أحد، إنه أحد أكبر علماء الأمة، هو بين الناس رأس، فإن قال بخلق القرآن ليجيبين بإجابته خلق كثير من خلق الله، وإن لم يجب ليمتنعن خلق من الناس كثير. ألقى ابن حنبل جسده المتعب على فرش رقيق الحاشية، وتأوه من إجهاد أصاب عظامه: إلى متى يظل هذا التعب؟ أنا على قولي ولن أتركه مهما فعلوا بي، جسدي بين أيديهم يجسونه كما يشاءون، ولكنهم لا يملكون سلطاناً على روحي.

(1) يشخص: يحضره بنفسه.

لم يستمر الحبس طويلاً في الدار التي اكتروها، إذ بعد أيام قليلة علم الوزير ابن أبي دؤاد بخبر حبس ابن حنبل في دار مكثرة⁽¹⁾ وليس في السجن، فاتقد غضباً وعنف صاحب الشرطة: هل تظن أننا حبسنا ابن حنبل حتى يقيم في نزل⁽²⁾، ندفع له فيه نفقات الإقامة وثمان الطعام، هذا من أعجب ما رأيت؟!

وسرعان ما نقلوا ابن حنبل إلى سجن العامة في درب الموصلية ببغداد تنفيذاً لأمر الوزير.

لا يدخل ابن حنبل مكاناً إلا ويتحول إلى مسجد، هكذا أصبح حال سجن العامة بالموصلية، أيصدق أحد أن اللصوص والمجرمين يقيمون الليل خلف ابن حنبل؟! هذا هو الذي حدث، كان ابن حنبل يصلي بأهل السجن وهو مقيد بالأثقال، وكان أهل السجن يهرعون لخدمة ابن حنبل، وأصبح موضع ابن حنبل في السجن موضع رئاسة، لا موضع حبس ومهانة.

بعد غروب أحد الأيام الصيفية فوجئ ابن حنبل بجاره عبد الله الرصافي يقف على رأسه في السجن يحمل دورق ماء، لم يصدق ابن حنبل عينيه، كيف دخل الرصافي السجن؟ هل دخله مسجوناً أم زائراً؟ إذا كان مسجوناً فمن أين له بدورق الماء هذا وهو ليس من أواني السجن؟ وإن كان زائراً فلا زيارة بعد صلاة العصر!

(1) مكثرة: مستأجرة.

(2) نزل: فندق.

ألقى الرصافي السلام فرحب به ابن حنبل أيما ترحيب، من أين أتيت يا رصافي؟ وكيف دخلت...؟ هكذا قال ابن حنبل.

رد الرصافي وهو مُفْعَم بالإيمان: بقوة ﴿فَأَعَشَيْنَهُمْ فَنَهُم لَّا يُبْصِرُونَ﴾

- رأيت منك يا رصافي قبل ذلك أشياء حرت في فهمها ولكنني أعرف أن الله رجالاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه، لو أقسموا عليه لأبرهم.

- أظنك من هؤلاء يا أبا عبد الله، فقد رأيتك وأنت تُحْرَج على النمل وتأمرون بالخروج من دارك فخرجن على الفور في طوابير، وقال لي ابنك عند الله: إنه ما رأيته بعد ذلك أبداً، أعطاك الله يا أبا عبد الله طرفاً من علم سليمان وحكمته.

شحب وجه ابن حنبل بابتسامة خشوع ثم قال:

- ومن أين أحضرت الماء؟

- رأيت صديقك «بوران أبا محمد» وقد حمل إليك ماء بارداً ولم يستطع إرساله إليك، فحملت عنه هذا الدورق.

أخذ ابن حنبل الدورق وشرب ثم حمد الله تعالى.

- إنه ماء بارد يا رصافي!!

- نعم.

- فقد حيزت لي الدنيا وما فيها.

- قل لي بالله عليك: كيف حالك يا أخي أحمد؟

- طال بي المقام في الحبس كما ترى.

- هي لله، هي لله.

- يا رب سلِّم سلِّم.

- سمعت أنهم أرسلوا لك عمك إسحاق بن حنبل.

- نعم، تفتتت كبد عمي مما لحق بي فتوسط لي عند صاحب الشرطة، فقَبِلَ أن يرسله لي - برفقة حاجبه - حتى يردني عن قولي بأن القرآن كلام الله مُنْزَل غير مخلوق، فجرى بيني وبينه حديث، قال لي فيه: يا أبا عبد الله، قد أجاب أصحابك وقد أعذرت فيما بينك وبين الله وبقيت أنت في الحبس والضيق. فقلت له: يا عم، إذا أجاب العالم تقية، والجاهل مجهل، متى يتبين الحق؟! فذكر لي عمي ما روي في التقية من الأحاديث، فقلت له: وكيف تصنعون بحديث خباب! «إن من كان قبلكم ينشر أحدهم بالمنشار ثم لا يصده ذلك عن دينه»؟ فانصرف عمي وقد أيس أن أعدل عن قولي، والله يا رصافي أنا لا أبالي بالحبس فما هو ومنزلي إلا واحد، ولا أخاف قتلاً بالسيف، إنما أخاف من فتنة السوط وأخاف ألا أصبر، قلبي يتحدثني يا رصافي أن الخليفة الجديد المعتصم بالله سيجلدني بالسوط.

- لا عليك يا أبا عبد الله، ما هو إلا سوطان ثم لا تدري أين يقع الباقي،

ألا يكفيك أن يد الله ستدفع عنك؟!!

- وهل سيضربونني حقاً يا رصافي؟

- سيضربونك وستثبت وسيرفع الله قدرك، وسترى بعدها ما بين «طرفة

عين وانتباهتها» أشياء بالعمر كله.

- يخيل إليّ أنني شاهدت هذا الموقف الذي نحن فيه الآن من قبل، ألا يحدث لك ذلك يا رصافي؟ تدخل إلى مكان ما، أو يدور حديث بينك وبين آخر فتقول في نفسك: « لقد حدث هذا لي من قبل ».

- لأنه حدث من قبل وسيحدث من بعد، فالزمن هو أحد مخلوقات الله. وهو يسير بنا ولا يسير فيه، يحملنا ولا نحمله، وقد تسبق أرواحنا نفوسنا فنرى سائر في حده. *محمّد بن عبد الله بن مسعود* *عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم* *قال: إن الله خلق الزمان والحياة والعرش قبل خلق آدم بخمسة آلاف سنة.* **«الحض»**

- وحين قلت لي منذ برهة إنهم سيضربونني، رأيتني وهم يتناوبون عليّ بالسياط في فناء كبير!!

- وسأتي إليك حينها.

- انتظر، كأن الزمن اختلط في ذهني، أراك الآن في موضع آخر وأنت تحمل نفس دورق الماء الذي معك وتسقيني منه، وأنت تقول: إنك ستحملني إلى مصر.

- نعم حدث هذا بعد شهر من الآن.

- «حدث» لا تقال إلا للماضي لا للمستقبل، ومع ذلك أنا أرى الآن أشياء عجيبة.

- تراها بروحك التي شفت وأرهمت.

- أراك تحملني وأنا أقول لك: «كيف أغيب عن هؤلاء الذين أنقلوني

بالأغلال فلا يلحظون غيابي؟». وأنت ترد عليَّ قائلاً بقوة: «أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك».

- مرحى مرحى، أنت الآن في عالم التجلي.

- يا ربي، ما الذي يحدث لي؟ إنها محنة ورب الكعبة، ولكن من أنا حتى يألم فؤادي لحالي؟ فما محتتي إلا كقطمير، أما ما يصدعني فهو ما يمر على الأمة من فتن، والذي نفسي بيده لا أظن أن الأمة ستقع في فتنة مثل التي وقعنا فيها يا رصافي، إنها فتنة صماء.

- وهل نُبِّئت بما سيحدث في قابل الأزمان؟

- وهل هناك أكثر مما نحن فيه؟

- نعم هناك، وستظل الفتن تموج بامتنا إلى يوم الدين.

- أقسم برب الكعبة لو أراني الله فتنة أشد مما وقعنا فيه لضرب

يشيرها بنعلي هذا.

- كُتبتُها على نفسك.

- يا رب سلِّم سلِّم.

استدار الرصافي ليتصرف فقال له ابن حنبل: إلى أين يا صاحب

الدورق؟

- أولم تشرب؟

١- بلى، شربت وارتويت.

- وهناك عبرك من ينتظر الدورق نبشرب ويرنوي، لن أغيب عنك، سأكون معك قريبًا وسأحملك في رحلة عمرك.

- سمعتك من قبل وأنت تحدثني عن مصر، فلا أعرف وايم الله أحدث هذا أم لم يحدث!

- أنت منذ الآن وأنت في إسرائء، الذي يمر بك الآن هو التهيئة.

- إسرائء، كان الإسرائء للنبي ﷺ فقط!

خرج الرصافي من المكان والماء يندلق من حافة الدورق على أرض السجن وهو يقول: لكل منا إسرائؤه.

ولما كان المكان منى والزمان يوم التروية، وكان الحاج غريب يوسف قد ثبت في ذلك المكان المقدس يومًا أكبر في امتداده الزمني من عمره كله،

وحين هم الحاج غريب يوسف بالخروج من خيمته بحثًا عن صاحب الصوت الذي يعرفه أوقفته زوجته الحاجة «سيادة عرفة»: إلى أين يا حاج؟

قال لها: ألم تسمعي هذا الصوت؟

- أي صوت؟

- الصوت الذي كان يلبي وينشد.

- أصوات الملبين تملأ المكان.

- ولكنني ميزت من بينهم صوتًا أعرفه، سأخرج بحثًا عنه.

- يوه، أتركني وتخرج؟

- لا تخافي شيئاً فزوج ابتك نجية في الجوار، وأنا سأعود في أقل من لمح
البصر إن شاء الله.

خرج الحاج غريب يهرول وراء الصوت الذي ميزه من بين أصوات
المليين وتأكد منه حين أنشد (أذن إبراهيم فاستجبنا، وعلى كل ضامر أتينا،
هوت الأفتدة فلبينا). إنه صوت الشيخ محمد الفضالي، أعرفه من بين
مليون صوت، تركته في الشرقية ولم يرد في بالي أنه سيحج هذا العام، فقد
أنقلته الأمراض، أيمن أن يكون قد جاء؟ وكيف ذلك وهو لا يقدر على
مشقة الحج؟ هذا أمر فوق العقل!!

كان صوت الشيخ الفضالي يقود الحاج غريب إلى شارع الملك عبد العزيز
الذي يقع على يمين الصاعد إلى عرفات، عبر شارع منى الكبير، استمر
الصوت مسموعاً، واستمر الحاج غريب مهرولاً خلفه مدة ساعة، الصوت
لا يفارق أذنه فيدير وجهه ذات اليمين وذات الشمال بحثاً عن شيخه الفضالي
ولكنه لا يراه، حتى انقطع به الطريق فجلس على الأرض لا يعرف كيف
يعود.

كانت الشمس تضرب الأرض بقوة والحاج غريب يرتدي ملابس
الإحرام ولا ساتر له من الشمس، نصب ماء جسده فجف ريقه، انتفض
جسده بقوة عندما أدرك أن أكثر من ساعتين مرتا عليه وهو يسير خلف
صوت الشيخ الفضالي دون أن يتبه إلى أنه كان يسير وحده في الصحراء،
وأن خيام الحجيج قد اختفت وأصبحت خارج حدود البصر، أخذ التائه

يتطلع حوله باحثًا عن موضع الخيام التي تركها عليه يجد إنسيًا يستهدي به أو مكانًا يظهر من بعيد، يعرف منه الطريق أو علامة أو طيرًا ولكنه لم ير شيئًا، هو الآن في قلب الصحراء تلتف الجبال من حوله ولا ماء معه.

- أتراني الآن في وادي عُرنة القريب من عرفات، أم في وادي مُحسر الذي يقع بين مزدلفة وعرفات، أنا في أيهما على أي حال، لا يهمني أين أنا ولكن الذي يهم هو كيف أنا.

أخذ العطش يستبد به، والهلع عرف طريقه إلى قلبه لأول مرة منذ أمد طويل؛ إذ لم يكن من السهل أن يعرف قلب الحاج غريب من قبل طريقًا إلى الخوف. توالت الأفكار على خاطره، رأى زوجته سيادة وهي تنتظره في الخيمة، تخيل الحاج محمد أبو لبيب زوج ابنته وهو يسعى بين الخيام باحثًا عنه، رأى وجه صديقه وحببيه وشقيق زوجته الحاج محمد عرفة يداعب خياله ويتسم في وجهه، رأى شقيقه الأصغر أحمد وهو يقرأ ألفية ابن مالك، خيل إليه أن الشيخ محمد الفضالي يقف شاخصًا أمام بصره... ما الذي فعلته معي يا شيخي وشيخ أبي؟!

لماذا جررتني خلفك في الصحراء؟

أفي هذا المكان يُلقى الحبيب حبيبه؟

أنا الذي طلبت منك أن أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً، سعيت للبيعة، تمنيت أن أجلس أمامك على السجادة لأردد البيعة، ولكنك أنت - وليس أحد غيرك - الذي طلبت مني أن أترك الطريقة ولا أنخرط فيها.

منذ أن قصصت عليك الحلم الذي رأيت فيه القيود والأثقال والأغلال
تكبلني وأنت الذي قلت لي: إن طريقتك هي روحك، هي شعاع النور الذي
ينشق من قلبك.

قلت لي: طريقك إلى معرفة الله وتذوق حلاوة اليقين هو الحرية، انطلق
منك إلى ربك، أنت مرشد نفسك وما أنا إلا رفيقك في درب المعرفة.

الآن أنا في قلب الصحراء أبحث عن عودة فلا أستطيع، أبحث عن نقطة
ماء فلا أجد لها سبيلاً.

انتبه الحاج غريب من غفوته التي كان يناجي فيها الشيخ الفضائي على
حلقة وقد أصبح كالحطبة الجافة التي خاصمت الماء سنين، نظر إلى الأرض
فوجد زلطة ملساء فوضعها في فمه وأخذ يمتصها، وعن بعد رأى شيئاً
يلمع على الأرض فانتصب من الفرحة؛ يبدو أنها بركة ماء.... جرى إليها
شوقاً، وكلما اقترب منها ابتعدت عنه، ولكنه ظل على سعيه ثم توقف فجأة،
إنه يفعل مثل سيدتنا وأمنا هاجر، سعت نحو الماء وهو يسعى نحو الماء!
ولا ماء إلا أن يرسله الله تعالى، أيقف أم يستمر في السعي؟ فليقف، ولكن...
لا، فليسع، فالله إذ أرسل الماء لهاجر وابنها إسماعيل، لم يرسله بقانون سعيها،
ولا حتى بضربة رجل ذلك الرضيع إسماعيل الذي تفجر الماء من تحت قدمه
بعد أن سعت أمه سبعة أشواط، ولكن أرسله به: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا
أَن يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ ولكن كان يجب أن تسعى هاجر وفقاً لقانونها
حتى يعطيها الله بـ«أمره» الذي يخرق القوانين... تذكر غريب في ضعفه

وتيهه وعطشه كلمات الشيخ الفضالي التي قالها له ذات مرة «الله خلق قوانين الكون لنا لاله، ولكنه يجب أن تؤتى قوانينه، فإذا أتيناها حبًا وطاعة أعطانا بغير قانون».

لا يزال يحفظ عن ظهر قلب قوله: «نسعى وفقًا لقانون الخلائق فنلجأ للأسباب، فيعطينا مسبب الأسباب من عنده من غير قانون السبب، ألم تطبق ستنا مريم القانون فهزت جذع النخلة، فسقط عليها الرطب في غير موسمه، وهزة الجذع لا تسقط الرطب».

قام غريب من وهنه وكان الله أضاف له قوة، وأخذ يهرول في كل الاتجاهات وقد هداه قلبه أن ينظر إلى السماء، فلعل نظرة منه تقع على طير فيسير في اتجاه طيرانه، ولكن بصره لم يقع على شيء، وقع الرجل الضعيف على الأرض وهو يرثي حال نفسه.

أخذ يحدث نفسه: والله إن هذه محنة تيه لا مثيل لها، أقسم إن نجوت ألا أقع في مثلها أبدًا، فبقدمي وقلة عقلي انزلت، ولكن هل سأنجو؟ أظن أن هذه نهايتي، والحمد لله أنها في بقعة مقدسة.

بكى على نفسه وهو الذي لم يبك من قبل في مواضع الضعف الإنساني الذي يلم بالواحد منا بين الحين والآخر تلبية لحاجاتنا البشرية، والحق أنه لم يبك قبلها إلا في مواضع الدعاء وذكر الله والصلاة على سيدنا محمد ﷺ.

وفجأة تذكر الحاج غريب أنه لم يُصل الظهر والعصر، فميم ونوى الجمع والقصر، حاول الوقوف للصلاة ولكنه لم يستطع من فرط الضعف والوهن،

استعد نفسيًا للدخول في الصلاة وهو جالس في مكانه، ولكن أين اتجاه القبلة؟ اختلط عليه الأمر، ثم نظر للشمس وحركتها، الكعبة تقع في الغالب غرب منى، ونحن الآن بعد العصر بحوالي الساعة وحركة الشمس ناحية الغروب واضحة، ها هو اتجاه الغروب، كيف فاته هذا من قبل، الغروب هو اتجاه الحياة، ففي الدنيا كلها وفي أسباب البشر يكون الغروب هو أقول الحياة وانزواءها، ولكن من حيث التيه الذي هو فيه أصبح الغروب اتجاهًا للحياة والخروج من درب التيه، فمن حيث ستختفي الشمس ستكون الكعبة ومكة وتكون الحياة. انتهى من صلاة الظهر والعصر وقد هدأ قلبه واطمأن به.. كريم أنت يا رب.

قام غريب وهو يغذ السير في اتجاه الغروب، لهج قلبه بالذكر والدعاء والتلبية، خطر على باله: ما كان الله ليضيعه وهو يلبي ويستغفر.

اجتهد غريب في المسير ولكن جسده لم يساعده، أضناه العطش والتعب، وحين حاول أن يسرع في المسير وجد أن معالم الطريق قد تغيرت تمامًا، تملكه العجب وهو يرى الجبال التي كانت على جانب الطريق قد اختفت، أين اختفت، وكيف؟! ما هذه المسالك الغربية التي لم يرها حين دخل إلى هذا الوادي؟ كل شيء تغير! الرمال نفسها تغيرت طبيعتها، رائحة الجو مختلفة، يخيل إلي أن الهواء مشبع بالماء، ولكن أين الماء؟ لساني أصبح قطعة من الحطب ولا ماء إلا في الأمانى، نظر للسماء فوجد سحابة ماء تتكوم وتنفض ما فيها من ماء، الحمد لله، الماء ينهمر من السماء انهمارًا، أخذ الحاج غريب يجري بكل قوته ليقف تحت سحابة الماء التي تنفض ماءها، ولكن السحابة كانت

أسرع حركة منه، إذ كلما اقترب منها ابتعدت، وحين كان ينظر للأرض ليغمض بعض الماء الذي قد يكون تجمع على سطح الأرض، بهتته المفاجأة، إذ وجد الماء وهو يختلط بالرمال فيحيلها إلى رمال صفراء فاقع لونها مثل الذهب، وعندما قام بجس الرمال ارتعشت يده ارتعاشة ظلت تصاحبه طوال حياته، فقد كانت الرمال جافة كأن الشمس ضربتها بالساعات ولا أثر للماء فيها.

يا الله، هل أثرت الشمس في رأسي؟ يبدو أنني أصبت بضربة شمس!! أين أنت يا سيادة، وأين الخلل الذي كنت تضعينه على رأسي عندما كانت ضربات الشمس تناوشني؟ توقف غريب عند موضع قدمه وهو يحدث نفسه: أشعر بإجهاد وارتجاف وكأن أعضائي تتفكك مني، يا ويلتى، يدي تريد أن تنخلع من مكانها! رأسي يكاد أن يغادرني! بنياني كله يتنفض، يا رباه، هذا هو الموت وتلك فجأته.

غامت الدنيا تحت قدميه فوقع على الأرض، أيقن أن مصرعه سيكون في هذا المكان فأخذ يرفع سبابته إشارة للتوحيد، وتمتم بالشهادة، وأخذ النور يغيب عن بصره وصور الموجودات تنمحي من خياله، ولكن في تلك اللحظة الفاصلة بين الحياة والموت حدث له ما لم يكن في الحسبان وما لم يورد على باله أبدًا.

في سرداب الزمن

ولما فتح أحمد بن حنبل عينيه غشيه النور

فأغلقهما.

ثم فتحهما برفق وأخذ يتحسس المكان بيديه، أين أنا الآن؟ أظنني في
 زنزانتني بسجن درب الموصلية، لا لقد انتهت أيام درب الموصلية منذ أشهر،
 أغلب الظن أنهم نقلوني إلى حجرة من حجرات القصر بعد أن تم جلدي،
 ولكن ما هذا؟! لا توجد حوائط، أنا في فناء واسع ممتد، هل أنا في أحد أفنية
 القصر؟! اتكأ ابن حنبل على مرفقيه وقام قاعدًا، أخذ ينظر ذات اليمين وذات
 اليسار لكيه لم ير أحدًا، أين الحرس؟ غشيه خاطر: هل أنا ميت؟!

شعر فجأة بضربات خفيفات متتاليات على أم رأسه، وجد صدهن في
 باطن قدميه، غمره إحساس - استراب منه - بالرغبة في الطيران، لا كما
 يطير الطير؛ ولكن بأن يتخلص من هذا القيد الذي يثقل حركته ويجعلها تدب
 على الأرض ولا ترتفع في السماء، ثم يعاندها ويرتفع عن الأرض وجسده
 باستقامته، ويتحرك في السماء بخطوات قدميه وكأنه يمشي على الأرض،

هب واقفًا وفي خاطره أنه الآن سيسير في الهواء، إلا أنه ظل واقفًا كما هو، استغرب نفسه فأخذ يتحسس جسده ثم استبعد فكرة موته: إذن أنا أحلم، نعم، فقد رأيت في الحلم عبد الله الرصافي وهو يحملني ومعه دورق الماء.

شعبت الابتسامة على وجه ابن حنبل: وفي الحلم دعاني للسفر إلى مصر، وأين نحن من مصر! ولكن أين أنا الآن؟!

أقعى جالسًا، نظر إلى نفسه فوجد أنه يأتزر بإزار ليست له حاشية، ولم يجد على جسده رداء! نظر إلى صدره العاري وتحسسه، الآن يشعر بنبضاته كما لم يشعر بها من قبل، يكاد صدره يشف عن قلبه من فرط الخشوع الذي احتواه، سمع من خلفه صوت تلاطم أمواج فاستدار وقد تملكته الدهشة: بحر! بحر! يا الله! ما هذا؟ ما الذي أتى بي هنا، آخر عهدي بالماء كان نهر دجلة عندما حملوني في زورق رسوا به عند قصر الخليفة المعتصم بالله، ولكن هذا ليس نهرًا هذا بحر! وأنا على شاطئه وعلى امتداد البصر لا يوجد أحد تدب فيه الروح.

قام واقفًا، ازداد عجبًا عندما وجد نفسه نشيطًا فتيًا قويًا كأنه لم يُجلى اليوم جلدة واحدة، وي! كأنه عاد شابًا جذعًا! بل إنه في حالة لم يعهدها في نفسه قط، ما الذي حدث! شعر بدوار بسيط وكأنه دوار البحر، جلس مرة أخرى، تحرك قلبه بالذكر فنطق لسانه وأخذ يسبح لله، سبحان الله، سبحان الله، سبحان الله. سمع وشوشة البحر، كانت الوشوشة على نفس ترنيمة «سبحان الله» ارتقى قلبه كما لم يرتق من قبل فأخذ يردد بلا ترتيب ذهني منه «يا الله، يا الله، يا الله» فتلاحقت الوشوشات متتابعة على نفس نغمة «يا الله».

ردد ببطء «سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم» فإذا بوشوشات البحر تتناغم مع نفس طريقة ترتيله للدعاء وكأن الأمواج تقلده! اقشعر جسده: حقًا، صدقت يا الله حين قلت ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ قال بصوت مرتفع: ولكتني الآن أفهم تسييح الكائنات!! يا رمال سبحي، يا بحار سبحي. وبلا إدراك ذهني منه أخذ قلبه ينبض: سبحانك رب العزة والجبروت. هو الآن يشعر بجسده كله يُسَبِّحُ الله.

انتابه الدهور! ليست هذه الدنيا التي أعرفها! لا بد أنني في دنيا أخرى. مذ وقعت علي أول ضربة من سوط الجلاذ وأنا لا أشعر أنني في دنيا الناس، لم ترد الدنيا كلها على بالي، وما بقي منها في قلبي إلا الحياء؛ لذلك انفطر قلبي أن تنكشف سوءتي إذا انقطع جبل السروال، ولكن الله قبل رجائي واستجاب لدعائي.

استقبل جسده صوتًا يعرفه آتيا من مكان مجهول يأمره: قل «يا مُسَبِّحًا بكل لسان ويا مذكورًا بكل مكان».

فأخذ يردد منشدها: «يا مُسَبِّحًا بكل لسان ويا مذكورًا بكل مكان».

وما لبث أن عاد عقله إلى حركته الإنسانية العادية، أخذ يلح عليه: أين أنا؟ ما الذي حدث لي؟ كيف دلف الصوت السالف إلى جسدي كله... تحسس أذنه وكأنه يتأكد أنها في مكانها ثم قال في نفسه: يُخِيلُ إِلَيَّ أَنِّي أَصْبَحْتُ آذَانًا مصغية.. جاء له الصوت مرة أخرى قائلاً: روحك هي التي تستقبل، روحك هي التي تسمع.

اقشعر جسده: من أنت؟ وأين أنا؟

- أنا على يمينك ولكن الدهشة كبلت عينيك فلم ترني-

التفت ابن حنبل لليمين فوجد عبد الله الرصافي جالساً في دعة
واطمنان.

كاد أن يقفز من مكانه: عبد الله؟! هل هذا حقيقي؟ هل جلدني الخليفة؟
هل أخذتني من قصره، أم أنك أخذتني من السجن وكان الضرب الذي وقع
على ظهري مجرد أضغاث أحلام؟ هذا حلم لا شك في ذلك.

- هذا حق، أنت لا تحلم إذ أنت فوق الحلم.

- فوق الحلم! ما معنى هذا؟ الإنسان لا يكون في حياته إلا بين اليقظة
والنم، ففي أيهما أنا؟

- أنت في الحقيقة.

- زدني إيضاحاً.

- أنت في درجة الحقيقة، وهي درجة أعلى من اليقظة وأصفى من المنام.

- كيف؟ اليقظة انتباه للحواس، وفي المنام سياحة للروح مع استغناء عن

الحواس.

- أنت مع انتباه الحواس وسياحة الروح.

سادت فترة صمت قصيرة بينهما، نظر ابن حنبل للرصافي وكأنه يستزيده
فافتّر ثغر الرصافي عن ابتسامة محببة وقال: ألم تُثبِت في مسندك حديث رسول
الله ﷺ: «من رآني في المنام فقد رآني في اليقظة»؟

- بلى.

- الحديث الذي أورده في مسندك يتحدث عن درجة من درجات الحقيقة، يجتمع فيها ارتقاء الروح مع انتباه الحواس، فيلتقي من ارتقى بالمصطفى صلوات الله وسلامه عليه ويراه، تحدث هذه الدرجة للمتقين وهم نيام، ويحدث مثلها للمحسنين من أهل شهود الغيب وهم أيقاظ.

- زدني إيضاحًا.

- ألم تسمع أمواج البحر ففهمت تسييحها؟

- بلى وربي!

- إذن فلتعلم أنه لا يعرف تسييح الأشياء إلا من عاش في «نور الحقيقة».

- زدني إيضاحًا.

- من تجلى الحق لروحه فهو في نور الحقيقة، وأنت الآن في عمود من أعمدة النور، فلا تشغل بالك واترك نفسك وستحملك روحك وهي تسبح في أطيايف النور.

- وكيف أصبحت في عمود من نور؟

- لأنك من المحسنين الذين ينطقون بالحق، ويعقلون بالحق، ويعرفون الحق بالحق، وينظرون بالحق إلى الحق.

- هذا كلام يحتاج إلى مراجعة مني، ولكن ما الذي أتى بنا إلى هنا؟

- نحن في رحلة، نتجول في سرداب من سراديب الزمن، ألم أقل لك إننا سنذهب إلى مصر؟

- ولكن أين القافلة؟ ثم... سبحان الله، أشعر بخفة في روحي وفتوة في جسدي لم أشعر بهما من قبل.

- رحلتنا لا تحتاج إلى قافلة من القوافل التي نعرفها.

- فكيف نتحرك إذن؟

- سرداب من سراديب الزمن يحملنا.

- هذا كلام يستغلق عليّ فهمه! ولكنني أشعر براحة له، ولكن السنن في وضع السكون لا الحركة؟!

- الزمن يتحرك بنا ولا نحركه، يسير بنا ولا نسيره.

نظر ابن حنبل للبحر فوجده تغير فجأة، ارتفعت الأمواج وكأنها في ثورة عارمة، عاد إليه شعور الدوار فربت الرصافي على رأسه وقال له: قل: ﴿قَسْبَحَنْ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ لا تتركها حتى يهدأ الموج.

شعر ابن حنبل بأصابع الرصافي التي ربتت على رأسه وكأنها ضربات خفيفات وجد صداهن في باطن قدميه وأشاعت الراحة في جسده كله فأخذ يتمتم بالتسبيح: ﴿قَسْبَحَنْ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

أخذ الرصافي بيده فوقفا، خاطبه برفق: هيا نتجول في هذا المكان، إنني أراه جميلاً.

سارا مسافة طويلة وهما يسبحان الله، وفي كل تسيحة كان ابن حنبل يشعر بنور يحتوي فؤاده وقوة تحمل بدنه، انتابته رغبة جارفة في العدو والوثب، يا الله، ابن حنبل بخشوعه ووقاره يركض ويقفز مثل الأطفال الصغار؟! ألجم نفسه عن تلك الفكرة الطائشة، ثم أخذ يقاومها وهي تلح عليه، وحين تغلبت عليه الفكرة نظر للرصافي وقال له: هيا بنا نركض قليلاً فلعل الركض ينشط جسدنا.

ابتسم الرصافي: اركض أنت كما تشاء وسأسير خلفك.

لم ينتظر ابن حنبل كي يسمع آخر كلمة وانطلق يعدو، تملكت الدهشة مجامع قلبه وهو يرى قفزاته الراكضة شديدة الاتساع كأنه يقفز في الهواء، ومع كل قفزة كان قلبه يقفز هو الآخر من السعادة التي أحاطته وكأنه الآن في موضع قريب من «سدرة المنتهى»، ومن فرط السعادة التي تفاعلت في حشاشات قلبه ارتفعت قفزاته واتسعت... لم يسبق له في شبابه أن ركض هكذا، فمن أين أتت له هذه القوة الفريدة والخفة الروحية الشفيفة؟! توقف بعد فترة يسيرة من الركض ثم نظر خلفه فلم ير أثراً للرصافي، دقق النظر فوجده آتياً عن بعد كأنه نقطة صغيرة في صفحة كبيرة، وبغته وجده واقفاً بجواره، قال للرصافي: اليوم هو يوم الدهشة والاستغراب، كيف ابتعدت عنك كل هذه المسافة في تلك الفترة القصيرة، وكيف أتيت إليّ سريعاً قبل أن يرتد إليّ بصري!

- قواعد الزمن هنا تختلف عن قواعد الزمن في حياتنا التي نعرفها، ألم

أقل لك: إننا في سرداب من سراديب الزمن؟

- لا يزال عقلي يستعصي عليه فهم ما تقول، لا أفهم كيف يختلف الزمن.

- يختلف باختلاف المكان.

- ولكننا ما زلنا في الحياة الدنيا!

- أتظن أن الحياة الدنيا شيء واحد؟!

- وهل هي أشياء! لعمرى لم يقابلني من قبل من يقول بتعدد الدنا.

- وهأنذا تعيش الآن في دنيا غير دنياك التي كنت فيها.

نظر ابن حنبل للبحر فوجد أمواجه قد هدأت واستنامت، مد بصره ما استطاع فوجد سطح البحر تتغير ألوانه من لحظة لأخرى، وحين نظر للناحية المواجهة لشاطئ البحر وجد مساحة كبيرة من الرمال الغربية ذات اللون الذهبي النادر، مد بصره ما استطاع فوجد في الأفق لوناً أخضر يبدو وكأنه نهاية لذلك اللون الذهبي الذي صبغ الرمال، هذا مكان غريب لم أر شيئاً له من قبل، ولم أسمع عنه ممن ارتحلوا في بلاد الدنيا، هل نحن في دنيا أخرى كما يقول الرصافي؟! لا أظن هذا أبداً.

أخذ ابن حنبل يمعن الفكر ويتأمل ثم انتبه لشيء لم يفتن له من قبل: وايم الله ما هذا الذي يمر بي! والذي نفسي بيده لقد سلب الضرب عقلي، الدنيا يشع نورها كأضواء ما يكون النهار ولا أرى شمساً في السماء! نحن في أرض لا تعلوها شمس يا رصافي! نحن الآن - كما قلت - نعيش في مكان آخر غير المكان الذي نحيا عليه في حياتنا التي نعرفها، الآن يجب أن تصارحني، من أنت؟ وكيف استطعت حملي إلى هذه الأرض الغربية؟.... أراك سكت! لماذا لا تنطق؟

وضع الرصافي يده على كتف ابن حنبل فشعر بها ثقيلة كأنها جبل، مالت كتفه وارتعدت فرائضه وتنفس بقوة وهو يقول: سبحانك يا مالك الملكوت انجدي بوعدك الذي قلت «يريد الله أن يخفف عنكم» ونجني كما نجيت ذا النون ووعدك الذي قلت: ﴿وَكَذَلِكَ نُنشِئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وما كاد ابن حنبل ينتهي من قوله حتى شعر بجسده يرتجف رجفة لم يعهدها من قبل، فانشى ليجلس محتمياً بالأرض، وما إن استقر جالساً حتى ارتجت الأرض وكأن زلزالاً أصابها.

ولما كان الحاج غريب يوسف قد وقع في محنة التيه وبدأت الحياة تتسرب من جسده كما يتسرب الماء من بين أصابع اليد:
ساعتئذ قال بصوت أخفاه الضعف: يا اااارب، يا اااارب.

فإذا به يسمع صوتاً واضح القسماة يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ وبغته فوجى بهاء بارد طيب يسقط على شفتيه، ويبلل وجهه، ثم إذا به يشعر بيد مبللة بالماء تمسح على وجهه مسحاً خفيفاً طيباً، فلما حاول أن يفتح عينيه غلبه التعب ولم يستطع، حملت يد رأسه وصبت قطرات من الماء في فيه فرشفتها بنهم، حينها بدأ يشعر بالحياة تدب في جسده من جديد، انتظرت اليد برهة ثم سكبت دفعات من الماء في حلقة فعبها متلهفًا، ها هي الدماء تسير في عروقه من جديد بعد أن كانت قد تجمدت.

أخذ قلب الحاج غريب يلهج بالتسبيح، ثم ما لبث لسانه أن استجاب لتسبيح قلبه فتحرك مُسَبَّحًا، وإذ قويت أعضاؤه أخذ يليه بلسان بلغ من

الوهن مبلغه، ليك اللهم ليك، ليك لا شريك لك ليك، شعر بصاحب اليد وهو يضمه إلى صدره ضمة قوية طقطقت عظامه من أثرها، ففتح عينيه شيئاً فشيئاً فرأى خيالات لم يتبين حقيقتها، وعندما استقام بصره نظر فوجد رجلاً أبيض الوجه له لحية مخضبة بالحناء يرتدي ملابس الإحرام ويحمل دورق ماء، من هذا الرجل؟ لعلني رأيت من قبل، نعم تذكرته... هذا أحد المشايخ الذين يترددون بين الحين والآخر على الشيخ محمد الفضالي.

آه الشيخ محمد الفضالي! أخرجني صوته من خيمتي فعدوت خلفه فإذا بي أصل إلى هذا المكان المنقطع.

وبينما هو في هذا الحال إذا بالضعف يتغلب عليه مرة أخرى فما كان منه إلا أن أغمص عينيه مرة أخرى ثم أخذت صور الماضي تتابع برفق أمام خاطره.

رأى نفسه وهو في الخامسة من عمره يركب حملاً خلف أبيه الشيخ يوسف غريب، وفي قرية «حفنا» الملاصقة لقرية السعيدية أنزله أبوه عند كُتَّاب الشيخ سليمان الحنبلي، ومن بعدها وهذه الرحلة تتكرر يومياً حيث يحمل على الحمار إلى الكُتَّاب أحد رجال أبيه ويدعى «قطاب» فيصل به عند منتصف الضحى ويظل في انتظاره إلى أن ينتهي الولد غريب من دروسه بعد صلاة الظهر فيعود به وهو يحمل لوحه الذي دوّن فيه ما أخذوه هذا اليوم.

ثم رأى نفسه وهو منكب على حفظ القرآن عن حب وشغف حتى أصبح القرآن حياته، وأصبح الشيخ سليمان الحنبلي - صاحب الكُتَّاب - مثله الأعلى،

جرت فترة الصُّبا بأحداثها أمام ناظريه، ها هو يتتبع قُرَاء القرآن في المناسبات الدينية والمولد والمياتم فيشنف قلبه بأصواتهم الندية، لم يترك مناسبة قرأ فيها القرآن الشيخان عبد الرحمن سبيع وهمام قطب أشهر القراء في مديرية الشرقية إلا وحضرها ولو كانت في آخر قرى المديرية، تختلط الصور وتتسارع أمام نظر خياله، ها هو يرى نفسه وهو لا يني يقرأ سورة «الرحمن علم القرآن» آيات السورة يتردد صداها في فؤاده، ترتفع به في دنيا أخرى، يذهب الزمن به ويعود، يشعر بحنان أبوي من لمسات يد تحتوي رأسه، وفي اللحظة التي أغمض فيها عينيه بعد أن أفافته جبات الماء الندي التي تساقطت على شفثيه وشربتها أنسجته رأى الشيخ محمد رفعت وهو يقرأ من سورة مريم ورأى جسده وهو يتنفض وجدًا وامتزاجًا، ثم إذا بصوت الشيخ رفعت يستحيل إلى صوت ذلك الشيخ الشاب صاحب الصوت الملهم مصطفى إسماعيل وهو يقرأ من سورة النمل، يتمايل قلبه وهو يسمع الشيخ يقرأ ﴿قَالَ عِفْرِيْتُ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا...﴾ وحين سمعها خيل إليه أن عفريتًا من الجن يتنطط ويتعفرت أمامه، ثم إذا بالهدوء والسكينة يعودان إليه عندما سمع الشيخ يقرأ: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾.

ظلت آيات القرآن تتهدى إلى قلبه، وفجأة انقطعت الصورة القرآنية التي كانت تمر به عندما شعر بمن يهز رأسه هزًا خفيفًا، حاول أن يفتح عينيه ولكنه لم يستطع، أحس بضربات خفيفات على أم رأسه وجد صداهن في باطن قدميه، بعث الراحة في كل جسده، إلا أنه استمر في تلك الإغفاءة اللذيذة التي استنام لها واستطيها، ها هو يرى نفسه وهو صبي في العاشرة يقف في

حضرة أبيه الذي كان يجلس مع بعض المشايخ في بيتهم الكبير، وضع أبوه ثمرة شهية ناضجة في روث البهائم وأمره بأكلها فأبت نفسه واشمأزت روحه، فأعطاه ثمرة أخرى نظيفة وقال له: كل هذه. فتناولها وأكلها بنفس راضية.

سأله أبوه: أخبرني عن التمرة الأولى.

فقال: كريمة الرائحة قبيحة الشكل تتقزز النفوس منها.

- والتمرّة الثانية.

- نظيفة المخبر ذكية الرائحة طيبة المذاق.

- إذن فاعلم أن المال الحرام مثل التمرة الأولى إذا أكلتها دخل الشيء الحبيث إلى جسدك، أما المال الحلال فهو مثل التمرة الثانية يأخذ جسدك طيبها ولا خبث فيها.

تدخل الشيخ الفضالي قائلاً: إياك إياك والمال الحرام.

فجأة تغيرت صورة الشيخ الفضالي وحل محلها صورة الشيخ سليمان الحنبلي صاحب الكتاب، رآه وهو يقرأ له من سيرة الإمام أحمد بن حنبل، اندمج في قصة الإمام، وتذكر تلك اللحظات التي قضاها وهو يذرف دموعاً عزيزة ثخينة عندما أخبره الشيخ سليمان أن الإمام تحمل الضرب والجلد بالسياط ولم يتخل عن قوله بشأن القرآن، ها هي تلك اللحظات التي كان يجلس فيها في موضع المتلقي تحت قدم الشيخ سليمان شاخصاً أمامه، سبحان الله! ما الذي أجرى على خاطره في تلك اللحظة بالذات قصة الإمام ابن حنبل؟ وما الذي ذكره بشيخه المقرئ سليمان الحنبلي؟ حقاً إن خطرات

النفس - خاصة في تلك اللحظة الإنسانية النادرة - كثيرًا ما يكون لها منطقها الخاص بها والذي غالبًا لا نجد له تعليلًا.

استمرت الخواطر تتدفق على قلبه بلا انقطاع، فرأى نفسه وهو يحفظ كل ما رواه الشيخ سالم عن الإمام ومحتته وثباته، ويألها من لحظة نورانية احتوت فؤاده عندما عرف أن ابن حنبل كان يتبرك بشعرات للرسول عليه الصلاة والسلام، وأن الإمام الشافعي تبرك بثوب لابن حنبل وعصره في الماء كي يمسح بالماء على وجهه كل يوم، إنها صفة صالحة.

مر صوت الشيخ سليمان على أذنه وهو يقول: على فكرة يا ابن صاحبي أنا شافعي المذهب ولكنني حنبلي الهوى.

- كيف هذا يا سيدنا؟

- جدي الأكبر «الربيع بن سليمان» هو الذي حمل رسالة الشافعي لابن حنبل، وهو الذي أخذ ثوب ابن حنبل هدية، وما زال الثوب عندنا من مفاخرنا.

- أو لُقِبَ عائلتكم نسبة إلى هذا؟

- نعم من وقتها وجدي الأكبر يطلقون عليه الربيع الحنبلي فأصبحت عائلتنا هي عائلة الحنبلي مع أننا من أشد خلق الله تمسكًا بالشافعية، رحمة الله عليهما وعلى أمواتنا أجمعين، والله يا ابن صاحبي ظلت عائلتنا تتناقل قصة ابن حنبل وفتنة خلق القرآن حتى إننا من فرط حبنا للقرآن ودفاع ابن حنبل عنه أصبحنا على مدار مئات السنين نحترف تحفيظ القرآن، رحم الله ابن حنبل فقد زاد عن الأمة كلها.

- هل في الدنيا يا شيخ سليمان من يقف هذا الموقف في سبيل مبدئه؟!
- إنهم قلة في التاريخ، لذلك فإن هؤلاء لا بد أن يكونوا من ورثة الأنبياء.

- لقد أحببت هذا الرجل يا سيدنا حبًا دخل وقعد ونام على آخر جهده على حشايا قلبي حتى إنني دعوت الله أمس بعد صلاة العشاء أن يجمعني به في الدنيا والآخرة.

ضحك الشيخ سليمان وقال بلكنة أهل الشرقية: أعزتك عايز ربنا يجمعك بابن حنبل في الدنيا!! طب في الآخرة ماشي لكن في الدنيا تيجي ازاي دي!
- أهَيَ كبيرة على ربنا يا شيخ سليمان؟

- مش القصد لكن آني على قد حبي لابن حنبل - وأهو يعتبر جزء من تاريخ عيلتنا - لكن ماستجريش ادعي الدعاه لربنا، هو انت يابن صاحبي فاكر نفسك عيسى عليه السلام تحيي الميت، ده كُفر والعياذ بالله.

- كُفر ليه يا سيدنا، مش هو قال: ﴿أَدْعُوهُ اسْتَجِبْ لَهُ﴾، وانا دعيت وتني قاعد مستني الإجابة.

- ادعو بالمستطاع يابن صاحبي.

- أهو دا الكفر يا سيدنا والعياذ بالله، ربنا قادر على كل شيء، إنها أمره أن يقول للشيء كن فيكون.

- دانت باين دماغك يابن صاحبي مليانه فكر، خلاص يا سيدي ربنا يكتبها لك.

تكررت الضربات الخفيفات على أم رأسه فاستجمع قواه وفتح عينيه، اتكأ على مرفقيه وقام قاعدًا، أخذ ينظر ذات اليمين وذات اليسار لكنه لم ير أحدًا.

أين أنا الآن؟! ما هذا المكان الغريب؟! سمع من خلفه صوت تلاطم أمواج، نظر إلى الخلف فوجد بحرًا ممتدًا لا نهاية له، انتفض واقفًا وقد أصابه الفزع، بحر في الأراضي الحجازية! هذه وايم الله إحدى الكُبر، ثم ما هذا؟! زال عني التعب والعطش! وأنا الآن أشعر بقوة وفتوة لم أشعر بها من قبل! ما بال هذا الهواء نقيًا، لا يدخل إلى رثتي فقط ولكنه يكاد يحملني على هدوئه وسكونه، تتابني الآن رغبة صبيانية حمقاء في الطيران، هل أستطيع الطيران حقًا؟!!

قفز الحاج غريب قفزة خفيفة فشعر بنفسه يرتفع في السماء ثم يهبط إلى الأرض في هدوء وكأن جاذبية المكان تختلف عن الجاذبية التي يعرفها! ما هذه الخفة التي تجتاحه؟!!

سكن في مكانه وهو يتحسس بعقله ما مر به: أكاد أجزم أنني لست في الدنيا التي أعرفها، ولكن من هذا الذي يجلس على يميني؟ ها! أظنه ذلك الرجل صاحب اللحية المخضبة بالحناء، نعم هو الذي سقاني الماء، ولكنه ليس وحده؟ فبحواره رجل أسمر الوجه نحيف البنيان، أقسم بالله إنني لو حكيت ما مر بي للحاج محمد عرفة ما صدقني أبدًا، أه، أين أنت يا محمد يا عرفة؟ أين أنت يارفيق دربي؟ أظنك لو كنت معي لألزممتي بالدعاء والاستغفار، الدعاء... نعم... يجب أن أركن إلى الدعاء، ولكن أي دعاء أقول؟!

ها، لقد علمتني يا محمد يا عرفة دعاءً سألجأ به إلى الله: سبحانك يا مالك
الملوكوت أنجدني بوعدك الذي قلت: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَوِّفَ عَنْكُمْ﴾ ونجني كما
نجيت ذا النون ووعدك الذي قلت: ﴿وَكَذَلِكَ نُنشِئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وما إن انتهى الحاج غريب من دعائه حتى شعر برجفة قوية تتاب جسده
ثم وقع على الأرض مغشياً عليه.

وما كان الزمان والمكان من خلق الله وكان الله قد أذن باللقاء.

فقد توالى الأحداث سريعاً، فبعد أن أفاق الحاج غريب من غشيته وجد
مساحة البحر قد ازدادت اتساعاً ومساحة الياوس قد تقلصت، نظر للبحر
فوقع في نفسه شعوران متناقضان في آن واحد، شعور بالرهبة وآخر بالراحة،
كانت الراحة مبعثها في أغلب الظن ذلك الهدوء الذي تخالطه زقزقة العصافير
وتلك الأشجار ذات الخضرة التي لا عهد له بها والتي تصطف أمام البحر
وكأنها في موكب ملائكي أسطوري، أما الرهبة فكانت من تلك الأمواج
العالية التي لا صوت لها والتي تمت نفسها من البحر مطاً لتصل إلى موكب
الأشجار الأسطوري على أمل أن تصافحه وتشد على يديه، وحين لطمت
وجهه موجة استطلت من البحر حتى وصلت إليه وجد أعجب ما مر به في
حياته! فحين مسح بيده على وجهه تسربت بعض قطرات من ماء البحر إلى
فمه فوجد هذا الماء حلواً لا ملوحة فيه، ليس حلواً فحسب ولكنه في الحقيقة
كان أعذب ماء ذاقه لسانه في حياته، وحين تسربت قطرة الماء من لسانه إلى
أنسجة جسمه شعر بخفة تكاد ترفعه من الأرض رفعاً، حينها اعترته رغبة

جارفة في الجري والقفز إلا أنه أجم نفسه، وكان مما أثار دهشته ضوء النهار الذي يلف المكان، فهذا الضوء لا عهد له به من قبل، يشع نورانية مريحة للنفس، ويث إحساسًا بالوضوح.

ولكن أين الشمس التي ينبعث منها هذا الضوء؟ إنني لا أرى في السماء قرصها، كما لا يوجد سحب تحجبها، أنا في أرض لا شمس تعلوها ولا سحب في سمائها، هذه دنيا غير الدنيا، يا مغيث أغثني.

انتبه غريب فإذا بالرجلين اللذين رأهما قبل غشيته يجلسان بجواره، لم يكن قد شعر بوجودهما حين أفاق من غشيته، وحين أمعن النظر فيهما تأكد أن أحدهما هو الذي سقاه من دورق الماء بعد أن كاد يهلك، والثاني أسمر الوجه نوراني الطلعة ائتنس به وانكب قلبه إليه حبًا دون أن يعرف من هو، وضع صاحب الدورق يده على رأس الحاج غريب وأخذ يقرأ عليه كلمات، حاول غريب أن يعرف معاني هذه الكلمات التي تُقرأ على رأسه إلا أنه لم يفهم منها شيئًا، كل الذي يعرفه أن قلبه استراح لها، انتبه للرجل الأسمر وهو يقول لصاحب الدورق: من هذا يا رصافي؟

رد صاحب الدورق: هذا رفيقك في رحلتك يا إمام.

الرجل الأسمر: ما زلت تردد على مسامعي خبر هذه الرحلة وأنا لم أفهم شيئًا بعد، مرت بي مذ أخذتني من قصر الخليفة أحداث غريبة آخرها تلك الرجفة التي هزت الأرض من تحتي، ظننت أن القيامة قامت وأنا على وشك أن نعاين أهوالها، فإذا بالرجفة تلقي بنا في هذا المكان وكأننا قطعة لحم ألقاها أحدهم من آنية إلى آنية أخرى!

تدخل الحاج غريب متعجبًا: قصر الخليفة! عشنا وشفنا! ما علينا، هل
أستطيع أن أعرف من أنتم وأين أنا؟ وهل أطمع في أن تعيداني إلى خيام
الحجيج بمنى؟

رفع الرجل الأسمريده إلى السماء قائلاً: يا الله! ما هذا الذي أسمعاه؟
خيام الحجيج ونحن في شهر رمضان، ألم تأخذني يا رصافي من قصر المعتصم
في نهار رمضان؟ هل أخذتني إلى «البيهارستان» كي أقابل هذا الرجل!؟

ضحك الرصافي وقال: كلاكما في زمن آخر وفي مكان آخر، أو بالأحرى
كما قلت لك يا إمام أنتما في سرداب من سراديب الزمن، وسينقلكما هذا
السرداب إلى زمن آخر.

الرجل الأسمري: لن أماريك الآن ولكن سأسألك عن سبب هذا النقل
الذي تدعيه.

الرصافي: كلاكما مخلوق من طينة واحدة، وبث الله فيكما قطعة نورانية
واحدة، وكلاكما رأى أنه وقع في محنة لا مثيل لها في العالمين ولم تنظرا إلى العالم
بسعته وامتداده، فكان أن أخذتكما من زمانكما ومكانكما إلى زمن آخر حيث
سترون ما لا يخطر على قلب بشر، وما فعلته عن أمري.

قال الرجل الأسمري وقد اعترته الحيرة: احذر يا رجل ولا تظن نفسك العبد
الصالح الذي صاحبه موسى عليه السلام، فما أنت إلا ذلك الجار الطيب الذي
ألفت عشرته وخبرت طيب معشره، ثم إنني لم أضجر مما حدث لي وقد ثبتني
ربي وما خشيت إلا فتنة التعذيب بالسوط، وحين وقعت في لجتها استعنت

بالله وبرئت من حولي وقوتي إلى حوله وقوته، ولولا شعرات من رسول الله ﷺ وضعتهن في كمي هلكت من شدة الوَصْب... ثم استدرِك قائلاً: ثم ما هذا الهراء الذي ما فتئت تتفوه به «زمن غير زمن ومكان غير مكان»؟!.

قاطعُه الحاج غريب وهو يكتُم فزعه: والله لقد بدأت أستريب منكما، لغتكما غريبة وحديثكما غريب، ما هذه الألغاز؟ بيهارستان، زمن آخر، قصر الخليفة! اسمع انت وهو، أنتما لا تعرفانني ولو زاد تخريفكما عن حده فقولا على نفسيكما يا رحمن يا رحيم، أما موضوع غريب والله!

داعبه الرصافي: يجب أن يكون الأمر كذلك لأننا معك يا «غريب» وطوبى للغرباء، ومع ذلك فسأقول لك يا أخي ما لم تسطع عليه صبراً، أما أنا فعبدُ الله، اسمي عبد الله الرصافي.

اشرب عنق غريب دهشة: عبد الله الرصافي؟! لقد سمعت هذا الاسم من قبل، نعم سمعته، آه، أنت الذي قابلت الحاج محمد عرفة في الإسكندرية وتحدثت معه عني وعن النبوءة، كما أنه يخيل إلي أنني رأيتك في إحدى جلسات الذكر عند الشيخ الفضالي، أليس كذلك؟

الرصافي: القلوب كنز المعرفة.

غريب: لا ترد عليّ بالألغاز يا سيدنا الحاج، الله لا يسيئك.

الرصافي: قلبك يعرفني قبل أن يخبرك عني حبيبك محمد عرفة وقبل أن تراني عند شيخك الفضالي.

غريب: ومن هذا الذي معك، أغلب الظن أن قلبي يعرفه، ولكن عقلي لا يتذكره؟

الرصافي: الذي معي هو إمام الأمة الذي زاد عنها حين امتحنت في القرآن.

فغر الحاج غريب فاه وهو يقول: من؟! لا أعرف إلا رجلاً واحداً زاد عن الأمة في فتنة خلق القرآن!

الرصافي: هو من تعرفه يا غريب، هو حبيبك الذي تُيمت به.

غريب: الإمام أحمد بن حنبل! لا بد أنك وقعت في التخاريف!

الرصافي وقد افتر ثغره عن ابتسامه: ألم تدع الله أن يجمعك بابن حنبل في الدنيا والآخرة.

غريب: بلى، دعوت، ولكن ابن حنبل مات وشبع موت، وبعدين يا عم الحاج انت عرفت منين حكاية الدعوة ديه!

تجاهل الرصافي الجزء الأخير من كلام الحاج غريب وقال بهدوئه المعهود: ألم تدع الله وأنت موقن بالإجابة؟

غريب: بلى، ولكنني لم أعرف كيف ستكون الإجابة، هل بعث الله ابن حنبل من قبره؟!

اعتدل ابن حنبل في جلسته وقال بصوت حاسم: كفى كفى، لا أريد أن أسمع هذه الترهات، وإيم الله أظن أنني وقعت في مدينة للمجانين، قل لي يا رصافي: ما هذه الأحاجي التي أدخلتني فيها؟ وما هذا المكان الذي يحتوينا؟ إنه مكان غريب أرضه براح لا وعورة فيه ولا هضاب! أين نحن؟

الرصافي: ستظل تسألني وسأظل أجيبك، نحن في طريقنا إلى زمن آخر
ومكان آخر غير الذي تعرفانه.

ابن حنبل: ننتقل إلى زمن آخر! أعرف كيف ننتقل إلى مكان آخر، ولكن
هذه أول مرة يحدثني أحدهم عن هذا الذي تعرف به.

ضاعت الأصوات من أذن الحاج غريب وهو يحاول أن يفهم هذا
الغموض الذي وجد نفسه فيه، وكان أقرب ما وصل إليه تفكيره أنه يعيش
حلمًا غريبًا، فأخذ يقرص نفسه حتى يستيقظ من ذلك السبات العميق، ثم
ما لبث أن انتفض واقفًا ثم أخذ يعدو بأقصى سرعته ليتعد عن هذا المكان،
وكان كلما توقف نظر خلفه ليستبين مدى ابتعاده عن الرجلين، ولكن
يا حسرتاه، كان يجد نفسه قريبًا منهما وكأنه لم يبتعد عنهما قيد أنملة، فكر في
أن يذهب ليختبئ خلف صف الأشجار الذي يقف قبالة البحر، ولكنه كلما
اقترب من الأشجار وجدها وكأنها تسير إلى الخلف هاربة منه فلا يستطيع
أن يقترب منها ولو بمقدار، أمعن النظر في اتجاه الأشجار فرأى سرًا من
الطيور غريبة الشكل تقترب من رؤوس الأشجار ثم حطت عليها، وعندما
حدَّ بصره وجد أن هذه الطيور ذات أجسام شفافة، أصابه الرعب مما رأى
فصاح صيحة مدوية خافت منها الطيور فارتفعت في السماء هاربة وظلت
تصعد وتصعد حتى اختفت عن بصره.

طيور غريبة شفافة، هذا أمر لا عهد لي به في الدنيا كلها.. أريد أن أهرب
ولكنني كأني مقيد في أرض هذا المكان.

كلما نظر يمينًا أو يسارًا خلفًا أو أمامًا ظلت الصورة أمامه كما هي لا تتغير، لا يزال قريبًا بنفس المقدار من الرجلين! عاود الجري مرة أخرى لعله يظفر بهروب واقتراب من خيام الحجيج بمنى، ولكن لا فائدة، فكلما جرى شعر بأن المكان يجري معه! توقف عن الجري وجعل ظهره للرجلين ناظرًا لصف الأشجار الطويل وأخذ نفسًا عميقًا وكأنه يستمد منه قوة روحية تؤهله لمواجهة هذا الموقف الغريب، ترى لو عدت إلى زوجتي وحكيت لها لا أظن أنها ستصدقني، سترقيني كعادتها كلما ألمَّ بي شيء، ستقول وهي تضم أصابع يدها اليمنى وتحركها بشكل دائري فوق رأسي «رقتك واسترقتك يا بن عيوشة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة» فماذا لو حكيت لشيخني «الفضالي»؟! عندما حكيت له في السالف عن الرؤيا التي رأيتها في المنام عن رجال أقوياء يكبلونني، طلب مني أن أترك الطريقة البيومية وقال لي: أنت حر، اعبد الله عبادة الأحرار. فما باله يقول اليوم إذا رأى الموقف الذي وقعت فيه، من يدري قد أكون الآن ميتًا وجسدي بين يديه يغسله، لم يأت أحد من الموت ليخبرنا عن أحوال الموتى وكيف هم في عالم البرزخ، أخبرني الشيخ الفضالي من قبل عن أن عالم البرزخ هو نوع من أنواع الوجود، قال إنه معبر للدار الآخرة. أحفظ كلماته التي قالها: «كنا من قبل في عالم الأرواح ثم في عالم الذر ثم في الحياة الدنيا ثم سنتقل إلى عالم البرزخ ومن بعده إلى يوم البعث فإما إلى جنة وإما إلى نار». وحين سألته: أنا أعرف عالم البرزخ فما هو عالم الذر هذا؟ قرأ لي من القرآن ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ فهل أنا الآن في عالم البرزخ، أم في عالم الذر؟!

غابت صورة الشيخ الفضالي عن خياله وداعبه خيال زوجته سيادة، يا ترى ماذا تفعل الآن، وكيف ستصبر على غيابه وهي التي لا تعرف شيئاً في الحياة إلا من خلاله، تزوجها وهي أقرب إلى الطفولة فأصبحت تتبع رأيه وقراره على طول المدى وكأنها قدت من تجويف صدره، داخله قدر من الاطمئنان عندما تذكر أن زوج ابنته معها في الحج وأنه لا بد أن يبحث عنه ويشجع سيادة ويشد من أزرها.

تداعت الصور على خياله، كان كمن ينظر للعالم التي مرت به من مكان مرتفع، رأى قريته السعيدية، تلك القرية البائسة التي ظلت عمراً طويلاً تعيش باسم غير اسمها الأول، ظلت تحمل اسم «المحروقة» ردحاً من الزمن حتى قبض الله لها أمراً فأصبح غريب عمدة لها، رأى غريب - وهو يسبح في دنيا الأفكار - ذلك الاحتفال الضخم الذي أقيم في القرية منذ أعوام احتفالاً بنجاحه في العمودية، يومها عقد اجتماعاً مع أعيان القرية وشيوخها واتفق معهم على التقدم بطلب لمدير المديرية بتغيير اسم القرية من المحروقة إلى السعيدية، ها هو يرى أهل القرية والفرحة تكاد تسلب ألبابهم وهم يحملون لافتة كبيرة معتبرة كتبوا فيها اسم قريتهم الجديد القديم «قرية السعيدية» وهاهم ينصبون تلك اللافتة في مدخل القرية وكأنهم يقولون لكل أهل القرى المجاورة: لقد طلقنا اسم المحروقة بالثلاثة، نحن أهل السعيدية السعداء ولن تقترب منا الحرائق بعد اليوم، تحركت أمامه صورة حريق ألم بالقرية منذ عامين، استعر أوار الحريق في بيت أحد أفراد عائلة فرّاج ولكن الله ستر إذ كان هذا البيت بعيداً عن باقي بيوت القرية فلم ينتشر الحريق

وواد نفسه خاصة أن أهل القرية كلهم انتفضوا ووقفوا وقفة رجل واحد وشاركوا في محاصرة الحريق فأكلت النار نفسها، تابعت الصور على خيال «غريب» فرأى شقيقه الأصغر أحمد وهو يخطو خطواته في الأزهر الشريف، يحفظ القرآن ويتلقى العلم، ارتجف قلبه وهو يتلهف على رؤية أخيه أحمد وهو يجلس في مقام العلماء، غابت صور الذكريات عنه وعاد إلى حاله التي كان عليها وهو يحاول الفرار.

استدار غريب ناظرًا إلى الرجلين، لا فائدة من الابتعاد فلن أبرح مكاني هذا، لفه اليأس وغلف قلبه، تذكر كلمات الرصافي التي قالها منذ هنيهة: «كلاكما في زمن آخر وفي مكان آخر». إذن أنا الآن على يقين أنني ميت وأنني الآن في عالم البرزخ، متُّ وأنا في الأراضي الحجازية المقدسة وفي بقعة طاهرة، الحمد لله أنسي مت وأنا أحج وألبي، فسأبعث يقينًا إن شاء الله يوم القيامة على التلبية، ولأنني دعوت الله مخلصًا أن يجمعني بابن حنبل فقد أرسل الله لي روحه كي ألتقي به، ولكن ابن حنبل نفسه في حالة حيرة، يبدو هذا من كلامه، المفروض أنه مات منذ زمن طويل وسبقني إلى عالم البرزخ فما الذي يحيره؟! هل هذا الرجل الذي معه أحد الملائكة، ولكنه يبدو مثل البشر تمامًا، لا فرق بينه وبيننا! جلس غريب على الأرض ورأسه يكاد ينفجر من فرط الأفكار التي ازدحمت فيه، وحين جلس عادت الأصوات مرة أخرى تنتظم في أذنه ليسمع أغرب ما مر عليه في حياته.



ارتفع صوت الإمام أحمد بن حنبل: لن أبرح مكاني.

رد الرصافي بهدوء وسكينة: المكان هو الذي يبرح، ثم إنك لا تسير في الزمن ولكن الزمن يسير بك.

ابن حنبل: كنت في محنة ثبتني الله فيها، أترك محنة إلى محنة؟!

الرصافي: بل تترك محنة إلى منحة، أتذكر يوم أتيت إليك في سجن العامة بدرب الموصلية؟ ما الذي دار بيننا؟

ابن حنبل: قل أنت.

الرصافي: «أنت كتبتها على نفسك».

ابن حنبل: كيف؟

الرصافي: يوم أتيت إليك في سجنك قلت لي: «والله الذي نفسي بيده لو أراي الله فتنه أشد مما وقعنا فيه لضربت من يثرها بنعلي هذا».

ابن حنبل: تذكرت وقتئذ قلت أنت لي «كتبتها على نفسك».

ساد الصمت المكان ثم تنحج ابن حنبل وهو يقول: هل معنى ذلك أنني سأدخل في محنة أخرى؟

الرصافي: ستكون شاهداً.

ابن حنبل: كيف؟

الرصافي: يوم أن أتيتك في السجن كنت متيقناً من أن الأمة لن تشهد فتنه كفتنة خلق القرآن، أليس كذلك؟

ابن حنبل مجيباً: بلى.

الرصافي مسترسلاً: وقطعت بهذا وأنت تُقسِم، فقلت لك: تمهل أيها الشيخ فإنك لم تُنبأ بما سيحدث في قابل الأزمان؟ فكان أن أخبرتك بأن الفتن ستظل تموج بامتنا إلى يوم الدين، ولذلك كان قسمك الذي توعدت فيه بأن تضرب رأس من يثير فتنة بالنعل.

ابن حنبل: أكمل.

الرصافي: نحن الآن يا إمام في دنيا غير دنياك في سرداب من سراديب الزمن، يتحرك السرداب ليصل بنا إلى زمن آخر غير زمننا، ليصل بنا إلى زمن لم يأت بعد.

ابن حنبل: وكيف سنذهب للذي لم يأت بعد؟ أراك تهرف كبعض الصوفيين.

الرصافي: كل شيء أتى في أمر الله، ثم يتنزل علينا من عالم الغيب إلى عالم الحضور، المستقبل غيب، والغيب يكشفه الله لمن يشاء من عباده.

ابن حنبل: تقصد قول الله ﴿أَنْتَ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلْهُ﴾ ولكن الكشف هنا كشف معرفة لا كشف حضور.

قطع الحوار صحيحة صدرت من الحاج غريب: يا ربي ما الذي يحدث؟!!

سأله ابن حنبل: صه أيها الرجل، أريد أن أفهم؟.

قال الحاج غريب بصوت مرتعش: ألم تر الذي حدث؟ الشيخ الرصافي يجلس أمامنا، كانت أجسادنا تكاد تتلاصق، ودون أن نتحرك رأيتنا نبتعد عنه.

ابن حنبل: أجننت أنت؟ نحن في موضعنا لم نتحرك منه وهو يجلس أمامنا لم يتحرك قيد أنملة، دعك منه يا رصافي، قل ما عندك.

الرصافي مبتسماً: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ والإحاطة يا إمام تكون معرفة وحضوراً كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿بل في مسندك من الأحاديث ما يدل على هذا.

ابن حنبل: نعم، صدقت، فعن ابن عباس قال: كان الذي أسر العباس ابن عبد المطلب أبو اليسر بن عمرو فقال له رسول الله ﷺ: «كيف أسرته يا أبا اليسر». قال: لقد أعانني عليه رجل ما رأيته بعد ولا قبل، هيئته كذا، فقال رسول الله ﷺ: لقد أعانك عليه ملك كريم...». استكمل ابن حنبل: رأى أبو اليسر الملك وشاركه في أسر العباس فكان شريكاً وحاضراً مع الغيب الذي هو أحد الملائكة، ولكن ما قصة الزمن التي تدعيها؟ إنها كقصص الصوفية! الرصافي: لله درك يا بن حنبل، أتذكر يوم التقيت «أحمد بن أبي الحوارى» بمكة؟ أتذكر الكلام الذي دار بينكما؟

ابن حنبل: كنا نتحدث حول قول أبي سليمان الداراني «إذا اعتادت النفوس على ترك الآثام جالت في الملكوت، وعادت إلى ذلك العبد بطرائف الحكمة من غير أن يؤدي إليها عالم علماً» وقد تعجبت من هذا القول إلا أنني رأيت ما يدعمه في حديث رسول الله ﷺ «من عمل بما يعلم، ورثه الله علم ما لم يعلم».

الرصافي: هذا هو علمك يا ابن حنبل، وقد سمعتك ذات يوم وأنت تقول
«من العلم ما جاء من فوق» أي إلهامًا من غير تعليم.

ابن حنبل: كنت أقصد العلم الذي أعطاه الله أم موسى، والذي أعطاه
الرجل الذي كان في مجلس سليمان، والعبد الصالح الذي قابل موسى، بل
النحل أيضًا.

قاطعهما غريب يوسف: يا خلق هو، الدنيا بتمشي وانتم بتكلموا في
الفلسفة، ارحمنا يا رب، تعال لي يا فضالي.. يا نهار اسود، الدنيا تدور بنا.

ابن حنبل: ما هذا؟ أين أنت يا رصافي؟ أنا لا أراك، أين ذهبت؟

غريب يوسف: ضربة شمس، هي ضربة شمس أصابتنني بالتأكيد، أنا دخلت
في التخريف، تعالي يا سيادة، أنا عمدة السعيدية مركز بليس شرقية، وأنا من
رعايا الملك فاروق الأول ملك مصر والسودان، انقلوني للمستشفى حالًا.

ابن حنبل: يا رب سلّم سلّم، يا رب سلّم سلّم، ما هذا؟! الدنيا أصبحت
مظلمة، أين النور؟

غريب يوسف: جسدي يرتجف، الدنيا برد جدًّا.

ابن حنبل: وأنا أكاد أتجمد من البرد، ارحمنا يا رحيم، اللهم أتر طريقنا
وهدي روعنا ولا تجمد أوصالنا.

غريب يوسف وهو يرتعد من الخوف والبرد: بررررر أنا لا أرى شيئًا،
هل أصابنا العمى؟ هي ضربة الشمس وليس شيء غيرها، ولكنها هذه المرة

جاءت جامدة عن كل مرة، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، يا رب نجنا بحق ﴿وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُصْحِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

هدأت الحركة من حولها إلا أن الظلام ظل نحيماً على المكان، وشيئاً فشيئاً بدأت عيونهما تتعود على الظلام، فاتسعت حدقات العيون «البؤبؤ» حتى تستخلص من الظلام نوراً وتدخله إلى العين، أفي الظلام نور؟! نعم في الظلام نور، كل شيء في الكون فيه نور حتى الظلام، وما ذلك إلا لأن النور يغشى الكون كله، والظلام من الكون، فالنور يغشاه، والظلمة لا تنفصل عن النور وإلا لما استخلصته العيون؛ لذلك يألف الإنسان الظلام ويتكيف معه، حتى إنه يرى يده بصعوبة في الحالة شديدة الظلمة التي ضرب الله لنا بها مثلاً ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكَدُهُ لَمْ يَكَدْ بِرَبِّهَا﴾ . إذ إن الله لم يقل لنا «لم يراها» ولكنه قال ﴿لَمْ يَكَدْ بِرَبِّهَا﴾ أي يراها بصعوبة.

تحسس غريب جسده، وتحسس ابن حنبل الأرض التي يجلس عليها فعلق التراب في يده، نظر فوقه فلم يجد قمراً ولم يجد نجوماً، وعندما زاد اتساع حدقتيه وجد كأن شيئاً ساتراً بجواره، فتحسسه فوجده صلباً، قام واقفاً فارتطم رأسه بشيء فأقعى واقعاً على فخذه فصاح قائلاً: أين نحن؟ ما هذه الرائحة الغريبة النتنة؟

تهادى إليه صوت غريب يوسف: نحن في سجن مهجور، لا يوجد هواء، أكاد أختنق.

- هل وضعني المعتصم بالله في سجن ما؟
- يضعك أنت، ولكن كيف سيضعني أنا؟! هذا والله شيء عجيب.
- ألم نكن معًا في مكان آخر وكان معنا الرصافي؟
- هذا ما تخيلته، ولكن يبدو أنه لا يوجد رصافي ولا يحزنون.
- صه إنني أسمع صوتًا، هل نستغيث؟
- انتظر فنحن لا نعرف مكاننا.
- سادت فترة صمت بينهما، وفجأة قال غريب يوسف: ما هذا؟ لقد تحسست شيئًا صلبًا!.

- ما هو؟

- هات يدك.

ناوله ابن حنبل يده فأخذها غريب ومدّها إلى موقع بجواره على الأرض فمال جسد ابن حنبل معه مطاوعة له فلمس شيئًا كأنه عصا أو نحو ذلك، تناولها ابن حنبل بقبضته وحملها وقربها من عينيه وأخذ يمعن فيها النظر، لم تستطع عيناه معرفة طبيعتها إذ كانت تبدو كشبح غائم، فأخذ يتحسسها بيده، ثم ألقى بها فرغًا.

- يا الله ما هذا؟!

استند ابن حنبل على يديه وأحنى ظهره وأخذ يتجول في المكان الضيق، تعثرت يده بعدة أشياء غريبة، فأمسك واحدة منها، فوجدها مثل الأولى، ألقى بنفسه على فخذه وهو يكتم صرخة نذت عنه.

- يا الله نحن في مقبرة.

الحياة الرابعة

زِمَكَان

الجبَّانة

أجمل ولد في قرية السعيدية وأكثرهم هدوءًا وسماحة هو نور الدين بن مصطفى الشرقاوي، وكان فوق ذلك نابغًا متفوقًا في دراسته، وصل إلى الصف الثاني الثانوي بتفوق، وأخذ يجتهد في المذاكرة حتى تقرر عين أبيه ويدخل كلية الهندسة، كان واثقًا من قدراته حافظًا للقرآن، مصليًا في المسجد، لا غبار عليه أبدًا، تفخر به مدرسة الشهيد هاشم الرفاعي، ويقول مدرسه عنه: هذا الولد باسم الله ما شاء الله عليه، تربي على طبلية أبيه فعلاً.

عندما يخرج نور الدين من بيته منفردًا أو مع أبيه كانت أمه ترقيه من العيون وشرها فقد كان أبيض الوجه أزرق العينين - مثل أبيه تمامًا - يخطف الأبصار حتى إن بنات القرية كن يشهن إعجابًا عندما يرينه.

قرة عين أبيك أنت يا نور، وقرة عين أمك، وحبيب إخوتك فانت أصغرهم وأعقلهم، جدتك فاطمة تحبك كما لم تحب أحدًا قبلك، وتعتبرك «أعز الولد» تتذكرك يوم أن ولدتك أمك وكانت هي أول من حملتك، كنت «لحمة طرية» ولكن جمالك أذهلها فأخذت تبسمل ثم قالت: نور، والله نور، الولد منور مثل البدر في ليلة تمامه.

فابتسم لها مصطفى انشرف فوي ومنازل حلاص يا أمي. سسميه
بور الدين.. ثم أخذك منها وأخذ يؤذن في أدنيتك إعلماً لئلا نلسه السوية، فصرت
نور الدين، وصارت الدنيا لا تسع أهلكت من فرحتهم بك. ومرت السنوات
سريعاً وهأنذا في الصف الثاني الثانوي، مطيعاً مهذباً خفيض الصوت،
بارعاً في ركوب الدرجات، متفوقاً في أحكام تلاوة القرآن.

ولكن لماذا تسرعت يا نور؟ لماذا لم تنتبه؟ ما الذي شغلك وقتها؟ من
الذي شخص إليه بصرك حتى إنك لم تر السيارة التي كانت آتية من ناحية
أنشاص مسرعة؟ لعنة الله على السيارات وعلى أيامها، فما إن أخذت تعبر
الطريق متجهاً من ناحية قرية بير عمارة إلى ناحية قرية السعيدية حتى
صدمتك السيارة.

تلقي مصطفى الشرقاوي الخبر من أحد أقاربه عبر هاتفه المحمول: الحق
ابنك، فهو في مستشفى بليس العام... قفز مصطفى من مكانه صارخاً:
يا نهار اسود، ما الذي حدث له؟ يا رب استر يا كريم.

هرعت إليه زوجته ثريا: خير، خير يا مصطفى، ما الذي حدث؟ تكلم.
وفي الطريق لمستشفى بليس أخذت ثريا تبكي بصوت مرتفع: يا رب
استر، يا رب يكون ابني بخير، ربنا يحميك يا نور يا حبيب قلبي

كانت الدموع تنساب من عيني مصطفى وهو يقرأ سورة يس، ويس
لما قرئت له، والسيارة التي تحمله وزوجته تنهب الأرض نهباً وكأنها تساق
الزمن، ورغم رذاذ المطر الذي كان يتساقط على زجاج السيارة التي تحملها،

والمنطبات انكثيرة النبي تعترض الشوارع وكأنها قاطع ضريق، فإب قاند
السيارة «الخال زكريا» كان أكثر منها لهفة واندفاعاً، فلم يهتم بالسيارة ولم
ينرفق بها.

قال مصطفى لخاله زكريا: على مهلك يا خال.

- اقرأ القرآن وانت ساكت يا مصطفى، ربنا يسترها.

ط (١)

حدث الخال زكريا نفسه: «علام تخشى يا مصطفى يا ابن أختي أعرفك
رقيق الحاشية مهذباً، أدرك أنك لا تخشى على نفسك، فليس هناك أغلى من
لهفتك على ابنك، تخشى على سيارتي؟! ها، ما قيمة السيارة يا ابن أختي! وما
قيمة الأشياء إذا ضاع الإنسان؟ كل شيء في الدنيا بدون الإنسان لا قيمة
له، من أجلنا نحن خلق الله الدنيا، ومن أجلنا نحن طلب منا أن نعملها،
وبدوننا لا قيمة للكعبة الشريفة، فلأن تهدم الكعبة حجراً حجراً أهون عند
الله من سفك دم إنسان مسلم، كل الأشياء في الدنيا أكرمها الله من أحلنا.
ومن أجلنا نحن، طلب الله منا أن نعبده، ولكن الناس في أزممتنا أصبحت
تحرص على الأشياء ولا تحرص على الإنسان».

وقعت ثريا على الأرض في صالة المستشفى عندما وصل لها الخبر: مات
نور الدين، كس في قاع الجمجمة وتربف بالمخ أدى إلى الوفاة، مات فور
وصوله إلى المستشفى، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

١٠٠ في وجه أهل الشرفه بخصه ور كلمه صب إلى ح

كانت صدمة مروعة لم يتحملها «فؤاد» مصطفى الكسبر، لم تقو قدماه على حمله فجلس على أرض المستشفى يبكي في صمت « أين ذهبت يا نور، لماذا تركتنا، أهو الفراق؟ لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، إنا لله وإنا إليه راجعون».

توافد الأهل والأقارب والأصحاب على المستشفى، انتحت النسوة بشريا جابتا وأخذنها خارج المستشفى بناء على تعليمات الأمن، واصطحب الرجال مصطفى للخارج ريثما ينهي أحدهم الإجراءات، وحين سمع مصطفى ولولة النساء ذهب إليهن مكشرا عن نايه: اسمعي يا حرمة انتِ وهيئه، أي واحدة منكن سترقع بالصوت فوالله وبالله وتالله، ليس لها إلا الضرب على يافوخها، الصراخ على الميت حرام، حرام عليكم.... ثم استدار بوجهه إلى الناحية الأخرى وأجهش في البكاء.

مرت أيام العزاء ومصطفى لا يشعر بشيء مما حوله، كان ذاهلاً عن الدنيا وما فيها حتى إنه لا يتذكر الأيام التي تلت الوفاة، مسحها الله من ذاكرته، وسبحان خالق الخلق وعارف النفس، إن النفس إذا حملت أكثر مما تتحمل دافعت عن نفسها وألقت ما يؤلمها خارج وعيها، أليس الله يقول ﴿لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ وعباد الله يقولون في القرآن: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ هذا هو علم النفوس، لذلك خرجت ذكريات العزاء المؤلمة والأيام التي تلتها من ذاكرة مصطفى ابن فاطمة، رغم أنها كانت أعجب أيام مرت عليه في حياته.

اعتاد مصطفى أن يذهب كل يوم إلى قبر ابنه، بل إنه كان يجلس في المقابر طول اليوم، وعلى شفا «الجبانة» كان يقرأ القرآن ويدعو لنور، ثم يأخذ في مناجاته والحديث معه، والسؤال عن أخباره. أخبرك إيه يا نور، استعجلت ليه؟ كان بدري عليك يا بني يا حبيبي... ثم سرعان ما ينخرط في العياط ويرتفع صوته بالنهنية والنشيج، وفي بعض الأحيان كان يروح في إغماءة، فلا يلبث أن يأتي خاله زكريا فيجده على حاله فيأخذ في إفاقته ويجذبه كي يقف، ثم يسنده ويذهب به إلى البيت، وكان البيت أقرب ما يكون إلى مقابر القرية.

عافت نفس مصطفى الطعام فأصبح لا يردد إلا لقيمات وثمره برتقال ويظل عليها طوال اليوم، فقط أكواب الشاي الثقيل الغامق المترع بالسكر الأبيض هي التي كان يُفْرِطُ فيها رغم أنه مصاب بمرض «السكري» عشق مصطفى السكر منذ أن كان طفلاً صغيراً يذهب إلى دكان البقالة، ويشترى من عم إبراهيم «كوز السكر الأحمر» أحياناً، وسكر النبات أحياناً أخرى، ثم يمنح نفسه في نهاية الأسبوع مكافأة كبيرة بأن يشتري علبة الملبن. وكانت الإجازات التي يأتي إليهم فيها ابن خالته «عبد الله الجوسقي» حافلة بعنب الملبن الذي يعشقه هو وعبد الله وحسين وأحمد وكل الرفاق: «وياها من أيام لن تعود أبداً، فالزمن لا يعود بنا إلى الوراء وإنما يسير بنا إلى الأمام، ليتنا نرتد إلى تلك الأيام الجميلة التي كنا لا نحمل فيها همًّا ولا غمًّا ولا مسئولية، ولكن الزمن يدفعنا دفعا إلى الأمام الذي يحمل في كل لحظة مأساة وأسى!».

وبعد وفاة نور أصبح السكر هو الشيء الحلو في حياة مصطفى والذي يخفف عنه مرارة الفراق، ورغم السكري الذي أصابه فإنه لم يعد يحفل

بالتحذيرات الطيبة «لا يقدر على الروح إلا الذي خلقها، هو وحده الذي يملك نزعها، لا مرض، ولا بشر، ولا غيرهما».

وفي غضون أيام قليلة نقص وزن مصطفى نقصاً كبيراً، وهزل جسده وغاصت وجنتاه في وجهه حتى بدتا وكأنهما حفرتان كبيرتان في أرض مستوية، فعل به السكر الأفاعيل، وحطمه الحزن، حتى إنه كاد أن يدخل في كثير من الأحيان في غيبوبة السكر ولكن الله كان يُسَلِّم في كل مرة.

بعد وفاة نور هجر مصطفى عمله في المجلس المحلي بمدينة بلبليس، كان مصطفى موظفاً كبيراً له مكانته وتأثيره، فمنذ أن تخرج في كلية التجارة وهو يعمل بالمجلس المحلي، وأخذ يتدرج في المواقع الوظيفية حتى أصبح أحد الموظفين الكبار، ولكنه كان يتميز عن جميع أقرانه بحب جميع العاملين إياه لطيبته المفرطة وكرمه الكبير، وحين وصل إلى الخامسة والخمسين من عمره احتفل به كل الموظفين في المجلس المحلي، جمعوا مالا واشتروا فطيرة الشيكولاتة بالفراولة، ودخلوا عليه في مكتبه وهم ينشدون الأغنية المصرية «هنوا أبو الفصاد، حيث عيد ميلاده الليلة أجمل الأعياد» فوجئ مصطفى والتف حوله الجمع يأكلون من الفطيرة ويشربون «الحاجة الساقعة» ويحكون النكات فيضحكون وكان هموم الدنيا لم تقرب منهم أبداً.

ولكن قلب مصطفى وقتها كان يستشعر شيئاً ما، همس لنفسه وكأنه يخفي صوته عن ذاته: «هذه أول مرة يحتفل فيها أحد بيوم ميلادي، أتوجس شراً من أشياء قد تحدث في الأيام المقبلة، ما هذا الشيء؟ ولماذا أتوجس؟!»

هل بفتحت التوجس عندما نفرح ! ياله من شاعر ذلك الذي قال: إن
الفرح أمرٌ عارضٌ في رحلة المِضْرِي عَبْرَ العُمر! والأفراح في مِضْرٍ
اعْتداءت على نُظْم الحَيَاة. أفلهذا توجست شراً؟».

وبعد يوم واحد من هذا الاحتفال صدق حدس الشاعر وتوجس
مصطفى، فقد مات نور.

ظل مصطفى على حاله وترحاله إلى قبر ابنه نور كل يوم، حيث يقضي
هناك معظم النهار وجزءاً من الليل، يقرأ القرآن ويناجي الحبيب الذي غاب،
ثم يحمل معه أحزان الدنيا، ويعود قافلاً إلى بيته وهو يحدث نفسه ويناجي
ابنه: «آه يا نور، غبت عني فغربت الدنيا، لم يعد فيها شيء يبهج، كل الأشياء
تساوى بعدك، الحلو كالمر، أصبحت أتوق للحظة التي سأذهب فيها إليك،
متى أخرج من هذا الزمن ومن هذا المكان لأذهب إليك في ذلك المكان الذي
أنت فيه من ملكوت الله؟».

وحين يدخل إلى بيته يجد زوجته ثريا جالسة متكومة على نفسها وكأنها
تبحث عن صغيرها نور لتحتضنه، فيجلس على الأرض صامتاً ودموعه
تحكي حاله، وذات مرة قال لها: «هل تعرفين يا ثريا ما هو أثقل شيء في
الوجود؟».

تعجبت من السؤال، هل هذا وقته يا مصطفى؟! إلا أنها أجابت باستفهام:

الحديد؟

فلم يرد... عادت لتقول: الجبال؟

فلم يرد... حسمت أمرها وقالت: فهمت، الهموم هي أثقل شيء في الوجود.

نظر لها نظرة فاحصة وكأنه يستجلب ما في داخلها، ثم قال وهو يحدود برأسه إلى الأمام: لا، ليس الحديد أو الجبال أو الهموم، أثقل شيء في الوجود يا ثريا هو نعش الابن حينما يحمله الأب، هذا النعش لم يكن ثقيلاً على كتفي، ولكنه كان ثقيلاً شديد الوطأة على قلبي حتى إنني انحنيت بعد أن أودعته القبر، انحنيت يا ثريا؛ لانحناء قلبي، انساق الجسد للقلب وما فيه، فتكومت بجوار القبر، لم أستطع أن أصلب طولي، وقتها لم أدر ما بي! ظن الناس أنني أصبت بوجع في ظهري، ولم يدر أحد أن وجع القلوب لا يضاهيه وجع، يستطيع الناس يا ثريا أن يروني وأنا أبكي ولكن أحداً لن يشعر بوجعي أبداً.

- وجعي أكبر من وجعك يا مصطفى، فنور هو قطعة مني، نور عيني، جلاء همي وحزني، ومن غيره أصبحت الدنيا سوداء من حولي.

تصمت ثريا لتفسح المجال لعيونها كي تذرف ما شاء لها من الدموع، ثم تمسك مصحفها وتقرأ وترحم على ضناها وفلذة كبدها، ومصطفى يجلس صامتاً سارحاً في ملكوت الله، وقبل أن تضع جنبها على الفراش أمسكت كتاباً وأخذت تقرأ منه قصيدة «قلب الأم» لأبي القاسم الشابي، كانت هذه القصيدة هي سلوتها ورفيقتها، تبدأ بالأبيات الأولى:

يا أيها الطفل الذي قد كان كاللحن الجميل
والوردة البيضاء، تعبق في غيابات الأصيل

يا أيها الطفل الذي قد كان في هذا الوجود
فرحاً... يناجى فتنة الدنيا بمعسول النشيد
هأنذا... قد أَطَيْقَتْ جفنيك أحلام المنون

وما إن تصل إلى البيت الذي يقول فيه الشابي:

كلُّ نسوك ولم يعودوا يذكرونك في الحياة
والدهر يدفن في ظلام الموت حتى الذكريات

حتى تأخذ عبراتها في الانسياب، فإذا وصلت إلى البيت الحاسم:

إلا فؤاداً.. ظل يخفق في الوجود إلى لقاءك
ويود لو بذل الحياة إلى المنية وافتدك
هو قلب أمك... أمك السكرى بأحزان الوجود

حتى تجهش بالبكاء فيخطف منها مصطفى الكتاب ويأخذ في النهنهة،
ثم يسعى إلى تمالك جأشه، ويأخذ في تصبيرها فيروي لها رؤيا رآها لنور:
«صلي على حبيبك النبي، شفت في الرؤيا نور وهو يضحك، كان جميلاً وبيئاً
وكأنه في ليلة عرسه..» ويظل يحكي حتى تذهب ثريا في النوم فيركن إلى
الأرض ويضع جنبه عليها: «كما أن ابني ينام على الأرض فجسدي محرم على
الفراش، في الأرض مثلك يا نور، في الأرض مثلك يا نور».

في هذه الليلة بالذات ناوبته رؤيا غريبة، حيث رأى في المنام رجلاً غريباً
رَبِيعَةً، أبيض الوجه مشرباً بحمرة، له لحية غريبة ذات لون بني، أخذ يشد
ذراعه ويقول له: اذهب إلى نور. فيرد مصطفى عليه: أذهب إليه في أي
مكان؟ أين هو؟

فيرد عليه بنفس الكلمة: اذهب إلى نور.

قام مصطفى فزعًا ثم استعاذ بالله من الشيطان الرجيم، وعاد إلى نومه مرة أخرى، فإذا بالرؤيا تتكرر بحذافيرها، فيصحو مصطفى فزعًا، ويستعيد، ثم يعود للنوم، فتكرر الرؤيا، فيقوم مسرعًا وقد عزم على أن يرتدي جلبابه ويذهب إلى القبر في هذا الجو البارد، وفي شتاء يناير.

أغلق مصطفى باب الدار خلفه برفق حتى لا يشعر به أحد: «لا بد أن شيئًا ما قد حدث في القبر، يارب استر، هل هناك من ينش القبور» اقترب مصطفى من المقابر وهو يحمل بطارية الإضاءة، ذهب أول ما ذهب إلى قبر نور فلم يجد شيئًا، جلس قليلاً يتسمع لأي صوت، فلم يشعر بشيء غريب، قرأ الفاتحة لنور وأخذ يترحم عليه ثم استقر رأيه على أن يظل جالسًا في المكان إلى أن يؤذن للفجر، ولكن عواء الذئاب الآتي من بعيد أخافه فهم بالوقوف للانصراف، ولكنه حينئذ سمع صوتًا مكتومًا، أخذ يتعقب هذا الصوت حتى وجده خارجًا من أحد القبور: «يا لهو بالي يا جدعان، ما هذا؟! أتراهم لصوص القبور يسرقون الأمانات⁽¹⁾، أم أن حيًا تم دفنه بالخطأ على أنه مات ثم دبت فيه الحياة من جديد؟! يحدث هذا أحيانًا!».

اقترب مصطفى من مصدر الصوت: «إنهما رجلان يتحدثان، إذن هما من لصوص القبور، خاصة أننا لم ندفن أحدًا في البلد منذ يومين».

كان الصوت يصدر من أحد قبور «آل يوسف» عائلة أمه فاطمة، بحث مصطفى في المكان عن عصا غليظة فوجد «سعفة» نخلة فحملها وهو

(1) في الريف والأحياء الشعبية يطلقون على جثة الميت «الأمانة».

يترقب، أرهف السمع للأصوات الصادرة من القبر، يا سبحان الله، أحدهما يتحدث بلغة عربية فصيحة، والثاني يتحدث بلكنة أهل الشرقية ولكن على أصولها، ولكنَّ هناك شيئًا غريبًا! كيف دخل اللسان هذا القبر وهو مغلق من الخارج بالحجر الكبير وردد الطين يعلو الحجر؟! لا توجد أي آثار لمحاولة فتح القبر: «يا لطيف اللطف يا رب، يا عزيز، يا عزيز، يا عزيز، هذا جن لا شك في ذلك، لقد شاهدت الشيخ مرتضى وهو يُخرج جنيًا من جسد فتحي الساقع ابن خال أُمِّي، حين تلا عليه القرآن وأذَّن في أذنه، انتصب جسد فتحي وتصلب، وتمسح صوته واخشوشن، ثم أخذ الشيخ مرتضى يتوعد الجنِّي ويهدده حتى أخرجه من جسد فتحي الذي كان يرتعد على تصلبه، يجب أن أنصرف حالًا حتى لا يتلبسني الجنِّي، ولعلها قبيلة من الجان الأحمر، تبقى سنة سوخا⁽¹⁾ يا ولاد».

فر مصطفى هاربا من الجبَّانة ولم يعقب والأصوات من خلفه تطارده.



تحدث الأشياء حين نؤمن أنها ستحدث، ويد الله لا تُرفع عنا ولكن الناس لا يتبهنون، والله سبحانه يقطع على أهله وخاصته اليأس ويفني فيهم فكرة المستحيل ويربطهم بحبل نوراني فيكفيهم الخلق والكيف والتدبير.



(1) سوخا: ينطقها أهل الريف هكذا وهي فصيحة ومعناها الانغماس في الطين، وساخت به أيضًا تعني: خسفت به، وساخت قوائم الدابة أي غاصت في الأرض.

قبل أن يدير مصطفى مفتاحه في باب الدار فتحت له ثريا، استقبلته بلهفة:
أين كنت يا مصطفى؟ رحلت للجبانة في هذه الساعة؟!!

- شفت حلم يا ثريا خلاني أجري على الجبانة.

- خير يا مصطفى؟ اللهم اجعله خيرًا.

- واحد غريب جاء لي في المنام وقال لي: اذهب لنور.

- أضغاث أحلام يا مصطفى.

- قلت ذلك لنفسي واستعدت بالله من الشيطان الرجيم، فشفت الحلم

مرة ثانية، فاستعدت ونمت، فشفته مرة ثالثة، فقلت لأ، الحكاية فيها إننا⁽¹⁾
وعليها خرجت مسرعًا للجبانة.

- وماذا رأيت يا مصطفى؟

- لا عليك، لم أر شيئًا.

- ورحمة نور قل لي.

(1) الحكاية فيها إننا: لها أصل، ففي زمن هارون الرشيد غضب على البرامكة فقتل كثيرًا منهم وهرب منهم رجل يقال له «موسى البرمكي» فأراد هارون أن يمتاح عليه ليعود، فغضب على زوجته التي لم تفسر معه أن تكتب له خطابًا تخبره فيه أن هارون تصالح مع البرامكة وعفا عنهم، فقالت لهارون: لن يصدق إلا إذا أرسلت له مع الخطاب هدية، فوافق هارون، فأرسلت الزوجة الخطاب ومعه سجادة مطرزة ومكتوب فيها حرف «إن» فما لبث أن رد موسى البرمكي الخطاب والسجادة رافضًا أن يعود، فقام هارون بعرض السجادة على وزيره قائلًا له: أترى ما الذي حدث؟ قال الوزير: الله أعلم. فقال هارون: الحكاية فيها إننا، ومعنى ذلك أن هارون فهم حرف «إن» الأول على أنه رسالة تحذير من الزوجة بالقرآن، إذ إنها تقصد الآية الكريمة «يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك» فرد عليها وقد وضع حرف ألف بجوار التون فأصبحت «إننا» ومعناها الآية الكريمة «إننا لن ندخلها أبدًا ما داموا فيها». ومن وقتها صارت «الحكاية فيها إننا» مثلًا.

- ما أُرِ شَبِينَا وَنَكْنِي سَمَعْتَ .

- ما الذي سمعته؟

- أصواتًا غريبة تخرج من مقبرة من مقابر أهل أمي .

- صوت عرسة يعني؟

- لا أصوات ناس .

- قل لي يا مصطفى ما الحكاية؟ أبوس رأسك .

فروى لها مصطفى ما سمعه وما جال بخاطره، فأحضرت المصحف وأجلست زوجها المضطرب على الفراش وأخذت تقرأ له سورة الصافات، وأتبعها بسورة الجن، وحين انتهت قال مصطفى: ما رأيك، قد يكون من في القبر إنسيًا، وقد يكون قد شارف الهلاك .

- كيف هذا؟ القبر مغلق من الخارج .

- حدث مثل هذا في مقابر مشتول السوق، حيث قام بعض «أولاد الليل» بالتعدي بالضرب والتعذيب على واحد كانت له خصومة مع عمدة من تلك النواحي، ثم دفنوه في مقبرة قديمة وأغلقوها عليه، وهرعوا إلى العمدة بالبشرى وطبعًا أخذوا منه الإكرامية و«الإتاوة» .

- يا دين محمد، مُمكن أولاد الليل يعملوها في بلدنا يا مصطفى؟!

- ممكن وألف ممكن، نحن في أيام سوداء يا ثريا، الأمن ضاع، واللصوص في كل مكان، وقطاع الطرق في أوج شيطنتهم، والحكومة تغط في الشخير، كانت ثورة عمياء يا ثريا، منه الله مبارك الذي ترك الحبل على الغارب لابنه

وزوجته ورجال الأعمال فأفسدوا وضيعوا البلد، هو السبب ربنا ينتقم منه، ومع ذلك فبعد الثورة أصبحت الأحوال «زفت وقطران»، قطعنا الرجاء من الجميع، الإخوان ظهروا على حقيقتهم السوداء، والمعارضة قليلة الخيلة فاقدة القدرة على التأثير في الناس.

- المهم يا مصطفى، ماذا ستفعل في هذه الحوسة؟

- أي حوسة؟!

- حوسة الناس المدفونين في الجبّانة.

سكت مصطفى قليلاً ثم قال: سأذهب للعمدة وأحكي له ما حدث، وهو يتصرف.

- وهل سيصحو لك العمدة في هذه الساعة!

- أذهب لخالي زكريا.

- خالك زكريا مسافر في مأمورية تبع شغله.

- ننام والصبح رباح يا ثريا.

- حرام علينا يا مصطفى، لأجل النبي، وحياة عظم الثّربة، قم وسأذهب معك.

- تذهبين معي!! يا داهية دُقي، هذا هو الذي ينقصنا.

سادت بينهما فترة صمت طويلة ثم قطعها مصطفى قائلاً: سأذهب وحدي وأتكلم مع من في المقبرة لأعرف الحكاية أولاً.

جرت ثريا على المطبخ ثم عادت وهي تحمل سكينًا.



ضع هذا السكين يا مصطفى في طيات ملابسك حماية لك، واحمل هذا
النبوت، الاحتياط واجب، وإذا وجدت أحدًا من الخفراء في طريقك فخذ
معك، وسيسترنا الله بفضله.

اقرب مصطفى من الجبانة ثم أخذ يسير بحذر، وحين وقف أمام القبر
المقصود سمع صوتًا يقول: لا يوجد هواء، أكاد أختنق.
جاءه صوت آخر: هذا الحجر ثقيل ليس لنا حيلة في دفعه، تذكر صالح
أفعالك حتى يجعل الله لنا فرجًا.

عاد الصوت الأول يقول: لولا هذا الهواء القليل الذي يتسرب إلينا
خلصة من الثقب الصغير الذي في جانب المقبرة لهلكنا.

«ناسر في و: طة، صدة، حنة، ي، ين، أن أو ذ د الليل قاموا بدفهم
في هذا القبر»؛ هكذا قال مصطفى لنفسه ثم صاح: بسم الله الرحمن الرحيم،
من أنتم؟

جاءه صوت مكتوم وكأنه صادر من فج عميق: افتح لنا هذا المكان، أنا
أحد العمدة من مديرية الشرقية ولا أعرف من الذي وضعنا هنا.
تعجب مصطفى: مديرية؟! الشرقية محافظة يا عم الحاج.

- اعمل معروف وافتح لنا سريعًا.

حاول مصطفى أن يحرك الحجر الذي يسد فوهة القبر ولكنه لم يستطع،
فخرج من الجبانة مسرعًا وأخذ ينظر حوالیه، وحين مد بصره للأمام وجد
شخصًا يفلح أرضًا ويمهد طريقًا للسقاية: «هذه أرض الفرارجة، وهذا في

الغالب فايز فرّاج، فلأذهب إليه... هكذا قال مصطفى لنفسه وهو يعدو، وفي لمح البصر كان قد أصبح في نصف الأرض قريبًا من فايز، جاءه صوت فايز يعرفه الفزع: من أنت؟!

وقبل أن يجيب مصطفى كان فايز قد رفع فأسه مهددًا بها.

توقف مصطفى ملتقطًا أنفاسه ثم قال: اطمئن، أنا مصطفى الشرقاوي يا فايز.

- خير يا مصطفى، ما الذي حدث؟!

- هات فأسك وتعال معي بسرعة.

- خير، قل لي ماذا حدث يا بن خالتي.

- سر معي فورًا وسأحكى لك في الطريق.



وأمام القبر أخذ فايز بقوة ساعديه وبفأسه يضرب الحَجْر الذي في الفوهة حتى شقه، ثم حمل هو ومصطفى الشقين ووضعاهما جانبًا، نظر فايز إلى باب المقبرة الداخلي المبني بالطوب الأحمر، ما زالت المهمة لم تنته بعد، ثم ما لبث أن قال: ابعِد يا عم الحاج انت وهو، كل واحد منكما يأخذ جانبًا من القبر لأنني سأحطم باب المقبرة الداخلي.

كانت عملية صعبة لا شك في ذلك، إذ إن فايز ومصطفى كانا يسارعان الزمن لإنقاذ من في المقبرة، والغبار المتراكم من عملية هدم الباب الداخلي

أثار سعالًا متواصلًا من أهل المقبرة، حتى كاد أن يقضي على البقية الباقية عندهما من قنديل الحياة.

دخل مصطفى وفايز إلى المقبرة فوجدا رجلين منكفئتين، كانت النحافة هي العنوان الرئيسي لهذين الجسدين المنكفئتين فحمل كل واحد منهما جسدًا، وسحباهما إلى الحياة الدنيا التي هي خارج هذه الظلمة، لم يستطع الرجلان السير، انحنى ظهراهما، وتقوعا، واثنيا، كانت الأتربة تعلوهما، والدماء تلوث جسديهما، وهما بلا ملابس تقريبًا، كان ابن حنبل بالحالة التي أخذه منها الرصافي، عاري الصدر، وعلى نصفه الأسفل سروال يستر عورته، وكذا كان غريب يوسف، عاري الصدر لا يرتدي إلا إزار الحج الذي يغطي من سرتة إلى ما بعد ركبتيه، وقد تحول لونه من الأبيض الناصع إلى لون أسود مختلط بحمرة داكنة من أثر التراب الذي علق عليه والدماء التي لحقت به.

جلس الرجلان القرفصاء ثم سرعان ما مال جنب أحدهما فتوسد الأرض يلوذ بها «من التراب جئنا وإلى التراب نعود، أما أرواحنا فهي إلى النور».

وريشما أخذ كل واحد منهما نفسًا عميقًا عدة مرات - وكأنهما يستعيدان الحياة التي كانت على وشك أن تنطفئ ذُبالتها - كان فايز قد أحضر لهما قئلة ماء، أخذ يلقي بعض ما فيها على وجهيهما، ثم وضع حفنة من الماء في كفه العريضة ليستقي الرجلين، وما إن هدأت الأنفاس حتى أخذ مصطفى بمعن النظر في تلك الوجوه التي عادت للحياة من جديد، أحدهما كان شديد النحافة أسمر البشرة له لحية مخضبة بالحناء، يبدو عليه الإرهاق

الشديد، والثاني يميل وجهه إلى البياض إلا أن الشمس لوحته، وليست له لحية كالآخر، ويبدو من هيئته أنه أكثر عزاً من الآخر: «كأنه من أولاد آل يوسف، شكله يدل على هذا» قالها مصطفى لنفسه.

تكوم الرجل الأسمر النحيف على الأرض متأوهاً دون أن يصدر منه أنين، وحين نظر مصطفى إلى ظهره وجد جروحاً عرضية تعلوها دماء جفت: يا ربي ما هذا؟ ما الذي أصابك يا عم الحاج؟ منهم الله أولاد الليل الذين فعلوا فيك هذا.

لم يستطع الرجل الرد، فأجاب الثاني: نحن لا نقهم شيئاً، ولا نعرف هذا المكان مع أنني يخيل إليّ أنني رأيته من قبل، خذنا إلى مكان يؤوينا ويحمينا أبارك الله.

تقدم فايز إلى الرجل الأبيض الحليق وأوقفه على قدميه ثم أخذ يسنده محيطاً بإبطيه وتحرك به، وفعل مصطفى مثله مع الرجل الأسمر النحيف وهو يقول: أين نذهب بهما يا فايز، هل نذهب بهما للعمدة؟

- نعرف الحكاية الأول يا مصطفى ثم نسلمهما للعمدة، هيا بنا إلى بيتي.

- الأحسن أن نذهب لبيتي يا فايز فهو أقرب من بيتك.

لم تكن المسافة بعيدة وكان الرجل الأسمر صاحب اللحية لا يكاد يرى شيئاً من فرط ما تعرض له، كانت الموجودات التي تحيط به تبدو كأشباح هائمة تبحث عن أجساد تسكنها، ولكن نفس هذه الموجودات بدت غريبة أمام عين الرجل الأبيض حليق اللحية: «البيوت الصغيرة الهشة التي وقع

عليها نظري لم تكن طينية سوداء، ولكنها كانت مبنية بالطوب الأحمر الذي لم تعرف قرانا مثله إلا في بيوت وقصور الباشوات، يبدو أن هذه القرية آخذة في العمران على غير عادة القرى الأخرى».

كان باب الدار مفتوحًا، ولج مصطفى أولاً وضيغه يتساند عليه، ودخل وراءهما فايز بحمولته البشرية المتكئة عليه وهو يقول: يا ساتر.

هرعت ثريا إليهم وهي ترتدي حجابها: خير يا مصطفى، يا رب يكون خيرًا.

بادرها مصطفى: أحضري لنا ماء وطعاما، الناس مهلوكة، ولا تنسي مطهرات الجروح والمراهم.... ثم دخل بهما إلى حجرة نور، تلك الحجرة التي لم يدخلها أحد منذ وفاة هذا الحبيب.

لم ينبس أحدٌ من الرجلين ببنت شفة واسترخى كل واحد منهما على الأرض ومصطفى يطوي جراحهما خلف المطهرات والميكروكروم، والمراهم، والشاش الأبيض المعقم، كانت جروح الرجل الأسمر كثيرة وبالغة القسوة، أما الرجل الأبيض فقد كان بكفيه وساعديه وساقيه عدة تسلخات وجروح طفيفة تخلفت من وراء محاولته فتح القبر من الداخل: «وكأنهما أهل الكهف خرجوا إلى الدنيا من كهفهم المظلم لا يدرون شيئًا عن تلك الدنيا الجديدة، وجوههم غريبة، ولكنتهما مختلفه، كأن هذا أتى من زمن والآخر أتى من زمن آخر».

أخذ مصطفى وفايز يوجهان الأسئلة لهما وهما لا يجيران جوابًا، الرجل

الأسمر ينظر إلى سقف الحجرة والذهول قد اعتراه، والرجل الآخر كان ساهماً شاردًا، وبينما هم على هذه الحالة سمعوا صوت أذان الفجر، فهم فايز بالانصراف ليلحق الصلاة بالمسجد، وقبل أن يغادر قال له مصطفى: نريد أن نذهب للجبانة حتى نسد فوهة القبر، فأنبأ فايز بأنه سيذهب مع ابنه بعد الصلاة ويقومان بالواجب، وأوصاه بالاهتمام بهذين الرجلين الطيبين.

أيقظ مصطفى ابنه محمودًا وابنته نرجس وطلب منهما الاستعداد للصلاة، ثم عاد للرجلين فأعطى كل واحد منهما جلاببًا من جلاببيه سائلًا: لن أستطيع أن أذهب بكما للمسجد وأنتما على هذه الحالة من التعب، فهل نصلي هنا؟ قال الرجل الأسمر صاحب اللحية وهو يتشرنق في ذهوله: ما هذا الصوت الضخم المتحشج المفرع الذي وصل إلينا؟ كيف وصل إلينا بهذه القوة والضخامة.

رد مصطفى: أي صوت؟

- صوت الأذان.

زم مصطفى شفتيه وقال: من الميكروفون يا عم الحاج.

- كنت أظنه آتيا من المسجد، ولكن ما الميكروفون؟

- الصوت آتٍ من المسجد يا حاج ولكن من خلال ميكروفون.

تدخل غريب يوسف قائلًا: الميكروفون هو مكبر للصوت يا إمام، نتكلم

أمامه فتصل له أصواتنا فتخرج منه ضخمة تصل إلى أماكن بعيدة.

- سبحان الله ! ويخلق ما لا تعلمون.

أصابته الدهشة مصطفى وقال لغريب يوسف: هل عم الحاج إمام من أئمة البدو الرحل ، هل جاء من صحراء بعيدة ليست فيها مدينة؟! قاطعه الإمام: ما علينا، أحضر لنا الماء حتى نتوضأ للصلاة.

- إذا كنت تستطيع القيام الآن فقم معي إلى دورة المياه.

نظر الإمام لغريب وكأنه يستفسر منه، ولكن غريبًا قام من قعدته وهو يتكى على الأثاث وتقدم خلف مصطفى فقام ابن حنبل يتبعهما وهو يغالب ضعفه ونفاد قوته، وفي صالة البيت وقف غريب مرتعدًا، وصرخ ابن حنبل: يا رب سلم سلم، يا رب احفظنا من الجان... ثم شهق شهقة قوية مصحوبة بصرخة مكتومة ووقع على الأرض.



الداهية

بزغ نجم الشيخ الداعية عيسى بن عبد الله قبل أن يستقيم عوده، وفي الحقيقة أن عوده لم يستقم حتى الآن بالرغم من السنوات التي قضاها في الدعوة، ورغم أن أصحابه يشهدون له بطلاقة اللسان وقوة الحافظة فإنه لم ينل حظًا معتبرًا من العلم.

ولدت أمه في قرية روينة مركز كفر الشيخ لأب فقير كان يعمل خادماً للمسجد الصغير دائماً، ومساعدًا للمأذون «الشيخ فهمي» في أحيان كثيرة،

وكان عم الشيخ رمضان الكحلوت يسترزق بنا بمجود عليه الخيرون في الأفراح، فضلاً عن المقطوعية التي حددها له أهل البلد نظير خدمته للمسجد، ورغم الفقر الذي كان يرتع فيه فقد فرح فرحاً شديداً بمولد ابنه، إذ كان قد قطع الأمل في الخلفة بعد أن تزوج مرة ففشل في الإنجاب، ثم طلق الزوجة العاقر وتزوج من قرية «حليس» واحدة من بنات عائلة «السعدوني» المشهورة بكثرة الخلفة، ورغم ذلك تأخرت زوجته «أم الفرج» في الإنجاب حتى كافأها الله على صبرهما فرزقهما الولد الوحيد، الذي تأخر نزوله إلى الدنيا أسبوعين كاملين فوق موعد الولادة المعتاد.

تأخر رمضان في تسمية الولد أسبوعاً كاملاً، كأنها قدره أن يكون متأخرًا في كل شيء، ولم يكن أحد يعلم أن هذا الوليد سيثأر من الدنيا التي ساومته الفقر والحرمان والتأخر، وسينال قصب السبق على جيله، ليس في القرية فقط، ولكن في كل مصر، بل وفي بلاد أخرى مجاورة.

وفي «السبوع» ذبح رمضان الكحلوت جدياً مهزولاً كان قد ادخره لهذا اليوم وأولم عليه للمرة الأولى والأخيرة في حياته، وأحضر مطاهراً مشهوراً من كفر الشيخ ليتم فرحهم ويعطي للمولود شهادة الاعتماد والجودة، بأن يقطع الجلدة الزائدة في عضو الذكورة حتى يصح من بعدها تسميته بأسماء الرجال، كان الاسم مائلاً في ذهن رمضان، فقد كان هذا المولود عطية من عند الله: «فليكن عطية وليباركه الله لنا، وعلينا أن نقبل أيدينا على الناحيتين شكرًا وحمدًا لله على نعمته وفضله وجوده، إنه نعم المولى ونعم النصير».

حين استطاع الطفل عطية المشي اكتسب وضعًا جديدًا في البلد إذ أصبحوا يطلقون عليه «داير الناحية» وسبب هذه التسمية أنه كان يدور في القرية كلها، يدخل بيوتها دون استئذان ويحبو على الموائد، ويهجم على أماكن الطعام، دون أن يحفل بأحد ولكنه كان يتلقى في كل بيت ضربًا مؤلمًا إما بالعصا وإما بكف اليد على وجهه، ومع ذلك كان يستمر، فليس في إمكان أحد أن يقف أمامه.

حين بلغ الخامسة من عمره أطلقوا عليه لقب «لحوس» الذي لم يفارقه أبدًا، ولحوس هو الذي يأكل على كل الموائد بعد أن يفرغ القوم من طعامهم فيلحس بلسانه أطباق الطعام، وبذلك وفر عطية لأبيه مؤنة طعامه، وكغيره من الصغار دخل «لحوس» كتاب الشيخ الجوهري ولسرعه في الحفظ والتقليد حفظ عن ظهر قلب، بأحكام التجويد، ثلاثة أجزاء من القرآن في ثلاثة أشهر، ولكنه بعدها انقطع عن الكتاب لعجز أبيه عن دفع مستحقات الشيخ.

كان عطية مقلدًا وممثلًا من الطراز الأول، فمنذ نعومة أظفاره كان يجمع رفاق القرية ويأخذ في تقليد خطيب مسجد القرية، فيثير حالة من الضحك والبهجة، وينال شهرة بين الصغار تجعله محط أنظارهم، وكان من عادته أن يتسلل إلى سرادقات العزاء ليشاهد القارئ وهو يجود القرآن الكريم، فيحفظ حركاته، ويراقب سكناته، ثم يأتي إلى رفاقه في اليوم التالي متصنغًا الوقار ثم يجلس بطريقة قراء القرآن ويضع كفيه على أذنيه ويأخذ في القراءة وهو يهز جسده مقلدًا إياهم، وكانت هذه هي الموهبة التي ميزته بين الصغار وأكسبته شعبية.

ومع ذلك فإن مسهنة في التعليم النظامي لم تكن بسيطة، بل عانى فيها معاناة شديدة لم تكن معداته من مدرسين، أو حتى نفقات التعليم، فقد كان مطيعاً للمدرسيه وكان التعليم محائثاً. ولكن معاناة عطية تمثلت في هذا الاحتقار الذي كان يناله من أطفال عائلة «الحسلي» وهي من أكبر عائلات القرية.

كلنا يظن أن مجتمع الأطفال هو مجتمع الأبرياء، ولكن الأصح هو أنه مجتمع «المشاعر النيئة» التي لم تنضج بعد، لا حدود للملكية الخاصة، فسوة في غير محلها، خوف متعدد الأبعاد متصخم تصاحبه الخيالات، تهور واندفاع، كل شيء مباح، وليس هناك مكان للإحجام والتبصر إلا خوفاً من الكبار وتهديداتهم، ولأن عطية كان مشهوراً بلقب «لحوس» فقد كان يتلقى كل يوم «زفة» وجُرسة من أترانه إذ كانوا يسبرون خلفه في المسحة أو في آخر اليوم الدراسي ويصيحون بنغمت ممطوطة «لحوس، لحوس، ينشك قلبه بدبوس» ولم تكن شهرته في التقليد والتمثيل لتشفع له، لذلك كان لا يلبث أن يتقم منهم، إذ كان يقسم لهم أنه لن يجلس معهم أبداً ليمثل أو يقلد المشايخ، ثم يقوم جلسة بالسطو على حقائبهم ويستخرج منها «السندوتشات» يلتهم بعضها ويلقي البعض الآخر في القناء الخلفي للمدرسة، وكان كثيراً ما يجتلس منهم كراسات الواجبات فيمزقها، أو أدواتهم فيخترنها لنفسه، فإذا تم كشف الأمر سبق إلى ناظر المدرسة فينال عقاباً أليماً يترك بصماته على ظهر كفيه أياماً طويلة، وعطية لا يترك ثاره أبداً، فقد خلقه الله ضخم الجثة وتكفل هو بحشو هذا الجسد حتى انتفخ وصار ثلاثة أطفال في طفل واحد، فإذا ما

تعرض لعقاب بسبب شكوى من أحدهم فإنه كان ينتظره على باب المدرسة ويشخنه بالضرب والجراح، ولم يكن أحد من تلاميذ المدرسة يستطيع الوقوف في مواجهته إلا عبد الباقي سليل عائلة الحنبلي، فقد كان يناظره في الضخامة ويتفوق عليه في القوة، لذلك كان عطية كثيرًا ما يعمد إلى مداهنته اتقاء لقوته وضرباته المؤلمة.

اجتاز عطية المدرسة الإعدادية بتفوق واضح إلا أنه لم يدخل إلى التعليم الثانوي العام، وإنما دخل وفقًا لأوامر أبيه الصارمة مدرسة التجارة المتوسطة في كفر الشيخ ليختصر تعليمه ويساعد أباه الذي كان قد توقف عن عمله كخادم للمسجد بسبب تقدمه في السن وتغلب الأمراض على جسده الضعيف.

لم يكن لعطية أي صديق إلا إبراهيم حجازي ابن مركز سيدي سالم الشهير بـ«برهومة»، تعرف عليه في مسجد الرحمن بكفر الشيخ وربط الفقر والحاجة بينهما، ومن خلال برهومة تعرف عطية على طريقين متناقضين، طريق المساجد وطريق النساء! والحق أن مسجد الرحمن كان يعطي عطية مكانة ومقامًا، كان يشعر باعتباره كإنسان وهو يقف خلف الإمام الشهير الشيخ «راضي سلطان» أحد أشهر شيوخ الدعوة السلفية في كفر الشيخ، وكان يرفع قامته إلى السماء السابعة حينما تنتهي الصلاة فيبادر إلى تقديم يده للشيخ مسلمًا عليه، ومع دأبه على الحضور أصبح مقربًا من الشيخ يقضي له حوائجه ويصطحبه في مشاويره للقري التي يلقي بمساجدها دروسه، يبالغ في تعظيمه أمام الناس وينكب على يديه مُقبلاً إياها حين يقبل عليه، وفوق

زِمَكَان

هذا وذاك كان يقوم بخدمته أيام الاعتكاف في المسجد في العشر الأواخر من رمضان، فيسير له كل ما يريد، وينظف له دورة المياه الخاصة به في المسجد.

وخارج نطاق المسجد كانت الغزوات الغرامية لعطية وبرهومة، ولربما كانت شهوانية عطية بادية في طريقته في ازدراد الطعام، فهو أكل يقلب الطعام في جوفه دون أن يُحسّن تذوقه كأنه لن يأكل مرة ثانية في حياته، أما برهومة فقد كان أكيلاً يتذوق الطعام أولاً ويستطيعه ثم يمخر في عبابه، وبنفس الطريقة كانا يتعاملان مع النساء، لم يكن لديهما وقت يضيعانه على الحب والمشاعر الرومانسية، لذلك لم يسلكا هذا الطريق أبداً، طريقتهما المفضلة هي الفاعلية والسرية والإنجاز، فيذهبان مرة كل أسبوعين إلى الإسكندرية، ومن شارع محمد كريم بالمنشية كانا يتجهان إلى بيت زغلولة، وهي امرأة قوادة، فكانت توفر لهما ما يريدان، حيث يحرص برهومة على انتقاء الفتاة التي سيقضي منها وطره، ولكن الانتقاء لم يكن سبيل عطية، إذ أي امرأة والسلام تصلح للمهمة، لذلك كان برهومة يدفع أكثر من عطية ليستمتع، وعطية يقضي مهمته ولو مع امرأة لا يمكن أن يقترب منها رجل، ولكنه على أي حال سيوفر من نقوده.

كان منطقتها واحداً، نحن نعبد الله طول الشهر، ونعصاه مرتين في الشهر، هذه قسمة عادلة، لن يغضب الله من هذه المعصية التي لا نقترف غيرها، حتى ولو كانت من الكبائر، فإن الحسنات يذهبن السيئات، ومع ذلك كان ضمير عطية يؤنبه، وخوفه من النار يؤلمه، وكان الخوف يصل معه مداه بعد دروس الشيخ المشتهري التي تروي واقع النار ومن يدخلها، فيأخذ عطية في البكاء

على ما افترفت يدها، ولكن كان هناك من يدهد ضميره، الشيخ حسن خادم المسجد، فحينها رأى عطية يباليغ في البكاء همس في أذنه: هوون على نفسك يا شيخ عطية، ربنا غفور رحيم، باين عليك كاتم سر كبير.

وفي هذه المرة ضحى عطية لأول مرة بقدر من المال الذي يدخره، ودعا الشيخ حسن إلى أكلة حلويات بالمسمط، وفي المسمط خر عطية حاكياً، فضحك الشيخ حسن وقال له: أنت صحيح شيخ جاهل؟

- لماذا يا عم الشيخ حسن؟

- لماذا لم تطرق باب رواج المتعة.

- هذه عند الشيعة يا شيخ ولا تجوز عندنا.

- زواج المتعة أقره سيدنا عبد الله بن عباس، فهل سيدنا ابن عباس شيعة!

- ولكن العلماء لا يجيزون ذلك

- أقول لك سيدنا ابن عباس تقول ني العلماء!

- إنا أريد أن يطمئن قلبي.

- هناك حل آخر.

- وأنت ذاهب إلى بيت زعلولة حد معك شاهدين، واعقد على المرأة

التي ستنام معها عرفياً وادفع لزغلولة مهر البنت، والله غفور رحيم.

- ولكني هذا سأصنع لنفسي حرسة وفضيحة!

- لا جرسة ولا فضيحة، ألا يذهب معك ابن الحجازية؟

- نعم، برهومة معي في كل مرة، لا أذهب من غيره.

- وأنا سأذهب معكما، وكل واحد منا يشهد على عقد الآخر، وكله بما لا يخالف شرع الله.

وكان هذا هو الحل الذي أراح ضمير عطية، إلا أن هذا الحل أوقع عبثاً عليه إذ كان يقوم في كل مرة بسداد مهر من يضاجعها، ومهر من يضاجعها حسن «ولكن طريق الحلال مكلف» هكذا كان يخاطب نفسه.

وفي أحد الأيام الأخيرة من شهر رمضان الكريم كان عطية وبرهومة معتكفين، لم يكن الاعتكاف عند عطية عبادة فقط، ولكنه كان عبادة ورزقاً وأكل عيش، إفطاره مضمون، وسحوره مكفول، لذلك كان هو المتخصص الأكبر في إعداد مائدتي الإفطار والسحور، والإفطار دائماً يبدأ بالتمر، ثم بعد صلاة المغرب يقوم عطية وبرهومة برص الأواني المليئة بالطعام الذي يحضره المعتكفون والمتصدقون، وكعادة عطية فإنه كان يقوم بعد الفراغ من الطعام بلحس الأواني برغيف خبز، وكان يقول لبرهومة: «هذا هو أطيب الطعام كله ففيه نكهة الطعام الحقيقية».

وبعد صلاة القيام يضع عطية عينيه على أحد الشباب من المعتكفين الجدد من الذين يبدو عليهم اليسار ويهمس في أذنه: ألسنت جانتعا؟

- بلى، ومعدتي تلح عليّ بغباء.

- هل معك مال؟

- نعم.

- بالقرب من المسجد يوجد مسمط الرهوان، فلنخرج من الاعتكاف ونذهب إليه لنملاً تلك البطون الخاوية.

- وهل يجوز أن نخرج من الاعتكاف؟

- نعم يجوز لقضاء حاجة الناس.

- ولكننا لن نقضي مصالح أحد، سنأكل فقط!

- أو لسنا ناساً؟

- بلى.

- أو ليس الطعام مصلحة لنا؟

- بلى، إذن المسألة واضحة يا أخي، أنا خارج لقضاء مصلحتك وأنت خارج

لقضاء مصلحتي ونحن بذلك نعمل في سبيل الله، بما لا يخالف شرع الله.

وبين المرق ولحمة الرأس والفشة والكوارع كان عطية يسبح باستمتاع شديد وكأنه يسبح في البحر الأحمر، إذ كان يخرج من هذه الغزوة وجلبابه قد أخذ نصيبه من المرق والفتة ولحمة الرأس، ولحاويس الطعام، وفي ذات الوقت يكون جيبه قد نجا من دفع نفقات هذا الطعام، فالمعتكف الغر الجديد يقع في المصيدة ويدفع إلا أنه كان لا يكررها مرة ثانية فيبحث عطية عن غيره، وهكذا دواليك تتكرر «غزوة الكوارع» - كما كان يطلق عليها - ويستمر في نصب حباله وخيوطه ليضطاد الغافلين الحمقى كما يضطاد العنكبوت

الذباب، وله في ذلك نوادر قد يسجلها التاريخ يوماً في موسوعة الطفيليين تحت اسم «لحوس الطفيلي».

عُرف عن عطية أنه كان مهذاًراً كثير الشغب، ولكن هل كان متديناً حقيقياً؟ لا يستطيع إنسان أن يدخل في ضمير أحد فيحكم على مشاعره الدينية، إلا أن عطية وفقاً للظاهر كانت له لحاويس من مشاعر دينية متبقية في قعر قلبه ولكنها مختلطة بمشاعره الدنيوية، فكان غالباً ما يبكي بكاءً حقيقياً في دعاء ليلة القدر خاصة عندما يتدفق الشيخ راضي في الدعاء، ولكنه بعد الصلاة سرعان ما يعود إلى هذره مع رفاقه كأنه لم يبك قط، وفي إحدى الليالي كان الشيخ عبد الملطيف مشتهري إمام أهل السُّنَّة هو ضيف درس الثلاثاء وألقى محاضرة مرهفة تمس شغاف القلوب عن الجنة والنار، وحين وصف أهوال يوم القيامة وعذاب النار إذا بالحضور ينخرطون في البكاء، فما كان من عطية إلا أن انساح في البكاء والنشيج.

ولكن الدين كان عند عطية دنياً، وآفة المتدين أن يختلط دينه بديناه، فهو لم يكن متميماً لعائلة لها اعتبار، فعائلته من أضعف عائلات البلد وأفقرها، وكان والده دائماً ما يتحلل لنفسه أمام الأغيار نسباً يمتد إلى الرسول ﷺ، فكان يقول: إننا ننتمي لمائلة «الكحلوت» التي في غزة والتي ينتهي نسبها للرسول ﷺ، وقد جاء جدنا من هناك في تجارة في أواخر القرن التاسع عشر فاستوطن كفر الشيخ عندما كانت تتبع مديرية الغربية، ثم تزوج من عائلة «الفار» أكبر عائلات مطوبس وجاء بجديتي إلى «روينة» فأصبحنا من أهلها.

ولكن المعمرين من أهل القرية كانوا يكذبونه وهو لا يني⁽¹⁾ يروي حكاية نسبه وأصله ثم يختم كلامه بقوله: «نحن أصحاب نسب، ولنا شأن كبير» وعلى خطى أبيه وقضبان قطاره سار عطية، إلا أنه كان يتزيد ويبالغ فيقول لمن لا يعرف أصله وفصله: أبي هو الداعية الشيخ رمضان الكحلوت الإمام الثقة المحدث، وهو من أصدقاء الشيخ الألباني، وينتهي نسبنا إلى جدي رسول الله ﷺ، وأنا - والحمد والفضل لله وحده - عضو الجمعية الشرعية، وجمعية أنصار السنة، ومن تلاميذ الدعوة السلفية، وقد اصطفاني شيخني الإمام المحدث «راضي سلطان» وجعلني مُنظم مواعيد دروسه وخطبه ومحاضراته، وبعد أن ينتهي من سرد تلك السلسلة التي تعطي له اعتبارًا لدى من يحدثه يأخذ نفسًا عميقًا وينظر للأرض وكأنه يتواضع.

كان اقتراب عطية من الدين اقتراب الذي يبحث لنفسه عن نسب وقيمة واعتبار، وليس اقتراب الباحث عن الحقيقة أو المندمج في حب الله، لذلك لم تكن رقائق الترغيب هي التي تجذبه، فالترغيب إنما هو باب المتدينين تجارة الذين يقول لسان حال تدينهم «سنعبدك يا الله ولتعط لنا الجنة ثمنًا للعبادة، وهل هناك أفضل من التجارة مع الله؟ والتاجر بسليقته لا ينظر إلا إلى الصفقة وقيمتها والربح الذي سيربحه من ورائها.

وغلما عطية عَبَدَ الله تجارةً، ثم جمع مع عبادة التجار، عبادة العبيد ومنطقهم؛ إذ إن نفسية العبد هي التي كانت تتحكم فيه وفي سلوكه الشخصي،

(1) لا يني: لا ينفك.

فكانت فرائضه ترتعد فرقاً من رقائق الترهيب والوعيد والعذاب، وكانت آيات الخلود في النار تفتت كبده وترجف قلبه، ولكن الأمر في نفسيته الدفينة كان يحمل بُعداً آخر يتلخص في أنه عاش زمنه المنصرم على حلم واحد لا يغادره، هو أن ينتقل من مرتبة الدونية إلى مرتبة الأسياد، وها هو الدين يسوي بين البشر، بالدين ينال الأغمار مكانة النسب وادعاء العلم، أما عن النسب فقد وضعوا له نشيداً يقول:

يا أخي في الهند أو في المغرب أنا منك أنت مني أنت بي
لا تسل عن عنصري أو نسبي إنه الإسلام أمي وأبي

أما ادعاء العلم فيكفي أن يشيخه الناس، ويرتدي الغطرة والعدبة والجلباب، ويحفظ افتتاحية الخطب وبعض الأحاديث بسندها، ثم يصرخ زاعقاً من فوق المنبر.

في الدين لا فرق بين غني ولا فقير، شريف أو وضيع، أبناء أكابر عائلات الحنبلي والطبّاخ والحجازية مثل ابن الكحلوت (قدم بقدم وساق بساق)، ويكون الأمر أكثر ترضية لنفسية ذلك العبد عندما ينتمي إلى جماعة دينية لها اعتبارها واسمها وتاريخها، فيكون قد صنع لنفسه عائلة ذات مجد وتاريخ، وبدلاً من أن يقول: أنا ابن الكحلوت فإنه سيقول: أنا ابن الجماعة.

لذلك ما إن قال له برهومة ذات يوم: هل تعرف عبد النبي بطيخ؟

- نعم، ما له؟

- هل تعرف أنه ينتمي للإخوان المسلمين؟

- لا، لا أعرف هذا.

- اليوم دعاني لحضور مقرة في بيته وقد استأذنته في أن تكون معنا في المقرة.

- ألا يمانع أبوه في هذا؟

- نعم يا غبي فأبوه هو أحد قيادات الإخوان في كفر الشيخ، وابنه عبد النبي يعمل مع شباب الجماعة في استقطاب شباب جدد.

- ومتى تعقد هذه المقرة؟

- اليوم بعد صلاة العشاء.

كان ابن عم الشيخ كحلوت حريصًا على الالتحاق بالجماعة والاستمرار في أروقتها، فهي التي ستدخله إلى اعتبار اجتماعي جديد، لذلك كان حريصًا على إرضاء عبد النبي بطبخ، وكان أحرص الناس على التودد للأستاذ عودة والده، موجه اللغة العربية وأحد المقربين من الأستاذ عمر التلمساني مرشد الإخوان. احتاز عطية المواقف الإخوانية التي تعرض لها، والتي يدخلونه فيها دون أن يعرف أنها اختبارات لولائه وولطاعته، إلا أنه كان يدرك بغريزته أنه الآن / يمتحن، فكان يباليغ في تنفيذ الأوامر مهما تكن شاقة أو غريبة.

وعندما أصبح عطية في نهاية دراسته المتوسطة كان قد أصبح عضوًا متسبًا بالإخوان وهي عضوية تسبق العضوية الكاملة، ولكن توفر له الوجود في أسرة إخوانية حقيقية، والتبعية لتقيب يوجهه ويرشده لطريق الطاعة والتبعية، وبعد عامين من تخرجه أصبح عضوًا بالجماعة في أول درجات العضوية الكاملة، تلك الدرجة التي يلتزم فيها العضو بسداد

اشترك شهري، وحين علم عطية بقصة الاشتراك الشهري هذه أصابه الهم والغم، فهو بالكاد يكسب نفقاته من وراء مساعدة أحد الباعة الذين يقفون أمام سور المسجد ويبيعون الكتب والأشرطة، فكيف وايم الله يدفع من تلك القروش شيئاً للجماعة! وكم هو المقدار الذي يجب أن يلتزم بسداده! ثمانية بالمائة من إجمالي دخله كل شهر، هكذا قال له نقيب أسرته، وقتها سكت وأوماً برأسه علامة الموافقة أو الدهشة، وفي اليوم التالي طلب من نقيب عبد النبي بطيخ أن يذهب به إلى مسئول الشعبة لأمر هام، فسأله نقيب عن سبب طلبه هذه الزيارة ولكن عطية رفض أن يفصح عن السبب.

- لكن يجب أن أعرف السبب يا أخ عطية، هذا هو المتبع.

- والله أنا مكسوف يا أخي ومحرج بعض الشيء وأريد أن أختلي بمسئول الشعبة لأمر عائلي.

- كلنا في الإخوان عائلة واحدة يا أخ عطية، ونحن في أسرة واحدة، عائلتنا الكبرى هي الجماعة، وكل واحد فيها أخوك حتى السادة أعضاء مكتب الإرشاد وليس هناك أمر سيخفى عليّ فيما ستقوله للأخ المسئول سأعرفه فوراً.

استسلم عطية وأخبر نقيب عبد النبي بما يريد، وعند مسئول الشعبة جلس عطية متحرجاً على حافة الأريكة، وبدأ الحديث وهو يطأطئ رأسه ويخفض صوته:

- لن أستطيع يا فضيلة الأستاذ أن أسدد الاشتراك الشهري.

- لماذا يا أخ عطية؟ أنت تعمل في بيع الأشرطة والكتب وهذه مهنة تدر ربحاً معقولاً.

- أنا بالكاد أنفق هذا المبلغ على أمي وأبي، فأبي كان إماماً لمسجد القرية واعتزل لكبر سنه وضعف جسده وتواطؤ الأمراض عليه، وأمي مريضة ونفقاتها كثيرة.

والحق أن عطية كان يكذب، فهو لم يشارك في أي مصاريف أو نفقات لأسرته منذ أن بدأ يكسب قوته، حتى نفقاته الخاصة كان يمد يده إلى أبيه بشأنها.

واستطاع عطية بطريقته الخانعة الدليلة ومسكته الزائفة أن يحصل على إعفاء من سداد الاشتراك الشهري، وبذلك تخلص من عبء نفسي ثقيل، فهو لم يكن يتصور أن تخرج ملايم من جيبه لتذهب إلى غيره مهما يكن السبب. استقامت عضوية الإخوان لعطية وخضعت لخضوعه، وقد بز بعضويته هذه صاحبه برهومة الذي كان لا يزال في درجة «المُحب» وهي درجة من درجات البداية المبكرة للجماعة وقد يظل الأخ فيها عمره كله.

ومع عضوية عطية للإخوان فإنه ظل من المترددين على دروس الشيخ راضي سلطان السلفي وأحد رفاق الشيخ أسامة عبد العظيم أحد كبار الدعوة السلفية، كان الدرس الأول يتعقد بعد صلاة المغرب يوم الجمعة ويمتد إلى ما بعد رفع أذان العشاء حتى ينتهي الشيخ من درسه فيقام للصلاة ومن بعد الشفع والوتر ينصرف المصلون، ويهرعون إلى سور المسجد لشراء شرائط كاسيت خطب الشيخ عبد الحميد كشك، وخطب الشيخ أسامة عبد العظيم، وكتيبات منسوبة للشيخ ناصر الدين الألباني، هذا غير كتب

عذاب القبر وأهوال يوم القيامة، والصارم البتار، والشعبان الأقرع، والنقاب فريضة.

الدرس الثاني كان يوم الثلاثاء بعد صلاة العشاء وكان غالبًا ما يستضيف فيه الشيخ أحد شيوخ الدعوة السلفية، الشيخ المحلاوي من الإسكندرية أحيانًا، والشيخ أسامة عبد العظيم من القاهرة أحيانًا أخرى، وكانت كفر الشيخ عن بكرة أبيها تجتمع في الجامع وخارجه عندما يأتي الشيخ «عبد الحميد كشك».

وآنذاك كان عطية يقف بين منطقتين.. منطقة السلفيين ومنطقة الإخوان وفي الحقيقة لم يكن يشعر بفارق كبير بينهما، كل ما في الأمر أن السلفيين يلقون دروسًا متخصصة في صحيح البخاري ومسلم ومسند الإمام أحمد بن حنبل، في حين أن هذه الأشياء لا يعرفها المنهج الثقافي والتربوي للجماعة، غاية ما في الأمر أنه كان في الإخوان يلتزم بحفظ الأربعين النووية، مع دراسة كتاب العقيدة الطحاوية، وكتاب فقه السيرة للشيخ سعيد رمضان البوطي، والاجتهاد في حفظ عدة أجزاء من القرآن هي «قد سمع»، و«تبارك» ثم جزء «عم» وهو من هذه الناحية متميز فقد كان يحفظها منذ أيام الكُتَّاب عن ظهر قلب، والإخوان لهم تنظيمهم الهرمي المتراكم في حين أن السلفيين لهم حلقات العلم.

وفي أحد أيام الثلاثاء وبعد أن فرغ الضيف الشيخ المحلاوي من درسه، التف حوله عدد كبير من المصلين يستفتونه في أمور الدين والشيخ منهمك في الفتوى، وعطية يهم بالانصراف سريعًا للوقوف على «فرشة الكتب والشرائط»

التي بخارج المسجد، حيثئذ نده عليه الشيخ راضي سلطان، فهرع إليه مسرعًا،
أخذه إلى حجرته بالمسجد، وبدون سابق إنذار استدار الشيخ ولطمه على
وجهه لطمة صارخة زاعقة فأوقعته على الأرض من فرط المفاجأة.



اذهب إلى الله طائعًا حرًا، ولا تذهب إليه مجبرًا، اذهب إلى الله لأنك تحبه،
ولا تذهب إليه مرغمًا، ما قيمة أن تعبد الله لأنك تخافه وتخشى ناره! الخوف
ليس عبادة، الخوف رهبة ووجل وفزع، فهل يفزع المحب من حبيبه! فإذا
نجاك الله من النار فمن تعبد يا مسكين؟ وإذا كبك في النار فهل ستنتقم منه
وتبغضه! الحب فقط هو العبادة.

اذهب إلى الله لأنك تريده هو، لا من أجل جنته، حين تعبد الله من أجل
الجنة فأنت تعبد الجنة، فإذا وهبك الجنة فهل ستوقف عن عبادته؟! تعس
عبد الجنة.



من اليوم مسجدي هذا محرم عليك إلى يوم الدين. هكذا قال الشيخ
راضي سلطان لعطية الكحلوت بعد أن لطمه بقسوة وغل.

بُهِت عطية، لطمة مدوية على الوجه! وطرده أيدي من المسجد! قال وهو
يغالب دموعه: لماذا يا مولانا؟ ماذا فعلت لأنال منك هذا؟!

- دخلت الإخوان من دون أن تخبرني، والإخوان جماعة ضالة، تميل
للرخص وتعمل بالسياسة، وعقيدتها أشعرية.

- يا مولانا أنا سلفي ابن سلفي، ونقيب الأسرة يقرأ لنا من كتب الشيخ العالم محمد سعيد رمضان البوطي.

- نهارك أسود من قرن الخروب، هل تعتبرون البوطي شيخًا وعالمًا، البوطي هذا يا جاهل لا يساوي قلامة ظفر الشيخ الألباني، والله لو دخلت إلى هذا المسجد لجعلتهم يضر بونك حتى تصاب بالكساح.

- أريد أن أعرف يا مولانا من الذي أخبرك بانضمامي للإخوان؟

- أتحسب أنني أنام على أذني فلا أسمع، وأغمض عيوني فلا أرى! أيها الغر الأحمق أنا أعرف كل شيء يحدث في البلد، حتى خبيثة إبليس أعرف مكانها.

- تمهل يا مولانا، أنا في الإخوان قد أقوم بدور هام ينفعنا، كأن أنسق بيننا وبينهم في بعض المواقف، أو أتوسط لأجعل شيوخنا هم خطباء صلاة العيد في كل ساحات كفر الشيخ الكبرى، وأشياء مثل هذه كثيرة، كما أن قربي من فضيلتك سيجعل لي مكانة عالية عند الإخوان تمكنني من تسهيل كل ما نريده منهم.

وعقب أن قال ذلك نهض قائمًا وأمسك بيد الشيخ التي لطمته وقبّلها ابتغاء الرضا، كانت هذه هي الملكة التي يجيدها عطية، يأخذ ما يريده بالخضوع والذلة والمسكنة، إلا أنه حين يتمكن ينقلب إلى شخص آخر لا يمكن أن يكون هو نفس الشخص الأول، ولكن هل كان عطية متمسكًا إلى هذا الحد بالدعوة السلفية وشيوخها؟ أقول لك الحق: لم يكن يهتم بهم

إلا بمقدار ما يأخذ منهم، وقد اكتسب منهم الكثير، أطلق لحيته وأصبح رواد المساجد يطلقون عليه لقب «الشيخ» وكان في ذات الوقت قد تم ترقيته لمكانته عند الشيخ فسمح له بامتلاك فرشاة كتب، وأشرطة، وجلايب، وغطر وطواق، وأحجية وروائح ومساويك، وقد أتاحت له هذه التجارة الرائجة الفرصة لاكتناز قدر أكبر من المال بالرغم من الإتاوة التي يدفعها - مثل كل أصحاب الفرشاشات - للشيخ راضي سلطان. وتغلب عطية بمنطقه على شيخه، فوافق عفا عنه، وجمع عطية بذلك بين السلفية والإخوانية، وكان هذا الجمع هو أحد الفتوحات التي مرت على حياته حتى إنه كان يطلق عليه عندما يدخل في هذرٍ مع صديقه برهومة: «هذا هو الفتح الرباني في الجمع بين السلفي والإخواني».

وانفتح كثيرٌ من الأبواب للشيخ عطية، وكان الفتح الأكبر يوم أن توسط له الشيخ راضي لدى الشيخ خميس كبير فتوات مسجد عين الحياة بحدائق القبة بالقاهرة، نعم كان مسجد عين الحياة الذي يخطب فيه الشيخ عبد الحميد كشك هو قبلة المصلين من القاهرة ومن المحافظات القريبة والبعيدة، لذلك كانت له فتوات وكان الشيخ خميس هو كبير هؤلاء، وكان عملهم ينحصر في تنظيم أماكن أصحاب الفرشاشات، ومنع الخناقات بينهم، ومنع دخول أي بانع جديد حتى لا يزاحم القدماء، إلا إذا دفع هذا الوافد الجديد مبلغًا معتبرًا، ولكن الشيخ عطية دخل إلى عالم فرشاشات مسجد عين الحياة بدون أن يدفع قرشًا واحدًا، فقط بواسطة من الشيخ راضي سلطان، على أن يدفع الإتاوة المقررة شهريًا.

يوم واحد فقط هو الذي يضع فيه عطية فرشته، هو يوم الجمعة من الصباح الباكر إلى ما بعد صلاة العصر، كان هذا هو القدر الذي سمح له به الشيخ خميس، وبذلك أصبح لعطية وقت فراغ كبير، ولأنه كان من الإخوان المسلمين فكان أن عمل بائعاً وموصلاً للطلبات في حانوت بقالة كبير في مدينة نصر مملوك لأحد الإخوان، ومن حسن حظّه أن سمح له صاحب هذا الحانوت بالمبيت فيه، فمنها حراسة، ومنها مأوى، والله يحب المحسنين.

أكبر شيء استفاده عطية من القاهرة - مع المال الذي اكتنزه - هو أنه قرأ كتيباً صغيراً للشيخ الألباني عن صفة صلاة الرسول ﷺ، ثم حفظه (صم)، وفوق هذا وذاك اكتسب صداقة الشيخ خميس بطريقته الخائفة الخاضعة الذليلة التي يتقنها، وكان طريق الشيخ خميس مفروشاً بالورود والفرص، ففي نهاية أحد أيام الجُمُع قال له خميس قبل أن يغادر: عندي لك فرصة طيبة.

- خير يا مولاي؟

- عمل في السعودية، كاتب حسابات في مستوصف طبي بالمدينة المنورة، ومن خلال شيخ يماني سأعطيك بياناته، ستعمل على فرشة هدايا وروائح محمدية في مكان مميز بالقرب من المسجد النبوي.

- ربنا يبارك فيك يا مولاي.

- ولكي تكون البركة كاملة ستدفع لي ألف جنيه عندما أعطيك التأشيرة.

- ألف جنيه! يا دين النبي، هذا المبلغ ليس في إمكاني يا مولانا.

- في إمكانك ونصف، وإذا لم يكن في إمكانك فغيرك يقدر.

أطرق عطية قليلاً ثم قال للشيخ خميس: سأستخرج جواز السفر وأعطيه إياك، ثم سأذهب للبلد لمدة أسبوعين، وربنا يسهل لي حتى أستطيع الوفاء بالمبلغ المطلوب.

وحين دخل على أبيه في قريته «روينة» بعد فترة غياب، أعطاه هدايا انتقاها له عبارة عن مسواك، طاقيه رأس، قنينة رائحة، سبحة، وأعطى أمه تربيعة مزينة بالترتر وطرحه، فرحت أم الفرج بهديتها فرحة طاغية، فقد كانت أقل الأشياء ترضيها وتبعث البهجة في نفسها، وضحك الأب رمضان الكحلوت وهو يقول: ما شاء الله، ما شاء الله، إنت سافرت للعمرة؟

- إن شاء الله نساfer معاً، ربنا يكتبها لنا يا أبي.

- غبت عنا كثيراً، لا حس ولا خبر.

- المشغوليات يا أبي، أنا كدحت كثيراً لكسب العيش وتحصيل العلم.

- أي علم؟!

- العلم الشرعي، أنا جلست على كبار الشيوخ، وكلهم أحبابي.

- طيب يا سيدي، يا ليت ينوبنا من الطيب نصيب.

- أنا نويت ألقى دروساً في المسجد يا أبي.

- أي مسجد؟

- مسجد البلد.

- یا بنی غنی بعیڈا عن هنا، زامر الحی لا یطرب، وکل شجرة ولها بلبلها.
- إن شاء الله أهل البلد سیسمعون کلامًا جدیدًا، لم یسمعه من قبل.
- ربنا یفتح لك یا بنی أبواب النجاح.
- هناك موضوع أريد أن أکلمک فيه یا أبی
- خیر یا عطیة!
- أنا مسافر بعد شهر.
- أين یا عطیة؟
- السعودیة، واحد صاحبی وجد لی عملًا فی مستوصف طبي بالمدينة.
- وما هو هذا العمل؟ طیب أمراض مستعصیة؟!
- لا وانت الصادق، طیب حسابات مستعصیة.
- یا ولد بطئ لكاعة، هل ستعمل فرائشا تنظف الفرش وتقدم الشاي والقهوة؟
- لا یا أبی، سأكون فی وظيفة أعلى من ذلك کثیرًا، کاتب حسابات مُعتبر.
- طمأن عطیة أباه علی الوظیفة المقبلة، ووعده بإرسال مبلغ شهري یفي باحتیاجاته وأمه، ثم باغته قائلاً: أريد ألف جنيہ سلفه.
- من أين؟! عد غنمک یا جحا.
- من ثمن بیعک للقیراطین، بأمارة الصندوق الحدید الموضوع تحت سریرک.

- مدخرهم ليوم موتي.
 - سآردهم لك يا أبى خلال سنة.
 - موت يا حمار على ما يجي لك العليق، أنت مدين لي بثمان الجددي الذي
 ذبحته لك يوم مولدك.
 وهنا قام عطية واقفًا وأسرع نحو حجرة أبيه وهو يقول: سأخذ المال
 برضاك أو من غير رضاك.
 فقام الأب صائحًا مهرولاً خلفه، استدار له عطية ثم نظر إلى أحد
 الجوانب فوجد نبوتًا فأمسكه ورفع رفعة الاستعداد للبطش، وأم القرج
 التي لم يحسب أحد حسابها أخذت تولول وترقع بالصوت.



الزمكان

استدار مصطفى الشرقاوي عائداً على صرخة الرجل الغريب الأسمر،
 فوجده واقفاً على الأرض، والرجل الآخر واقفاً وهو يحملق ويبحلق في
 شيء ما في ركن الصالة، والزوجة ثريا تطل برأسها من حجرتها على هذا
 المشهد الغرائبي.

- ما الذي حدث يا عم الحاج؟!

لم يلتق مصطفى إلا صمتًا، فجلس بجوار الرجل الأسمر فوجده يتحدث
 نفسه همسًا: يا رب سلم سلم.

أسرع مصطفى إلى المطبخ وأحضر كوبًا من الماء، رش بعض ما فيه على وجه الرجل الخائر المتهافت، ثم سقاه شربة، واعتدل واقفًا وأجلس الرجل الآخر الذي كان لا يزال يبخلق في ركن الصالة، فأخذ يتبع بصر هذا المبحلق، فلم يجد شيئًا غريبًا، أو مفرعًا، فقط كان جهاز التلفزيون مفتوحًا على صلاة الفجر والشاشة تنقل وقائعها.

- اهدأ يا عم الحاج، لا تخف، هل سمعت شيئًا مريبًا؟ هل تظن أن أولاد الليل يتبعونكم؟

اتكأ الرجل الأسمر على مرفقيه قاعدًا وقال بصوت هامس مرتعش ونفسه يتردد اختلاجًا: أعود بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّسُلِ فَتَأْمَنَّا بِهِ. وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا ءَأَمْنَا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾، ثم أخذ يحرك لسانه بسرعة ﴿إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ﴾ وأخذ يكررها مرات ومرات ومصطفى يهز رأسه ويزم شفتيه حيرة.

- اهدأ يا عم الحاج، خير إن شاء الله، قل لي ما الذي أصابك؟

- لقد رُوِّعت يا رجل.

- روعت!

- نعم لم يصبني روع مثل الذي أصابني الآن.

- ما الذي روعك يا حاج؟

- أَدْخَلَ هَذَا الشَّيْءَ - وَأَشَارَ إِلَى التِّلْفِزِيُونِ - الرَّوْعَ فِي قَلْبِي، هَذَا مِنْ عَمَلِ الْجَانِ.

- لَا يَا حَاجَّ، هَذَا مِنْ عَمَلِ شَرِكَةِ النَّصْرِ.

- مَا مَعْنَى مَا تَقُولُ أَيُّهَا الرَّجُلُ؟

- هَذَا تِّلْفِزِيُونٌ يَا سَيِّدَنَا.

- وَمَا التِّلْفِزِيُونُ؟ وَكَيْفَ دَخَلَ إِلَيْهِ هَؤُلَاءِ النَّاسُ؟ وَكَيْفَ هُمْ بِهَذَا الْحِجْمِ

الصَّغِيرِ؟

قَامَ ابْنُ حَنْبَلٍ وَاقْفًا وَاقْتَرَبَ مِنَ الْجِهَازِ بِحَذَرٍ، وَأَخَذَ يَفْحَصُهُ بِعِنَايَةٍ، وَغَرِيبٌ يَوْسُفٌ يَنْظُرُ إِلَى التِّلْفِزِيُونِ وَهُوَ يَمَعْنُ الْفِكْرَ، ثُمَّ قَالَ لِمُصْطَفَى:

- هَلْ هَذَا رَادِيُو حَدِيثٌ؟

- لَا يَا حَاجَّ، هَذَا تِّلْفِزِيُونٌ صِنَاعَةٌ مِصْرِيَّةٌ، يَبْدُو أَنَّكُمْ مِنَ الصَّحْرَاءِ وَلَمْ

تَدْخُلَا مَدِينَةَ أَوْ قَرْيَةَ فِي حَيَاتِكُمَا.

رَدَّ ابْنُ حَنْبَلٍ: أَنَا مِنْ بَغْدَادٍ وَلَا تَوْجَدُ مِثْلَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ عِنْدَنَا.

- يَا سَلَامَ يَا سَيِّدَنَا، بَغْدَادُ! أَهْلًا وَسَهْلًا، لَكِنْ بَغْدَادُ فِيهَا تِّلْفِزِيُونَاتٌ وَسِينِمَا، وَكُومْبِيُوتَرٌ وَكُلُّ شَيْءٍ، إِلَّا إِذَا كَانَ صَدَّامٌ قَبْلَ أَنْ يُعْذَمَ قَامَ بِالْغَايَةِ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ، بَطَلُوهُ وَاسْمَعُوهُ.

بِتَرَدُّدٍ وَانْتِبَاهٍ قَالَ ابْنُ حَنْبَلٍ: صَدَّامُ! أَنْتَ تَهْرَفُ بِأَشْيَاءٍ لَا مَعْنَى لَهَا، أَنَا أَسْأَلُ عَنْ هَذَا الصَّنَدُوقِ الْعَجِيبِ، هَلْ هُوَ مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ آصَفُ ابْنُ بَارَخِيَا، نَقَلَهُ لَكُمْ؟

زَمكان

قال مصطفى وقد افترَّ ثغره بابتسامة لأول مرة منذ وفاة ابنه نور: من
أصف بن بارخيا هذا؟! صاحب شركة سامسونج!

- ما هذه الكلمات الغريبة التي يلوكها لسانك؟ أصف بن بارخيا يا رجل
هو العبد الذي كان في حضرة سيدنا سليمان، وقد أعطاه الله علماً من الكتاب،
فأحضر به عرش بلقيس قبل أن يردد إلى سليمان طرفه.

تدخل غريب يوسف: يبدو أن العلم الذي عليه الناس في هذا الزمن
فوق عقولنا نحن، وهم يعقلونه، وما قد يعلمه الناس بعد مائة عام قد يكون
فوق عقول أبناء هذا الزمن، ولكنه سيكون معقولاً عند أبناء زمنه.

رد مصطفى: والله ما فهمت شيئاً!

قال ابن حنبل: اشرح لنا هذه الأشياء كأننا أتينا لك من زمن آخر ولا
نعرف شيئاً عن زمنكم ومستجداته، ثم قل لي، ما هذا المصباح الغريب الذي
يتدلى من سقف الحجرة!؟

رد غريب سريعاً: هذا مصباح كهربائي يا إمام، كان موجوداً في زمني
ولكنه لم يكن قد دخل قريتنا.

تحير الإمام ابن حنبل، إلا أن مصطفى حسم الأمر: نتوضأ ونصلي أولاً
ثم نتحدث براحتنا.

أمّ ابن حنبل الصلاة، وفيها خشع قلب مصطفى خشوعاً لم يقترب منه من
قبل، رق قلبه وانتفض وكاد يقفز من قفصه الصدري: «ما هذه الحلاوة التي
تغمرنني؟ ما هذا الخفقان اللذيذ الذي يداعب قلبي؟ هذه صلاة لم أصلها من

قبل، يبدو أن هذا الشيخ من أولياء الله الصالحين، أنا أصلي الآن خلف ولي، هذه هدية مباركة أعطانيها الله ليؤنس قلبي ويمسح وجيعته».

فرغوا من الصلاة ولكن الصلاة لم تفرغ من قلوبهم، كان صوت ابن حنبل نديًا، قرأ القرآن كأنه يتنزل عليهم الآن، أفرغ مصطفى وجيعته بالبكاء، وانساح معه غريب يوسف وكأنه يهيم في دنيا غير دنيا الناس «هذه هي دنيا النور».

وفي مطبخ الدار كانت ثريا تعد صينية الإفطار، وإذا أقيمت الصلاة أخذت تسترق السمع فوصل إلى كيانها كله القرآن الذي كان يقرؤه الإمام في الصلاة، كان يقرأ من سورة النمل، كان صوته نديًا خاشعًا ملهبًا المشاعر، وحين وصل إلى موضع من القراءة صدح فيه بقوله تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمُ﴾ وجدته يقرؤها بطريقة لم تعهدها من قبل، إذ نطق كلمة «نملة» كأنها أصغر أو أتفه شيء في الكون، ثم كرر الآية فنطق «نملة» وكأنها أكبر شيء في الكون، ما باله ينطقها هكذا؟ هل يقصد أنه «يوضع سره في أضعف خلقه» فجمعت النملة بين قمة الضعف وقمة القوة في آن واحد، وهكذا نكون نحن، قد تجعلنا طاقات الإيمان أقوى مما نتصور أو يتصور أحد، وقد يسقط بنا الإحباط وانعدام الإيمان إلى مدارك الضعف والهوان وقلة الحيلة. ليس القوي من بني الإنسان هو قوي الجسد، أو قوي الشكيمة، فالزمن يمر علينا فيحيل القوي ضعيفًا قليل الحيلة خافت الأثر، والمرض يغزونا فيحيل الصحيح مريضًا، هو الزمن الذي يفعل بنا الأفاعيل، ولكن هو الإيمان الذي يرتفع بنا ويرفعنا، ويمسح بحلاوته على قلوبنا، فلا نحمل همًا ولا نأسى على ما جرى لنا.

اطمأن قلب ثريا، هؤلاء الناس من أهل الله وخاصته، تبدو الطيبة عليهم، فكان أن أسرع وأعدت لهم صينية الطعام، وإذ تحينت دخولهم إلى حجرة نور طرقت باب الحجرة وتركت الصينية على الأرض، ثم شعرت بالإرهاك ينهل من قواها فتركت ما كانت عليه من توجس وخيفة وذهبت تأوي إلى فراشها بعد أن استودعت زوجها مصطفى.

قبل أن يفتح مصطفى باب الحجرة قام ملهوقاً على الإمام، سلّم عليه وأمسك كفه بقوة وانكب عليها مُقبلاً، ثم جثا على ركبتيه وقبل رأسه.

شعر غريب يوسف أن المكان انداح بهم واتسع، كيف تكون الدنيا ضيقة على سعتها، تكون ضيقة إذا افتقدنا الإيمان، وتتسع مع رحابة إيماننا، لذلك كانت صالة بيت مصطفى التي شهدت ركوعهم وسجودهم شديدة الاتساع في نظر غريب الذي قال: أشهد يا إمام أنني ما صليتُ قبل هذا اليوم قط، أنت جعلت لصلاتي معنى وأيقظت مداركي وجوارحي، كانت شجرة إيماني ميتة، فبث الله فيها الحياة، فاهتزت وربت..... ثم أخذ ينشد وهو ينشج:

عرفتُ الهوى مَـذْ عرفتُ هـواكـا

وأغلقْتُ قلبي عَمَّن سـواكـا

وقمْتُ أنا جيكَ يـا مَن تـرى

خفايا القلوبِ ولسنا نراكـا

كان ابن حنبل في حال أخرى، ووجدانية فريدة، أذهلته عن غريب ومصطفى، وهكذا كان هو في كل صلاة، ينقطع عن الدنيا وما فيها ويعيش

وجدانه في عالم شكَّله لنفسه من الوجد والصبابة، عادت إلى ذهنه أيام بغداد ولياليها عندما كان ينظر إلى السابلة الذين يمرون في الطرقات أمام داره أو أمام المسجد، ويقول لنفسه: «والله إني لأشفق على هؤلاء الذين لا يدركون اللذة التي أنا عليها، ولا يستشعرون في قلوبهم حلاوة مثلها، لو علموا لجاهدوا من أجل الحصول عليها».

وحين سيق إلى المعتصم وسمع تهديده بالقتل جلدًا قال لنفسه: «لو ذاق المعتصم مثل الذي ذاقه قلبي من حلاوة ما عذب أحدًا قط، إذا امتلأت القلوب بمحبة الله؛ فلن يكون فيها مثقال ذرة من بغض».

عاد إلى الدنيا الجديدة التي قدر الله له أن يكدح فيها كدحًا، ثم قال لمصطفى وهو ينظر إليه وقد اغرورقت عيناه بالدموع: لهجتك غريبة يا صاحب الدار، هل نحن في مصر؟

تعجب مصطفى من السؤال إلا أنه قال: يبدو أن حكايتكما غريبة لا مثيل لها، فأنتما خرجتما إلى الحياة من قبر مظلم مغلق من الخارج لم يفتحه أحد منذ آمام بعيدة، ثم كانت عليكما جروح لحقت بكما منذ فترة وجيزة، فالدماء كانت تسيل منكما لم تجف بعد! ثم إنكما لا تعرفان شيئًا عن الدولة التي تأويكما الآن ولا القرية التي تحذب عليكما.

قاطع ابن حنبل: ما تقوله يفتح الباب لحكايتنا، ولكن قبل أن نروي لك، وتشرح لنا، قل لي اسمك يا صاحب الدار.

- مصطفى الشرقاوي يا عم الحاج.

- لماذا كنت تناديننا بهذا اللقب العجيب «عم الحاج»؟!

- لأنني لا أعرف اسميكما.

- ولماذا «الحاج» لماذا لم تقل يا عم الصائم، أو المصلي، أو المعتمر؟

تعجب مصطفى مبتسماً: هذا هو ما وجدنا عليه آباءنا يا سيدنا، عم «الحاج» لقب نطلقه على الكبار لتوقيرهم.

- هذا من أعجب ما رأيت، أن يُنادى الرجل بعبادته! ما علينا، نريد أن نعرف منك كل شيء، في أي عام نحن؟ وما الذي حدث في بلاد المسلمين وبلاد الفرنجة؟

- فرنجة! فرنجة من يا سيدنا؟! لم يحدث شيء في الدنيا، أحوالنا كما هي.

- عذراً يا أخي الكريم، اعتبرنا مثل أهل الكهف، نحن لا ندرى شيئاً عن الدنيا وعن هذا الزمن.

- أهل الكهف! سبحان الله، هل كنتم من موتى القبور وأحياكم الله، مثل سيدنا عُزَيْر؟!

- لا، لم نمت، ولكن لنا قصة قد لا تصدقها.

- يبدو عليكما الصلاح والتقوى، وصلاتي خلفك رفعتني للسماء السابعة، لذلك أنت مصدق عندي، ورغم أن الأخ الذي معك لا يتكلم كثيراً، فإن لهجته تدل على أنه من هذه النواحي، كما أن شكله ليس غريباً عليّ.

استفسر غريب يوسف: في أي بلد نحن يا بن العم؟

- أنتما في السعيدية مركز بلييس شرقية.

هب غريب واقفاً وكأن ثعباناً لدغه: السعيدية! المحروقة! من هو العمدة؟ ومن أنت؟

- المحروقة! هذه حكاية قديمة جداً يا سيدنا، لا يعرفها إلا القدماء من أهل القرية، كل الناس نسوها الآن، والحرائق انقطعت عن البلد تماماً، شكلك يدل على أنك كنت من هنا ثم غبت كثيراً، من أين أنت يا سيدنا؟
- سأقول لك بعد قليل، ولكنك لم تقل لي من هو عمدة هذا البلد.

- العمدة من أولاد «أبو يوسف»، وآل يوسف أخوالي، لكن والله العظيم ثلاثة لن أقول لكما شيئاً آخر إلا إذا عرفت قصتكما كلها والـ.....
وقبل أن يفرغ من جملة قاطعه غريب يوسف: هناك من طرق باب الحجرة منذ قليل.

خبط مصطفى جبهته بكفه وقال: نسيت أن أفتح الباب. ثم أسرع للباب يفتحه، فوجد على الأرض صينية إفطار كبيرة عليها ما لذ وطاب من الطعام، قشدة، وعسل نحل، وبيض مسلوق وبيض مقلي، وجبنة قريش، وفول مدمس، وفطير مثلتت، وبرّاد شاي، وبرّاد لبن، وخبز متنوع الأشكال.

وضع مصطفى صينية الطعام على الأرض وقال لها: بسم الله، بالتأكيد بطنا كما فارغان، هيا نأكل لقمة على ما قُسم فيبقى بيننا عيش وملح يا أسيادنا.

نزل ابن حنبل من على الأريكة وجلس معها وهو ينظر للطعام ثم قال لمصطفى: ما هذا الإسراف؟ تتحدثون عن الآخرة وتعملون عمل أهل الدنيا!

- نحن شراقة يا سيدنا، وأهل الشرقية يتصفون بالكرم، وهذا زاد قليل، ولو كنت أعلم بالذي سيحدث لكنت أولمت لكما وليمة كبيرة، لكن ملحوقة إن شاء الله.

أكل ابن حنبل بضع لقيسات مع الجبن القريش يقمن أوده، وشرب رشفات من اللبن ثم عافته نفسه فتركه، ومصطفى يلح عليه أن يأكل من أنواع الطعام الأخرى، ويضع أمامه صحن البيض المقلي بالزبدة، إلا أن ابن حنبل أصر على إعراضه.

وأكل غريب من البيض والبول والفتير المشلت مع العسل، وما إن فرغوا من الطعام حتى حمدوا الله سبحانه وتعالى على نعمه وجزيل فضله.

اعتدل ابن حنبل في جلسته، وأغمض عينيه قليلاً وكأنها يستجمع قواه، ثم تدفق في الحديث حاكياً عن قصته منذ أن سيق إلى الخليفة إلى الأحداث الجمة التي حدثت بعد هذا، ومصطفى يسمع هذه الحكاية اللافتة.

تغير لون وجهه أكثر من مرة، أقسم في داخله أنه يحلم وأن الذي أمامه ليس حقيقياً، وحين كان ابن حنبل يتوقف عن الحديث ليلتقط أنفاسه أو ليأخذ رشفة من كوب الماء كانت تبرز أمام مخيلة مصطفى ذكريات وفاة نور كصور متقطعة يجللها السواد فتختلط هذه الصور مع حكاية الشيخ الغريب، فينبعث من قلب مصطفى شعور غير معتاد يجمع بين الرهبة والحزن والدهشة، وما إن انتهى ابن حنبل من سرد ما حدث له حتى كان مصطفى قد نسي أحزانه، لا لأن أحزانه اختفت خلف غيابات الزمن، ولكن

لأن شيئًا جديدًا مذهلاً كان أدعى للاهتمام. نسي مصطفى نكته حينما استبد به الانفعال وهو يتطلع إلى هذه الحكاية الأسطورية التي جاءت له تتهادى من أحد أطراف الزمن.

نظر مصطفى إلى ابن حنبل غير مصدق، شعر بدوار انطلق أول ما انطلق من أعماقه، قام واقفًا وأخذ يسير في شبه دائرة ضيقة، ثم أسند ظهره إلى دولا ب الملايس، كان مصطفى في حال أخرى، فلا تعب ولا إجهاد أثر عليه، بل تملكته الدهشة فمسحت الإرهاق وأيقظت الحواس، هل ما سمعه الآن من هذا الشيخ حقيقة؟! هذا أمر لا يستسيغه أي عقل، ولكنه كان قد سمع كثيرًا عن كرامات الأولياء، بيد أنه لم تصل إليه حكاية شبيهة، فكان أن قال للشيخ الراوي: اسمع يا سيدنا، يبدو عليك الصلاح والتقوى، لكن ما تقوله لا يمكن لعقل أن يستسيغه، هل ما تعرضت له من ضرب من أولاد الليل أصاب عقلك بشيء؟

- ما قصة أولاد الليل هذه التي ما فتئت تتحدث عنها؟

- أولاد الليل يا سيدنا، قطاع الطرق، الذين دفنوك وصاحبك في القبر.

- لم يقم أحد بدفنتنا، أنت بنفسك قلت منذ برهة يسيرة أن القبر كان

مغلقًا منذ آما د بعيدة، وأعرف أنه أصابك وصاحبك - الذي حفر معك

- الإجهاد والمشقة من جراء محاولة الفتح، كما أنني قلت لك: إننا أتينا من

زمننا، ومررنا على سرداب الزمن قبل أن ننزل إلى حياتكم وزمنكم.

- وما الدليل؟

- انظر إلى أثر الضرب الذي في ظهري وأنت تعرف، هذا ضرب بالسياط.

- رأيت يا سيدنا ووضعت عليه المراهم بنفسي، ولكن هذه الجروح ليست دليلاً. تدخل غريب يوسف موجهًا كلامه إلى مصطفى: قل لي أولاً في أي سنة نحن؟

- سنة 2012 ميلادية 1434 هجرية.

أمسك الصمت بتلابيبهم، وخيم السكون على المكان، حتى إنك لا تكاد تسمع صوت تردد أنفاسهم، كأنهم أخذوا عهدًا على أنفسهم أن يكتموا هذه الأنفاس حتى لا تشوش أفكارهم.

أخذ ابن حنبل يهز ظهره للأمام والخلف مرات متتاليات مثل المقرئين حينما يندمجون في قراءة القرآن ويعد هنيهة قال: أنا الآن أمام زمني بهائتين وألف سنة مما تعدون، لك الحق ألا تصدق يا مصطفى، فأنا نفسي لا أستوعب ما حدث لي، أنا لا أصدق، أظنني الآن في حلم طويل لا يريد أن ينجلي بيقظة. قال مصطفى بصوته الهادي: أنت في حلم وأنا في يقظة، فهل يجتمع الحلم باليقظة؟

سكت ابن حنبل فقال غريب يوسف: قد نعيش الحلم ونحن في يقظتنا.

انبرى مصطفى قائلاً: هذه نسميها أحلام يقظة يا سيدنا.

أجابه غريب: أنت واثق ومتيقن أنك في يقظة، وغيرك الذي يجلس معك يظن أنه في حلم، واليقين يغلب الظن.

- طيب قل لي يا سيدنا من أنت وما قصتك؟ هل أتيت أنت الآخر من أيام ابن حنبل؟
- رد غريب: قلت لي: إن أخوالك هم آل يوسف، فمن هي أمك يا مصطفى؟
- ليس لك شأن بأمي يا سيدنا.
- أريد أن أعرف اسمها فقط.
- لماذا؟! من أنت؟
- إن كان ما حدث لنا حقيقيًا فأنا من زمن قريب من زمنكم يا مصطفى، ومن بلد أقرب لك مما تتصور.
- من أي بلد؟
- من السعيدية، بلدك.
- شكلك ليس غريبًا عليّ، أنت تشبه أفراد آل يوسف، أنت صورة طبق الأصل منهم.
- وأنا من آل يوسف يا مصطفى، أنا عمدة السعيدية.
- هه، آل يوسف، العمدة! كيف هذا؟!!
- اسمي غريب يوسف.
- غريب يوسف من؟!!
- غريب يوسف غُرَيْب.

خرج مصطفى عدوًا من الحجرة، بحثًا عن زوجته ثريا فوجدها قد أوت إلى فراشها، إذ أنهكها التعب والإجهاد، غاب برهة، ثم عاد مقتحمًا المكان وهو يحمل صورة فوتوغرافية في يده، فغرفاه وهو ينقل نظره من الصورة إلى الرجل الجالس على الأرض، جلس بجواره واستمر في التحديق به والبهلقة في الصورة، ازدرد ريقه، وأمسك كوب الماء فشرب رشقات منه، ثم طس وجهه بما تبقى فيه من ماء، وأخذ يقول: الحقيني يا أمي، موت نور أفقدني عقلي، ذهبت أزور نور في القبر فخرج لي جدي غريب حيًا، سنة مطينة بطين. ثم انهمر على رأس جده بالقبلات.



أخذ غريب يوسف يروي لمصطفى قصته، منذ أن ذهب إلى الحج، إلى أن تاه في الصحراء، ومقابلة عبد الله الرصافي إياه، ثم ما حدث في سرداب الزمن واجتماعه مع ابن حنبل، نهاية بهبوطهما من السرداب إلى هذا القبر.

- نحن الآن معنا دليل يا مصطفى على أننا نعيش في قلب الحقيقة، صورتي التي معك، تلك الصورة التي التقطها لي المصوراتي الخواجة سمعان بيليس قبل أن أذهب للحج، أعرف أن ما نعيشه الآن فوق عقولنا جميعًا، قد لا نجد إجابة عنه، ولكن كل ما هو تحت العقل في أيامكم هذه كان في أيام ابن حنبل فوق العقل، فوق النهى، فوق التصور، ونحن الآن نجلس مع إمام الأمة، ذلك الإمام الذي حلفت على الله ذات يوم أن يجمعني به في الدنيا والآخرة فسخر مني شيخ الكُتَّاب، ولكن الله سبحانه له في خلقه شئون بيديها

ولا يبتديها، فكان أن استجاب لي وجمعني بالرجل الذي أحببته وشغف به قلبي، هذا الرجل الذي تبرك به الشافعي، وذاد عن الأمة كلها في فتنة خلق القرآن، انظر لي يا مصطفى ودقق النظر، أنا أعرف هذا البلد شبرًا بشبر، ولكنني رأيت ونحن في الطريق إلى بيتك تغييرات كثيرة حدثت فيه، البيوت أصبحت مبنية بالطوب الأحمر، والمقابر تغيرت كثيرًا، لم تكن كذلك على أيامي، الأرض التي عليها بيتك هذا والبيوت المجاورة كانت زراعية، وهأنتم تضعون الأسمت والطوب الأحمر عليها، والكهرباء دخلت إليكم، وهذا الذي تسميه تلفزيون! أنا أعرف السينما، وكان لديّ راديو وجرامفون وتليفون، هذا غير التليفون الذي كان في حجرة التليفون «كابينة الخفراء» وأعرف التلغراف، وعندني سيارة، وأعرف القطار والطائرة وأمريكا، ولكن هناك أشياء لم أسمع بها من قبل، سمعتك تقول كومبيوتر، وصدّام ولكنني الآن أشعر أن تعب الدنيا حل بي، يدي ترتعش، لا أظن أن البرودة قشعرتني.

قام مصطفى وأحضر غطاء صوفيًا دثر به غريب، ثم نظر للإمام أحمد بن حنبل وقال: عقلي مشوش يا إمام، هل من الممكن أن يحدث هذا؟
- دعني أصلي الضحى وأخلو إلى ربي ثم سيكون بيننا حديث.

انتهى من صلاته، وانتهوا من صلاتهم، خلا إلى ربه وخلوا إلى ربه، عزل قلبه عن الحياة الدنيا وكأنه استقال منها، كانت أفكاره مضطربة وروحه جزعة، فأخذ يحدث نفسه «يا نفس إني مستقيلٌ من حياة الغافلين، لا تُرَكِّني للنوم، فيقظة الإيمان هي السبيل، اليقظة نور والغفلة عتمة».

ثم استقامت روحه وهدأت نفسه قليلاً فأخذ يناجي ربه: « معك وحدك يا رب، تكفيني معيتك، أنر لي بصيرتي، أنت حسبي، أنت عزّي، أنت جاهي يا إلهي، ليس لي غيرك ربي مرشداً، أنت أشرق الوجود، وليس من بعد اللجوء إلى حماك يكون عندي مستحيل».

« زاد شوقي وحنيني لإلهي، انسكبت روحي لوعة وفاض نوحني، هطلت دموعي مثل طوفان نوح، نار قلبي استعرت مثل نيران الخليل، أغرقتني أدمعي، أحرقتني زفرتي، إن أريتني وجهك، وألقيتني في الجحيم، فأنا في عز النعيم، وإن حجبت عني نورك، وأعطيتني الجنة كلها فأنا في ذل مقيم».

« يا الله يا مالك الملكوت، فوضت أمري إليك، يا الله يا من يعلم السر وأخفى، روحي هائمة في ملكوتك، فضعها حيث تريد، ولا تضعها حيث أريد، واجعلني كما تريد لما تريد، اللهم استعملني ولا تستبدلني، اللهم إني أنشدك فأرشدني، أطلبك فعرّفتني الطريق إليك، اللهم ارزقني معيتك ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين».

نظراً إليه فوجدا دموعه تكاد تفتت عينيه، كان في حال غير الحال، ودنيا غير الدنيا، يرتعد جسده، وتهتز خلاياه، وإن كلماه لا ينظر إليهما كأنهما لا شيء، أو من هواء الحجرة، قال غريب يوسف: أكاد أقسم أنه الآن في حق اليقين.

وما بين طرفة عين وانتباهتها وجداه قد اضطجع على جنبه الأيمن، وراح في سبات عميق.

أمسك مصطفى مصحفه وأخذ يقرأ سورة يوسف بصوت خافت،
ورويدًا رويدًا أخذ جسده يهتز مع القراءة، بينما تكور غريب يوسف على
جنبه وغفلت عيناه والقلب يقظان، وما إن فرغ مصطفى من السورة حتى
وجد ابن حنبل يقوم مستيقظًا، سعل ابن حنبل فاستيقظ غريب وقعد من
نومته، قال ابن حنبل: ﴿الْقَنَهُ عَلَيَّ وَجْهَهُ﴾ فَأَزْتَدُ بَصِيرًا ﴿ قل لي يا مصطفى:
أإذا ألقىت ثوبًا على أعمى فهل يرتد بصيرًا؟

- لا، وإلا كان العمى قد انتهى من الدنيا.

عاد ابن حنبل يقول: ولكن الله أعطى هذا الثوب خاصية ليست لغيره،
جعل له ناموسًا خاصًا به، بحيث عندما ألقاه البشير على وجه سيدنا يعقوب
ارتد بصيرًا.

- نعم.

- لكل شيء في الدنيا ناموس، حتى المعجزة لها ناموسها، والخارقة كذلك،
فإذا أعطاك الله قدرًا من علم ناموس الأشياء، كان لك تسخيرها.

عقّب غريب: اشرح لنا يا إمام.

جاء صوته من أغوار عميقة ملتحفًا برداء الزمن:

(خلق الله الزمن، وخلق المكان، وأعطى لكل ناموسًا، يخضع الزمن
لناموسه ويخضع المكان لناموسه، ولكن خائن الناموس لا يخضع لما خلقه،
خالق الزمن لا يمر عليه زمن. خالق المكان لا يحتويه مكان، هو فوق،
ولكن فرقيه فوقية مكانة لا مكان. خلق السماوات والأرض في ستة أيام

ثم استوى على العرش، مرّت الستة الأيام على المخلوق لا على الخالق، إنها أمره بين الكاف والنون، ولأن المخلوق خاضع لناмос خالقه، فقد مر على السماوات والأرض ستة أيام إلى أن تشكلتا، ولكن هذه الأيام لم تمر على من شكلهما وخلق ناموسهما.

أوجد رب القدرة صلة بين الزمن والمكان، جمعهما في إناء الزمكان ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ فكان الليل والنهار زمناً، وكانت الشمس والقمر مكاناً، فإذا سبحت الشمس «المكان» ذات المكان والحيز، في مدارها المكاني، وسبح القمر «المكان» صاحب المكان والحيز، في فلكه المكاني، جرى على أثرهما الليل والنهار، فيتعاقب الزمن ويمر على من يحتويه المكان، تنتظم حركة الزمن ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ فإذا خرجنا من نطاق مكانية الشمس والقمر، لن يمر علينا ليلهما ونهارهما، ينحسر عنا زمنهما، وإذا دخلنا إلى مكانية أخرى، مر علينا زمن هذه المكانية، وخضعتا لناмосهما).

قاطع مصطفى استرساله: ولكن من الذي قال إن هناك مكاناً آخر و....؟

أوقفه غريب يوسف بلكرة خفيفة على كتفه، عاد ابن حنيل إلى استرساله كأن أحداً لم يقاطعه:

(هو الذي قال لنا هذا: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (٢) الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ

سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفْوُتٍ فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴿١﴾
 ثم قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴿٢﴾ وفي
 سورة الجن قال: ﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَثِمَتٍ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَابًا ﴿٨﴾
 وَأَنَا كُنَّا نَنقُدُّ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ آلَانَ يَسْمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾.

قال لنا الله إنه خلق السماوات والأرض طباقاً، وطباقاً تعني متداخلات،
 حتى إن هذا التداخل لا يترك لك مجالاً لاكتشاف الفروق بين الطبقة والآخر
 الذي انطبق عليه، لم يقل لنا: إنه خلقها طبقات، أو متطابقات، فالطبقات
 جمع طبقة والطبقة تعلوها طبقة ولا تتداخل فيها، فيكون بين الطبقة والطبقة
 تفاوت، والمتطابقات أي المتشابهات والمتساويات، وما لهذا قصد، وما لذلك
 خلق، ولكنه خلقهن طباقاً، إذ لا يوجد بينهما فروج أو تفاوت، لذلك قال
 ربكم تأكيداً لهذا: ﴿فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴿٢﴾ ثُمَّ أَرْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ
 يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٣﴾ والفطور هو الفارق بين الطبقة وما
 انطبق عليه، إنك لن تجد فارقاً أبداً، ولو كان هناك فارق لكانت طبقات).

قال غريب: يا إمام، هل لما تقول علاقة بالآية ﴿يَمَعَشَرِ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ
 إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا
 بِسُلْطَانٍ ﴿٤﴾.

- النفاذ هو الاختراق، والاختراق هو خروج الشيء من شق إلى آخر،
 والأقطار هي الجوانب، والسلطان هنا هو قدرة الله التي يعطيها من يشاء من
 عباده، ولك أن تقرأ سورة الرحمن كلها، فإذا قرأتها بروحك فإنها ستقودك
 إلى حقائق يعجز عنها العقل، ستقرأ عن شواظ من نار ونحاس تمنع النفاذ

والاختراق، وستقرأ عن السماء التي حين تنشق لينفذ منها من أراد الله له أن ينفذ سيكون هذا الانشقاق في شكل ولون الوردية الحمراء «وردة كالدهان».

غريب: ولكن يا إمام أنا قرأت في بعض التفاسير للقرآن أن الآية الكريمة ﴿فَإِذَا أَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ هي خاصة بيوم القيامة.

- لا يوجد شيء اسمه تفسير للقرآن، فالله نزل القرآن ولم ينزل معه تفسيراً له، وإنما ما تقول عنه إنه تفسير هو مجرد رأي لصاحبه، مثلما أقول لك الآن رأيي، وهذا الرأي ينسب لي ولا ينسب إلى القرآن، كما أن سياق الآيات يدل على أن الله يتحدى خلقه في الحياة الدنيا وليس في يوم القيامة، فليس في القيامة تحدياً ولكن تصدياً، إنما التحدي يكون في حياة التكليف لا في حياة الحساب، ووردة كالدهان هذه هي الشكل الذي ستكون عليه السماء التي ستنتشق وتنفرج لينفذ منها الإنسان، والمعنى هنا أنها ستكون منشقة على شكل وردة حمراء، وستكون مدهونة بشيء كالدهن أو الزيت يساعد على الانزلاق والنفاذ، واعلم أن النفاذ لا يكون إلا من مكان لمكان آخر، وما دام قد نفذ إلى مكان آخر فإنه سينفذ إليه ليجد نواويس أخرى للزمن، فلكل مكان حركته الخاصة به التي يتولد عنها زمنها.

- فما هي قصة الجن إذن؟ قالها مصطفى باستفهام تضحك بشبق المعرفة. وما إن نطق مصطفى بكلماته هذه وسؤاله عن الجن حتى أتى لهم من خارج الدار صوت دوي وفرقعة، أصم أسماعهم، وأوقع الرعب في نفس ابن حنبل وغريب، فانتفض غريب فرعاً.



قفز مصطفى سريعًا من جلسته وخرج من الحجرة وكأنه يسابق الريح، وانكمش ابن حنبل وغريب على حالهما، وزاد ارتعاش غريب وكأنه أصيب بحمى، فذرته ابن حنبل بغطاء آخر كان متكومًا على السرير، ثم قال: أصابتنى الرعدة مثلك يا غريب، ترى أي صوت هذا؟

قال غريب وأسنانته تصطك وجسده ينتفض ارتعاشًا: ضرب نار.

- ضرب نار! ولماذا يضربون النار؟! هل ناركم تطفأ بالضرب؟

- ليست نارًا مشتعلة كالنار التي تعرفها، ولكنها نار أخرى.

- أعرف نار الدنيا ونار الآخرة، فهل لديكم نار أخرى؟! ثم أردف: خلق الله الجان من مارج من نار، فهل تقصد نار الجان؟ يبدو هذا لأنها انبعثت بعد أن سألتني مصطفى عن الجان، ولكن كيف تضربونها؟ هذا لعمرى شيء عجيب!

- ضرب النار يا إمام غير هذا وذاك، هذه أداة مصنوعة من الحديد لها ماسورة.

- وما الماسورة؟

- أنبوب أجوف مستدير من حديد، له فوهة، فإذا تحاربنا أمسكنا هذا الأنبوب وحشوناه بشيء حديدي حاد اسمه الرصاص، وخلف هذا الرصاص شيء اسمه البارود، إذا اشتعل انطلقت الرصاص بسرعة لا يتصورها أحد، تحدث هذه الفرقة، وتصيب العدو فتقتله أو تصيبه.

- يا رب سلم سلم، ما هذه الكوارث التي صنعها الإنسان!

- هي مثل كوارث السيف والرمح والقوس، لكل زمن سلاحه.

- وهل سرعة الرصاصة هذه تفوق سرعة السهم؟

- السهم بالنسبة للرصاصة كأنه يمشي الهوينى، وهي تجري بعزم ما فيها.

- يا الله، وعلم الإنسان ما لم يعلم، وهل توجد حروب في ذلك البلد؟

- علمي علمك يا إمام، سيأتي لنا مصطفى بالخبر اليقين.

حين خرج مصطفى يستطلع الأمر كانت زوجته ثريا قد قامت من نومها متفتضة فزعة من صوت الفرقة، هرعت هي الأخرى تستطلع الأمر من شباك الدار، وحين عاد مصطفى سألته فطمأنها، فاستفسرت عن الأضياف أهل القبر، فقال لها: إتهما من أهل الصلاح والتقوى وإنه لا يزال يسمع منهما قصتهما، أنباته أنها اليوم تشعر بنعاس غريب، فسألها عن الأولاد فقالت: إنهم يغطون في نومهم، ثم استأذنته لتذهب إلى نومها وأحلامها، فأذن لها وانصرف إلى حجرة نور ليظمن الضيوف.

- خير إن شاء الله يا جماعة الخير، هؤلاء من خفر القرية يقومون بضرب النار في الهواء بناء على أوامر العمدة؛ إذ إن هناك بعض اللصوص يقومون كل حين في المسافة الفاصلة بيننا وقرية «حفنا» بتثبيت المارة وسرقة متاعهم ونقودهم، لذلك فإن خفر القرية يطلقون الرصاص على الفاضي لتخويف أي لص يريد أن يفعل فعلته السوداء.

قالها مصطفى ثم جلس وهو يتتسم، ثم أردف: أعمل لكما قهوة؟

رد غريب: قهوتي سادة.

استفسر ابن حنبل. وما القهوة؟

رد مصطفى. اشربها يا إمام، إنها لذيذة وتنبه الحواس.

- أنا أعرف الشاي ولكنني لم أسمع عن القهوة من قبل، وما دمت لا أعرفها فلن أشربها.

- ستعجبك.

- والله يا أخي لو دفعت لي مال الدنيا حتى أشربها ما شربتها.

قام مصطفى خارجاً من الحجره وما هي إلا برهة حتى عاد بصينية عليها «كنكة» القهوة وعدة فناجيل، صب لغريب يوسف قهوته، وصب لنفسه، ثم سأل الإمام:

- وهل القهوة حرام يا فضيلة الإمام؟

- لا أعرف ولا أستطيع أن أحرمها، فأنا أجهلها، ولكنني لن أشربها، ولكن لماذا قلت لي هذا الاسم الغريب «فضيلة»؟

- نقول فضيلة الأستاذ أو الشيخ أو الإمام للعلماء الكبار من أمتنا.

- أنتم تقدسون العلماء؟

- لا ليس تقديسًا، ولكنهم يقولون: إن لحم العلماء مسموم.

- مسموم!

- نعم.

- وما معنى مسموم، ما المراد بهذه الكلمة؟

- العسماء من أمثال فصينتك يا إمام، أو بياء لله، و احديث - وفصينتك سيد العارفين - يقول « من عادى لي وليًا فقد أذنته بالحرب »

- وهل تعادونهم؟

- وهل نجرؤ؟! -

- انظر يا مصطفى، لا تتعقب أي إنسان في معاييه الشخصية إلا إذا كان سيتولى أمرًا من أمور الأمة، وقتئذ وجب على من يعرف عيب هذا الإنسي أن يخبر به الأمة، ولك وللأمة أن تتعقب أي عالم في رأيه وفقهه مهما علا شأنه، لا تجعل من عبارة «لحم العلماء مسموم» هذه التي لا أدري من قالها، حاجزًا يحول بينك وبين الحق الذي تراه، جادلت امرأة عمر بن الخطاب في المهور، ولم يقل لها أحد لحم الصحابة مسموم، فانصاع عمر لرأيها وقال: أصابت امرأة وأخطأ عمر. لا تقدسوا العلماء كما قدستهم الأمم السابقة فتهلكوا.

-- يا إمام حديثك شيق، قطع الرصاص كلامك عن الزمن والمكان والجن، ونريد أن نصل ما انقطع.

تدخل غريب قائلًا: لقد انقطعت عن دنياكم منذ أن تكلم الإمام بهذا العلم الذي لم أسمع من قبل، وكلي شوق لاستكمال الحديث.

أغمص الإمام عينيه يستعيد الحالة الروحية التي كان فيها، وأخذ ينسحب بروحه تدريجيًا من دائرة المكان والزمن.

اسألتي عن الحس الدين جعل الله سبحانه من النجوم رجوماً لهم، كانوا يجوسون بين السحاب المنطبقات فيخترقونهن طبقًا عن طبق، وحين يخترقون

تسمعون لأحداث وأخبار أزمة لم نأت بعد ﴿ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا
لِلنَّاسِ ﴾ فأوقف الله هذا التسمع بأن وضع حرم وشهنا وجعلها رحوفا
للسياطين التي تريد الاحتراق، فإن نعدت على حاصبة خلقها وانطلقت.
احترقت، وفنيت قبل أن تصل لمبتغاهها، ولكن الله سبحانه أعطى من يشاء
من خلقه علماً، يركب به طبقاً عن طبق، وينتقل رمزاً عن رمز، وأقسم الله
على ذلك بقوله ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقِ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾
لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ أي ستحترقون هذه الطباق، ومنتقدون من طبق
لطبق آخر يخضع لنواميس أخرى، وقد أقسم الله هنا على ذلك بدلائل المكان
والزمان، الشفق، والليل، والقمر).

قاطع مصطفي ولكننا يا مولانا لم نسمع عن أحد احترق الرمن وركب
طبقاً عن طبق، حتى الأنبياء لم يفعلوا ذلك، وأهل الكهف لم يفعلوا هذا،
ولكن الله أنامهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً، و«عزيز» أماته الله مائة عام،
وهو بذلك لم يتقلهم من زمن لآخر، ولكنه أخرهم لزمن آخر، أفيفعلها
الأقل منهم؟

انبعث صوت ابن حنبل من أغواره السحيقة:

(بل هناك من احترق حاجز الزمان والمكان، نبي، وولي)

قال غريب يوسف وكأنه يعرف الإجابة: قل لنا عنها.

- أنت تعرف يا غريب ذلك الرجل العجيب عبد الله الرصافي، كان
يتحدث معي ومعنا، وقال لي ولنا إشارات، إلا أن قلبي وقتها لم يستقبلها

للحالة التي كنت فيها، نحدث معنا عن الزمن وانطلاقاته، والمكان وحركته، ولكن قلبي كان غافلاً وقتئذ، إلا أن ذلك القلب الذي رشف من محبة الله أصغى الآن للذي قاله لي من قبل، فقلبتَه على أوجهه، وأجريت عليه ما أعرفه من الأحاديث، وهالك ما جرى في خاطري.

(كل نبي من الأنبياء اخترق سنناً كونية، بإذن الله ومشيتته وعلمه الذي بث قدرًا منه فيهم، إبراهيم عليه السلام اخترق خاصية النار المحرقة فكانت بردًا وسلامًا عليه، وإسماعيل اخترق خاصية الذبح، وعيسى اخترق خاصية الموت والحياة فأحيا الله به الموتى، وأجرى الله على يديه الشفاء للمرضى، ثم رفعه الله إليه ليبقى متخطيًا زمنًا لا نعرفه في مكان نجهله، وانظر للسنن الكونية التي اخترقها موسى و...).

عاد مصطفى لمقاطعته: كل هذا نعرفه يا مولانا، ولكنك لم تقل لنا عن اختراق الزمن، أنت قلت منذ دقيقة: إن الزمن اخترقه نبي وولي فمن هما؟
(أما النبي فهو سيدنا محمد ﷺ، وحادث الإسراء والمعراج شاهد على اختراقه حجب الزمان والمكان، جيء له بالبراق، ونحن لا نعرف عن هذا البراق إلا أن اسمه مستمد من البرق، ويقولون إن اسمه جاء من البريق ومن شدة ضوئه، فكان الرسول ﷺ ركب دابة من الضوء، حملته بقواعدها وليس بقواعدها، بستتها وليس بستتنا، بناموسها وليس بناموسنا، وذهبت به إلى القدس حيث صلى بالأنبياء، وشرب اللبن فاختر الفطرة، ثم عُرِج به إلى السماوات، ولا نعرف كيف عرج به، لكننا نعرف العروج).

مصطفى: وما العروج؟

(عَرَجُ الثَّوْبِ أَي خَطَطُهُ خَطُوطًا مَلْتَوِيَةً، وَالْعُرُوجُ هُوَ السَّيْرُ أَوْ الصُّعُودُ فِي خَطُوطٍ مَلْتَوِيَةٍ مَتَعَرِّجَةً ﴿تَعْرِجُ الْمَلَكِيَّةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ عروج الملائكة والروح هو الصعود بالتواء، والزمن الذي استغرقه كان خمسين ألف سنة وفقاً لناموس العروج، وهذا يدل على اختلاف الأزمنة.

وقد شهد الرسول ﷺ كل مشاهد الإسراء والمعراج، واستغرق زمناً لا نعلم مقداره، وعاد إلى بيته قبل أن يبرد فراشه، وكانت الليلة شاتية باردة، فأنكرت قريش ذلك وقالت وفقاً لعلمها: نَحْنُ نَضْرِبُ إِلَيْهَا أَكْبَادَ الْإِبِلِ الشَّهْرِ وَالشَّهْرَيْنِ، وَيَذْهَبُ مُحَمَّدٌ إِلَيْهَا فِي لَيْلَةٍ! فماذا لو علموا أنه عاد بمقدار أن يتجرع أحدهم شربة ماء، كانت سنة الزمن الذي دلف إليه غير سنة زمننا، وسنة المكان غير سنة مكاننا، لذلك ذهب وعرج به ونزل وعاد دون أن يمر عليه الزمن الخاص بنا، ولكن مر به الزمن الخاص بالطبق الذي دخل إليه ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾.

قال غريب يوسف وقد اندهش لمقال الشيخ الإمام: وهل رأى الرسول ﷺ «الله» في هذا المعراج؟

(سنة الله في الحياة الدنيا أننا لا نراه بالنظر، إذ إنه خلقنا على هيئة وحالة لا نستطيع أن نستقبل النظر إليه سبحانه، ولكن الأمر في جنة الخلد يختلف عن الدنيا، فالله سبحانه يقول: ﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ أي أن

رؤية الله بالنظر والبصر ستكون لطائفة من أهل الجنة، ولكن سيدنا موسى عندما أراد أن يرى الله بالنظر في الدنيا قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ أي أنه طلب الرؤية بالنظر ﴿أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ ولكن الله أخبره أنه لن يراه بهذه الطريقة فقال سبحانه: ﴿قَالَ لَنْ تَرَنِي﴾ لماذا لن يراه بالنظر؟ لأن بشرية موسى لم تهيأ لذلك، ومكانية المكان لا تسمح بهذا، ثم أثبت الله له هذا فقال سبحانه: ﴿وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنَّ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَنِي﴾ أدر يا موسى نظرك وصدق في هذا الجبل، وسيتجلى الله له، وهذا معناه أن الله تجلى، وقادر على أن يتجلى للمخلوق، لأن الجبل من خلق الله ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ هذه هي لحظة التجلي ﴿جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ لم يتحمل الجبل بقوته وثباته وشموخه وحديدته وصخريته هذا التجلي فتفتت، الله تجلى للمخلوق والمخلوق بمكانه وزمنه لم يهيا للاستقبال قانهار).

استفسر مصطفى مشدوها: معنى ذلك أن الرسول ﷺ لم ير الله في المعراج؟ (أما سيدنا موسى فكان قد طلب الإراءة وليس الرؤية، وسيدنا محمد دخل في الرؤية وليس الإراءة).

غريب يوسف: وما الفارق يا إمام؟

اندفع مصطفى قائلاً: أنا أول مرة يا إمام أسمع عن كلمة إراءة هذه، هل هي من كلمات عصرك وزمنك؟

سكت ابن حنبل قليلاً وكأنها يقده فكره لِيَسْطُ الحديث حتى يصل إلى مداركها، ثم قال: ألم يسمع أحدكما عن الإراءة من قبل؟

صمت غريب، ونطق مصطفى: أنا عن نفسي لا أعرفها أبدًا.

قال ابن حنبل لمصطفى: هل خزينة الملابس المغلقة هذه، فيها جلباب؟

- نعم يا إمام.

- أرني أنظر إليه.

فقام مصطفى وفتح الدولاب وأحضر الجلباب.

قال ابن حنبل: كان الجلباب غائبًا عن بصري وبصرك، وأنا لم أكن أعلم بوجوده، إلا أنك كنت تعلم بوجوده يقينًا مع أنه محبوب عن بصرك مثل محجوبيته عن بصري، أليس كذلك؟

- هذا صحيح.

- الطلب الذي طلبته منك الآن هو «طلب الإراءة».

- والآن هذا الجلباب أماننا، وغريب الذي يجلس معنا يستطيع أن يراه،

هذه هي الرؤية.

- والله يا إمام أنت شوقتنني لموضوع الإراءة هذا، أنا الآن معي مفتاح

الفهم ولكني أريدك أن تشرحه لنا على حالة سيدتنا موسى، وحالة سيدنا

محمد.

(طلب موسى وهو بجوار الجبل على الأرض التي نحيا عليها - في الحياة

الدينا - النظر بالبصر ﴿أَرِنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ﴾ طلبها من القادر، طلبها نظرًا،

والنظر لا يكون إلا بصراً، وهذه هي الإراءة، أي أن المرید لا يملك، فطلب

زِمَكَان

من المراد الذي يملك، أن يمكنه من النظر، والمطلوب النظر إليه هو القادر، فقال له القادر: حواسك في الدنيا لا تقدر على رؤية القادر. ودليل له على ذلك بالتجلي لخلق من خلقه وهو الجبل، فحدث ما حدث... ولكن الرسول ﷺ لم يره في حياتنا الدنيا على الأرض التي نحيا عليها، في مكة، أو في القدس، ولم يره بسنن الحياة الدنيا ونواميسها، ولكنه رآه في دنيا أخرى غير دنيانا، وزمن آخر غير زمننا، ومكان آخر غير مكاننا، هو سدرة المنتهى، وبحواس هيئت لهذه الرؤية في هذا الموقف، أما صاحبه جبريل فلم يكن قد تهيأ لهذه الرؤية؛ لذلك أحجم وخاف أن يحترق، ولكنه قال للرسول: تقدم أنت فستحترق. إذ كان يعلم أن الله أعطاه القدرة على ذلك، فتقدم الرسول واخترق، فرأى الله كما قال ابن عباس بالفؤاد وليس بالبصر ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ (١١) أَفْتَضَرُّونَهُ عَلَى مَا يُرَى (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ﴿﴾.

قاطعه غريب ليستزيده: سمعت أن بعضهم قال يا إمام إن الرسول لم يبر في هذا الموقف إلا سيدنا جبريل، ويقولون: إن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت ذلك.

(كيف تكون لجبريل وهناك من يباري فيها؟! وكيف يكون لم يبر إلا جبريل وتكون آية كبرى! وجبريل كان يتنزل على رسول الله ﷺ كل حين! وكيف يكون قد رأى جبريل بالفؤاد فقط وهو الذي يراه في الحياة الدنيا بالبصر! ثم إن الله قال: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ وهناك قراءة تقول: (لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى) أي إنه رأى الآية الكبرى من آيات ربه، وهي آية رؤية الله، ولكن النفي الذي قالته السيدة عائشة - رضي الله عنها - كان عن رؤية البصر).

قال غريب: أو لم يره بالبصر؟

(هناك من قال: إنه رآه بالبصر، ولكن الأمر عندي غير ذلك، إذ إن من يستقبل فعل الرؤية على أنه إدراك بالبصر لا يعرف حقيقة اللغة وفقهها، فإذا جاء لفظ الرؤية هكذا «رأى» دون أن تتقيد بالبصر، فإنه لا يجوز صرفها إلى الرؤية البصرية دون غيرها من وسائل الإدراك؛ لأن الرؤية أوسع وأعم وأشمل من المشاهدة والبصر والنظر، فالرؤية لغة غير النظر والبصر والمشاهدة، وقد وردت الرؤية في كثير من الآيات في القرآن الكريم على نحو يدل على الإدراك بحاسة غير حاسة البصر، ويدل على الإدراك بالفؤاد والعقل والقلب، ومن ذلك قول الله سبحانه وتعالى في سورة النحل: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ﴾ والمراد برؤية العذاب إشرافه عليهم، والكثير من آيات «ألم تر» اتفق المفسرون على أن معناها ألم تعلم.. فالرؤية هنا هي العلم، مثل قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾؛ أي ألم يصل إلى علمك.

وقوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ و﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾؛ أي: ألم تعلم، ولذلك فإن قوله في سورة النجم: ﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ يشير إلى أن الرؤية كانت إحاطة فؤاد وليس إحاطة بصر، وإحاطة الفؤاد هي أحد أشكال الإدراك، أما الكلمة في اللغة التي تعني إدراك الأشياء بالعين فهي «البصر» كقوله سبحانه وتعالى في سورة البقرة: ﴿وَتَرَكُوهُمْ فِي ظُلْمَةٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ وفي سورة الأعراف: ﴿وَهُمْ أَعْيُنَ لَا يَبْصُرُونَ بِهَا﴾ وفي سورة يونس: ﴿وَمَنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ وفي سورة مريم: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ وفي سورة طه: ﴿قَالَ بَصُرْتُ

يَمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ. ﴿ أما كلمة النظر فتستخدم لعة أيضا للدلالة على اتجاه الإنسان بعينه إلى الأشياء، ففي سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ قَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَنْظُرُونَ ﴾ وفي سورة البقرة: ﴿ فَأَنْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَأَنْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ ﴾ ومع ذلك قد يستدير وجهك ويتجه نظرك إلى شيء ولا تبصره، فالله يقول في سورة الأعراف: ﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَىٰ الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يُنظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ لذلك فإننا نقول أحياناً: نظر إلى القمر فأبصره، ونقول: رغم أنه نظر إليه فإنه لم يبصره، لذلك كانت رؤية الفؤاد أكثر إدراكاً من رؤية البصر).

بدا الأمر عصياً على إدراك مصطفى فقال للإمام: أنا أفهم كلامك جملة واحدة، ولكن يستعصي عليّ أن أفهم أن هناك رؤية يراها القلب ولا يراها البصر.

رد عليه الإمام وهو يتبسط في الحديث: ألا تنام كل يوم؟

- بلى يا سيدنا، أنام مثل باقي خلق الله.

- ألا تغمض عينيك في النوم؟

- كلنا نغمض عيوننا، السمك فقط هو الذي ينام وعيونه مفتوحة.

- أليس بصرك هو الذي يلتقط صور الموجودات فيفهمها عقلك؟ ومع

ذلك فإن أجفانك في النوم منطبقة، لا يتسلل إليها بصيص ضوء، وأنت في

سبات عميق، وترى الرؤيا فيعقلها عقلك، وتظهر أمامك الموجودات، تماماً

كإبصارك إياها.

- معنى هذا أن الرسول رأى الله في المنام.
- رآه في اليقظة بالفؤاد، تجلّى الله لفؤاده بالكاف والنون، عند سدره المنتهى، وهذه دنيا أخرى لا نعرفها تعلو على أمكنة وأزمنة الحياة الدنيا وطباقتها.

- وما الكاف والنون يا سيدنا؟

- ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾.

ساد السكون في المكان، وأنفاس غريب يوسف تتردد متلاحقة، والعرق يتفصد من جبينه فصدًا، ومصطفى يجس جبين جده لعله ألمّ به شيء فألمه، فوجد هذا الجبين الأبيض المتلألئ باردًا، إلا أن يد غريب كانت ترتعش في سكون.

- هل أحضر لك شرابًا يا جدي؟

- لا عليك، لا تخف عليّ، تتابني هذه الحالة دائمًا في جلسات الذكر.

- لا أعرف كيف أناديك، فأنا في سنّك تقريبًا، ولكنك جدي حبيبي

الذي خطوات خطواتي الأولى في الحياة في حجره.

ابتسم ابن حنبل وقال لها: أنا ولدت قبلكما، وأنتما قد تكونان أسن مني، هذا أمر الله.

قال غريب موجهًا كلامه لمصطفى: دع صلة الدم التي بيننا فهي في علم الله، ونزلت إلى علمك أنت، إلا أنها لم تنزل إلى علمي بعد، وقل لي: يا عمدة. فهكذا يناديني الناس في دنياي.

أخذ كل واحد منهما يفكر في الحال التي هو فيها، لاشك أن الأفكار كانت تتأهب جميعاً وتؤرق عقولهم، وتلهب مشاعرهم وأفئدتهم، كانت الهواجس هي التي تسيطر عليهم عندما أخذوا في الحديث، إلا أن هذا الإشراق الذي فتح الله به على ابن حنبل هدهد تلك القلوب الخيرية، فهجعت هواجسهم واستكانت.

أصبحت هذه القصة الغريبة هي واليقين سواء عند مصطفى، وفهم غريب يوسف ما كان قد استغلق عليه، ومع ذلك ظلت أشياء تناوش مصطفى، فقال لابن حنبل:

- ولكن يا سيدنا الإمام، هذا العلم الذي من لدن الله هو للأنبياء فقط؛ لأنهم هم الذين يبلغون الرسالات، فكيف يكون للبشر العاديين، وأنت في نفس الوقت كنت تقول منذ قليل: إن علم اختراق الزمن والمكان هو لنبي وولي.

(من قال إنه للأنبياء والرسول فقط ! الله سبحانه قال عن يوسف عليه السلام ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۖ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ وقال عن موسى عليه السلام ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَسْتَوَى ۖ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۖ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ .. والمحسن هو من يعبد الله كأنه يراه.

بدرت من الإمام حركة أظهرت أنه يقبض بيمينه على شيء فداعبه مصطفى:

- وما تلك التي بيمينك يا إمام؟

انفجرت أساريره وقال: هي شعرات للرسول ﷺ أتبرك بهن، كن معي
والمعتصم يجلدني.

كلي شوق يا إمام أن أعرف قصة الولي الذي اخترق حجب الزمن والمكان:
قالها غريب يوسف وهو في حالة من الوجد ملكت عليه شعوره.

(كان الرجل الذي يجلس في مجلس سيدنا سليمان من الرجال العادين،
تنظر إليه وأنت في الطريق فلا تجده مختلفاً في شيء، وقد لا تتبه له إذا كان
في مجلسك، وإذا أراد سيدنا سليمان أن يُحضر عرش بلقيس ملكة سبأ قال
للذين كانوا يجلسون في بلاطه: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾
كان سليمان قد علم أن بلقيس تركت عبادة الشمس وستأتي له مسلمة لله
وحده بلا شريك، فأراد أن يظهر لها قدرة الله الذي استسلمت لعبوديته حتى
يُمَكِّنَ الإيَّمان من نفسها، وكيف تظهر قدرة الله هنا؟ تظهر كما ظهرت على
يد موسى، حينما ألقى عصاه فالتقمت ما يأفكون، وكما ظهرت على إبراهيم
فكانت النار بردًا وسلامًا عليه، والله سبحانه سخر الجان والريح لسليمان
وعلمه منطق الطير، أراد سليمان أن يستظهر قدرة الله في تلك الأشياء التي
سُخرت له ويربها إيَّاه، ففكر، هل الريح تقدر على حمل عرش بلقيس وتأتي
به إلى مجلسه قبل أن تدخل الملكة إلى قصره وهي الآن على الأبواب، لو
أمرها لأطاعت فهي مسخرة له، ولكن ناموس خلقها لا يمكنها من هذا،
فالملكة على الأبواب والعرش بعيد والريح تغدو وتروح وفقًا لسرعتها التي
ستقطعها، وللمسافة التي سترحل إليها، فقد علمه الله أن الريح غدوها شهر
ورواحها شهر، وهو لو ارتكن إليها فلن يستطيع أن يحقق مقصوده، فهل
الطير يحقق مقصوده، لن يستطيع لا بالسرعة ولا بالقوة، إذن فليكن الجن،

وهنا وفي تلك اللحظة قال عفريت من الجن - وعفاريت الجن هي الأقوى والأسرع - ﴿أَنَا إِلَيْكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ أي: بمقدار أن تنتهي من جلستك هذه، وقبل أن يبرم سليمان أمرًا، قال ذلك الرجل الذي كان في مجلس سليمان، ويقولون: إن اسمه آصف بن برخيا).

ارتفع صوت مصطفى: آصف بن برخيا، هذا الذي ذكرت لنا اسمه عندما رأيت التلفزيون؟

تدخل غريب: وسبحان الله يا إمام، الله سَخَّرَ الْجَانَّ وَالرِّيحَ لِسُلَيْمَانَ، وَعَلَّمَهُ مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَجَعَلَ لَهُ هَيْمَنَةً عَلَى كُلِّ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، كَانَ لِسُلَيْمَانَ مَلِكٌ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَأْتِ الْعَرْشَ عَنْ طَرِيقِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي سَخَّرَهَا اللَّهُ لَهُ، وَلَا عَنْ طَرِيقِ الْعِلْمِ الَّذِي أَعْطَاهُ لَهُ، وَلَوْ كَانَ لَدَيْهِ عِلْمٌ بِكَيْفِيَّةِ إِحْضَارِ الْعَرْشِ فِي لَأَزْمَنٍ لَا يَسْتَعْمَلُ هَذَا الْعِلْمَ بِنَفْسِهِ وَلَمَّا طَلَبَهُ مِنْ أَحَدٍ.

استكمل ابن حنبل (هذا صحيح لذلك) ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا إِلَيْكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ هذا الرجل وصفه الله بأن عنده علمًا من الكتاب، وهذه العنودية كانت من فضل الله عليه، والذي عنده ليس هو «العلم» فالله هو العليم صاحب العلم، أما هذا الرجل كغيره من المحسنين والأنبياء والرسل كان لديه علم؛ أي قدر قدره الله له، وبهذا العلم الذي عنده ركب طبقًا غير طبق حياتنا، ودلف إلى مكان له سنن كونية أخرى وزمن له مقاييس أخرى، وسار فيه ما شاء الله له أن يسير، ثم أحضر العرش، وعاد قبل أن يرتد طرف سليمان إليه، وربما يكون قد سار في المكان الآخر شهورًا وسنين، ولكنها كانت بالنسبة لزماننا طرفة عين، وليعلم كلاهما أن سليمان لم يستطع إحضار

العرش بالأشياء التي سخرها الله له كما قال غريب منذ قليل، إذ عجزت هذه الأشياء - بنواميسها الخاصة - مع خروقتها للنواميس الكونية، ولكن العرش جاء عن طريق رجل أعطاه الله علمًا غير الذي عند سليمان وإلا لكان سليمان قد ركن إلى العلم الذي عنده، وعندما رأى سليمان العرش مستقرًا عنده ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾ أي: إنه لا حيلة لي ولا حيلة لك أيها الرجل الذي عنده علم، في إحضار العرش، ولكن العرش بفضل الله محمول).

قال مصطفى وأنفاسه تتلاحق من فرط الدهشة: سبحان الله، كان حقه آصف بن برخيا يحضر لزمنا ويأخذ عرش مبارك ويريجنا من غير ثورة.

غريب يوسف: مبارك؟! من مبارك يا مصطفى؟

- سأحكى لكما، أصلها حكاية طويلة.. يحزنك يا مبارك ويحزن أيامك، لكن آخذ نفسي وجدي يهدأ وسأقول لكما كل شيء.

أسند ابن حنبل ظهره إلى ظهر الأريكة والتمس رشفة ماء فناوله مصطفى الكوب، أما العمدة غريب فكان في حالة الرجفة التي اعترته مذ بدأ ابن حنبل في الكلام، ومصطفى هذا المكلم في ولده شعر أن الله وضع يدًا حانية على قلبه، قال ابن حنبل لمصطفى وهو يزدرد ريقه: أخبرنا يا مصطفى عن أحوال هذا الزمن وأخباره، وما الذي حدث في الحياة الدنيا، وما الذي جرى على الخليفة المعتصم والمسلمين، وهل بغداد هي حاضرة الخلافة، وما الذي في مصر؟ ومن هو مبارك الذي ذكرت اسمه الآن، ولماذا دعاؤك عليه بالحزن؟

أجاب مصطفى وهو يقدح زناد فكره: اسمع يا مولانا وصل على النبي، عن المعتصم فهذا موضوع قديم يا إمام، كنا قد أخذناه في التاريخ، وأعرف

أنك حاربت عن الأمة في فتنة خلق القرآن، لكنني لا أعرف أكثر من ذلك وما الذي حدث بعد هذا، ولكننا كنا نحفظ مقولة هي «وامعتصماه» ولا أتذكر ظروفيها، فهل نقول «وامعتصماه» لهذا المعتصم الذي جلدك، أم لمعتصم غيره؟ الله أعلم، والكذب خيبة.

غريب يوسف: إذن قل لنا أخبار هذا الزمان.

مصطفى: هل أحكي لك يا جدي... يا.. يا حضرة العمدة، أخبار السعيدية والعائلة؟

غريب: لا تحك لي شيئاً عن هذا، لا أريد أن أخترق عوالم تؤرقني، ولكن قل لنا عن أحوال مصر والعرب والمسلمين.

أخذ مصطفى يروي لهم قصة العالم الذي نعيش فيه وأحواله، والأمم التي تسيدت علينا، والحكام الطغاة الذين حكمونا، والعراق، وإيران، وأمريكا، والخليج، واليهود، وفلسطين، والمسجد الأقصى الأسير الذي ينتهك في كل لحظة دون أن يتحرك المسلمون والعرب إلا بالشجب والتنديد، قال لها والدموع تظفر من عينيه أبيات شعر حفظها وانفعل بها:

يا جالسون على العروش ألم تروا	أن العروبة من يهود تغتصب
دار الزمان ولسنا ندرى نصرة	بغداد أرض للمنايا والعطب
هذي الجموع تفسدت في قدسنا	ورجالنا مثل الصبايا تنتحب

ثم بدت الفرحة على قسامات وجهه وهو يتحدث عن ثورة مصر وثورات الربيع، ثم انتهى وجهه إلى خيبة الأمل وهو يحكي عن نتائج هذه الثورات، وقال حينها: والله احنا ناس حزاني، حتى الطيب ليس لنا فيه نصيب.

ثم استطرد في حديثه فتكلم عن الحركة الإسلامية، والجماعات الإسلامية، والإخوان، والدعوة السلفية، والمشروع الإسلامي والنهضة الإسلامية، والأزهر الشريف ومدرسته العلمية، وهلم جزءًا.

خيبة أمل كبيرة مغموسة في بحر الاستفزاز افترست ابن حنبل وغريب وهما يستمعان إلى حال الأمة: «هل هذه أمة أم غُمة؟» هكذا قال ابن حنبل وهو يتصعب على مآلنا.

استطرد مصطفى عاطفًا على أحوال الدنيا ومستجداتها العلمية والاختراعات الحديثة، والطائرات، والسيارات، والكمبيوتر، وشبكات التواصل «الإنترنت» وأسلحة الحرب الحديثة، وكل شيء..، انفعَل ابن حنبل مع كل حديث عن مخترع من المخترعات وتفاعل مع حكايته، ولكن دهشة غريب كانت أقل لأنه كان قريب عهد بهذا الزمن، ثم تحدث مصطفى عن لغات العالم: الإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، والروسية، وروى لهما بأسى كيف أن اللغة العربية تأخرت، فبعد أن كانت في الحضارات السابقة هي لغة العلم، أصبحت الآن لغة ثانوية لا يحفل بها العالم.

ثم عرج مصطفى على قصته هو، ووفاة ابنه، وانفطار قلبه حزنًا على هذا الحبيب الذي غيبه الثرى، وكيف أن هناك رجلًا غريبًا جاء له في المنام وحثه على الذهاب إلى القبر، فذهب واستمع إلى أصواتها، فكانت النجاة هي سبيلها الذي كتبه الله لها.

كان مصطفى يتكلم، والشيخان يستمعان، لا تظن أبدًا أنها كانا يستمعان

بأذانهما، ولكن كيان كل واحد منهما تحول إلى أذن كبيرة بحيث لا مجال في جسد أيهما لأي حاسة أخرى، هل تعرف كيف يغطس الإنسان في القصة التي تُروى له ليعيشها؟ كان هذا هو حالهما.

بعد أن انتهى مصطفى من كلامه راح ابن حنبل يحدق في الحائط وهو شارد الذهن، أعمار مضت، وأعمار انقضت، دنيا ذهبت، ودنيا جاءت، أمم ارتفعت، وأمم تهافت، حضارات انقضت، وحضارات بزغت، أقوام ماتوا، وأقوام ولدوا، لغات انظمرت، ولغات بُعثت، ودائرة الحياة تسير في مسارها الطبيعي لا تنقطع أبداً، لم تتوقف الحياة لموت أحد ولو كان أعظم العظماء، حتى الرسول ﷺ، مات واستمرت الحياة، يقول مصطفى إن علمهم الحديث أثبت أن القمر يطوف حول الأرض، وهي تطوف حول الشمس، هكذا كنا نعرف، وهكذا قال لنا خالق القمر والأرض: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ﴾، ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آتِلُ سَائِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ ثم قال لنا مصطفى إن الشمس تطوف، كل الكون يطوف ويطوف، ونبقى نحن، فكان أن عبَدنا الله له بالطواف حول الكعبة، ومع ديمومة الطواف، تتواصل الأعمار مع الأعمار، فيكون الجد والابن والحفيد وحفيد الابن وهكذا، وتظل سلسلة الخلق إلى أن يقضي الله أمره فيبتلعنا يوم القيامة، ثم يقذفنا يوم البعث والنشور، وكل هذا حدث في علم الله، فنحن الآن ولدنا، ومتنا وبعثنا، وحوسبنا، ودخل من دخل إلى الجنة ودخل من دخل إلى النار، ودخل الخلق في رحمة الله.

غريب يوسف كان في حالة الوجد والصبابة التي تحتويه في جلسات

ذكر الله، ظل جسده يرتعش فترة ومصطفى يبلس يده بالماء ويمسح على وجهه حتى استعاد رباطة جأشه، واستنامت أنفاسه على وتيرة هادئة.

قطع ابن حنبل فترة الصمت: من هم يا مصطفى علماء السلفيين الكبار، وعلماء الإخوان، وعلماء الأزهر.

- علماء الأزهر في الجامع الأزهر وجامعته، وعلماء الإخوان في مكتب الإرشاد، وعلماء السلف يا إمام في كل مكان وكل محافظة.

- من أعلم شيوخ الأزهر؟

- الذي أعرفه هو شيخ الأزهر يقولون عنه إنه عالم كبير، وعن نفسي رأيت في التلفزيون شيخاً أزهرياً قال درساً جميلاً، وكلامه كان مختلفاً عن باقي الشيوخ.

- من هو؟

- اسمه الشيخ سعد الدين الهلالي.

- ومن أعلم شيوخ الإخوان؟

- الإخوان أهل سياسة وحكم، ويقولون: إن لديهم علماء ولكنني لا أعرفهم.

- قل لي عن السلفيين، من أكبرهم وأعلمهم وأشهرهم؟

- أما عن من أعلمهم فالله أعلم، كل واحد منهم يقول: إنه أعلم أهل الأرض، وكلهم حنابلة وعندهم شهرة كبيرة، لكن أشهرهم واحد اسمه أبو إسماعيل الرويني، ومعه الشيخ محمد حسانين.

زَمَكَان

- حنابلة! كيف؟

- يتبعون مذهب الإمام ابن حنبل والإمام ابن تيمية والإمام محمد بن عبد الوهاب.

- هل تقصد بابن حنبل أنهم يتبعونني؟

- نعم، عفواً، فقد نسيت أنك ابن حنبل شخصياً، علماء السلفيين كلما سألناهم عن شيء قالوا: قال ابن حنبل، أو ابن تيمية، ومن تضيقهم علينا جعلوا حياتنا كلها حراماً.

- ومن هو ابن تيمية؟

- يا دين النبي ألا تعرف ابن تيمية يا إمام؟!

- لم أسمع عنه في زماني.

- يقولون: إنه من علماء مذهبك.

- ولكنني لست فقيهاً وليس لي مذهب، أين أنا من الشافعي ومالك والليث بن سعد؟

تكلم غريب بعد أن ظل فترة سادراً في صمته: يا إمام لنا مهمة علينا أن ننجزها، يجب أن نختلط بالناس لنعرف ما هي الفتن التي تتعرض لها الأمة، ويجب أن نعاينها ونقف على خبرها، وأنت إمامنا، فعليك أن تواجهها كما واجهت فتنة خلق القرآن، وأنا معك، لن أتركك، سأتبعك حتى تُعلمني مما عَلِّمتَ رشداً، وسأنصرك إن شاء الله.

قال مصطفى، وحاله يختلف عن الحال الذي كان يحتويه من قبل : وأنا معكم، أنتما أمانة أرسلها الله لي، وسأحافظ عليكما ما وسعني الجهد. والله على ما أقول وكيل.

قام مصطفى، ووضع لكل واحد منهم بعض الملابس في حقيبة، وفي أثناء ذلك أدخل كل واحد منهما الحمام ليغتسلا مما علق بهما من أتربة وعرق ودماء. تخلص ابن حنبل من الأربطة الطبية التي وضعها مصطفى على ظهره لتمنع تلوث الجروح وارتدى جلبابًا أبيض وسترة صوفية بنية اللون، وحين طلب عمامة عثر له مصطفى على طاقية فرضي بها، وطلب غريب يوسف طربوشًا، فأخبره مصطفى أن الطربوش قد انقرض، وأعطاه هو الآخر طاقية رأس، وبعد أن عاد النشاط يسري في جسديهما، وأخذت الدماء تجري في عروقيهما، تركهما مصطفى هنيهة ثم عاد قافلاً وقد ارتدى جلبابًا جديدًا، وأخذ يجد بعض الأوراق النقدية ووضعها في جيب سرواله.

الحق أن مصطفى كانت نفسه قد عافت الحياة، وتغلب عليه شعور الرغبة في العزلة وهجر كل الناس، وترك لحيته ولم يهتم بهندامه، وكان إذ ينفرد بنفسه يأخذ في البكاء، وحين الصلاة كانت دموعه تنهمر دون أن يتحكم فيها، حتى أن يستحضر معاني الآيات والأدعية، فكثر كثيرًا أن يترك البلد ويهجرها ويذهب إلى حيث لا يعرفه أحد، يجلس على الأرصفة وينام في المساجد، لا يحمل همًا لدنيا، ولا ينتظر إلا الآخرة، ولولا أن إيمانه كان راسخًا لفكر في الموت واستشرفه، لذلك كان النوم بالنسبة له بديلًا عن الموت، فاستبدت به الرغبة في النوم، فكان يقضي يومه ما بين زيارة نور في الجبانة، والنوم على الأرض في حجرته، ولعل الرغبة في الانعزال عن الناس،

وهجر البلد، والسياحة في بلاد الله الواسعة، ثم إدمان النوم واستطيابه، كل هذا كان شكلاً من أشكال الهروب من الظامة التي وقعت على رأسه؛ إذ لم يستطع أن يواجهها فكانت هذه هي وسائله في الهروب، فالإنسان وهو في سبيله للدفاع عن نفسه ضد غوائل الأيام يتبع وسائل كثيرة أغلبها هجومية، فإذا وجد أن ما تعرض له أكبر من قدرته على المواجهة اختار طريق الهرب، والنفس تملك في ذلك حيلة كثيرة، لذلك عندما اشتدت وطأة الحزن عليه مع عدم قدرته على ترك البلد وهجر الناس، أصدر عقله الباطن ونفسه الخفية قراراً للسانه أن يتحرك ببطء وتؤدة حتى لا يُحَدِّث أحداً، أو يتحدث إلا النَّزْر اليسير، فكان أن أصاب الثقل لسانه ولحقته بعض اللعثة، وإن كان قد تغلب على لعنتمته سريعاً وإن مال إلى الصمت الدائم بعد ذلك، وإذ كاد أن يستسلم برغبته لليأس والاكئاب، أرسل الله له هذين الرجلين ليخرجاه من الدنيا الضيقة التي كان فيها، إلى العالم الرحب، وساعده في هذا الخروج قلبه الحي المفعم بالإيمان، وتلك القصة الغربية التي حملها معها، وبعد أن كان قد قرر أن يعتزل البشر وحوادثهم، ما لبث أن قرر أن ينساب في خضم الحياة العادية ليؤازر الأمانة التي أرسلها الله له.

وفي لحظة فارقة في حياته عاد إليه نرق الصغار يروده ويستثير شغبه، وحين رأى العزم بادياً على الرجلين، شعر أن قلبه اعتمل بالرغبة في استكشاف المجهول، هو الآن سيسير مع مجهولين إلى طريق مجهول، ولن يخبر أحداً من أهله عن مكانه الذي سيذهب إليه، ولا عمّا انتوى عليه، سيختفي دون أن يخبر أحداً.



الصعود إلى السحاب

جلس عطية الكحلوت في المسجد النبوي ينتظر درس الحديث الشريف الذي سيلقيه الشيخ «أبو بكر الجزائري» تأخر الشيخ اليوم على غير عادته، ولكن هناك من أكد أنه سيأتي ولن يعتذر، كان درسه الفائت عن الحج ممتعاً، تعلم منه عطية الكحلوت أشياء كثيرة لم يكن يعلمها، ومن أجل هذا صمم على أن يحضر دروس هذا العالم ليأخذ منه ما يستطيع: «سأبحث عن طريقة تقربني من هذا الرجل، وستكون أيام سعدي قد هلّت لو استطعت الاقتراب من الشيخ ابن عثيمين، يقولون: إنه حُجة وأسلوبه وطريقته في الدرس في منتهى السهولة.

رأى عطية حركة في المسجد فأدرك أن الشيخ أبا بكر الجزائري قد جاء للدرس فتحرك سريعاً إلى حلقتة، وبعد أن انتهى الدرس غادر عطية المكان إلا أنه لم يغادر المسجد، إذ ذهب إلى موضع «أهل الصُفة» وجلس وحيداً يستعيد ما فات من أيامه، أهنالك صلة بينه وبين أهل الصُفة؟ نعم فأهل الصُفة كانوا غرباء عن المدينة وهو الآن يشعر بغربته أكثر من أي وقت مضى، وأهل الصُفة كانوا من الفقراء، وهو الآن لا مال معه ولا دنيا، فغنى عن الذكر أنه لم يوفق إلى الآن في العمل بالمستوصف الطبي ككاتب حسابات، وغاية ما حدث له أن وقف على فرشة من فرشات الشيخ «حمدون» اليمني يبيع فيها العطور والمساويك والجلابيب وسجاجيد الصلاة والسُّبح، أما المستوصف فقد خضع لاختبار فيه ولكنه لم ينجح، إذ أنى له أن يعرف القواعد المحاسبية

وإمساك الدفاتر وهو الذي كان ينجح في مدرسته التجارية بالكاد، فضلاً عن أنه لم يخض غمار هذا العمل طوال السنوات الأربع التي تلت تخرجه، وزاد وغطى عن هذا أن السخايت التي يأخذها من الشيخ حمدون كانت قليلة لا تكفي احتياجاته: «يكفي أنني وفرت لك مأوى تسكن فيه» كان يقو لها له وكأنه يعايره.

«أنا الآن أو من أن الفقراء لادولة لهم ولا كرامة، قرشك هو نسبك، وعزك، وفخرك، ودينك» هذه هي الكلمات التي كانت تلح على قلبه وتسيطر على أفكاره، أليس من أجل القرش ضرب أباه وأوقعه على الأرض جريحاً؟!

«لست أنا الملوم، هو الغلطان من قدميه إلى مفرق رأسه، أيضاً الأب على ابنه بألف جنيه تقيم مستقبله! قلت له إنني سأكفيه مصاريفي، وتذاكر الطائرة، ولكنه مع ذلك صمم وقام بجري خلفي ليمتنعني من بلوغ الصندوق الحديدي الذي كان يكتتم أسرار ما فيه عن الجميع، حتى إن أمي المغلوبة على أمرها لم تكن تعلم ما هذا الكنز المخفي في هذا الصندوق السحري، وكانت تسميه هزلاً صندوق علي بابا».

«أنا لم أضربه بالنبوت أبداً، وإن كان هو قال هذا لأهل البلد، أنا فقط هددته بالنبوت، ولكنني دفعته بيدي فوق على الأرض، فأمسك بقدمي وعضها عضّة ما زالت علامتها بادية حتى الآن، فرفسته بقدمي حتى أتخلص من عضته فجاءت الرفسة في أنفه فداخ وسال دمه».

« خمسة آلاف من الجنيهات كانت في الصندوق الحديدي ذي القفل! لم تكن ثمة صعوبة في كسر القفل، ولكن الصعوبة كانت في عد الجنيهات والقروش التي بالصندوق، إذ إن تفرقتها واختلاف فتاتها جعل المهمة شاقة، ولكنني كنت في بحبوحه من الوقت لأنني أغلقت باب الحجره بالترباس من الداخل، لذلك لم أحفل بصراخ أمي ولا بوعويل أبي، وما إن انتهيت من عد المال حتى وجدت الطرق يتزايد على باب الحجره وسمعت صخب عدد كبير من الناس، فوضعت ألف جنيهه في جيب سترتي، وقمت لأفتح الباب للطارقين».

- يا عالم، يا خلق هو، يرضيكم أن يجرمني أبي من مصاريق سفري للسعودية حتى أبني مستقبلي وأبعث له ما أستطيع كل شهر؟

- أليست أموال أبي هي ميراثي من بعده، وهي حقي ومستحقي؟

- ومع ذلك فهو باسم الله ما شاء الله كان لديه بالصندوق الكثير من المال، أنا فقط أخذت التزر اليسير.

«خاف أبي أن أفشي أسرارهِ الماليه لأهل البلد، فأخذ يقاطعني حتى لا أستكمل الحديث، وما صدق أن قال أحدهم: صلوا على النبي يا جماعة، هذا شيطان دخل بينكم، فوافقهُ أبي واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم، وفهمت أنا ما استقر في خاطر أبي، فقامت مقبلاً رأسه أمام الجميع، ويا دار ما دخلك شر، صافي يا لبن، حليب يا قشدة».

«وقبل أن ينصرف الناس أحضرت رغيف عيش وقطعته نصفين وقبَلته

ووضعت على عيني وأنا أقسم: والنعمة هذه، والنعمة هذه، سأبعث لأبي كل شهر ما يكفيه ويكفي أمي».

خرج عطية إلى الجحر الذي يقيم فيه، تعود ألا يدخله إلا للنوم فقط، أما يومه فيقضيه كله بين الفرشة والمسجد النبوي والمحل الصغير الذي يستأجره الشيخ حمدون اليميني في الجهة المقابلة للناحية الغربية للمسجد، لم تكن الحجرة التي يقيم فيها عطية مؤهلة للسكن إذ إن الشيخ اليميني يستخدمها كمخزن لبضائعه، ولذلك لم يكن فيها أي منافع كباقي المساكن، فلم يكن أمام عطية إلا أن يقضي حاجياته الإنسانية في حمامات المسجد النبوي ودورات مياهه.

«أقسم أن هذا الجحر الكتيب ذا الرائحة العطنة سيخرج منه عالم الأمة، أنا لا ينقصني شيء كي أبز الجميع، الكلام الذي يقوله الشيخ راضي سلطان محفوظ ومكرر، والكل يأخذ من خطب الشيخ كشك ويتبع طريقته، وللعلم طريقة الشيخ كشك هي أسهل طريقة، وخطبته من السهل تقليدها، أذكر أنني خطبت مرة في زاوية صغيرة بمدينة نصر عندما كنت أعمل في أحد حوانيتها، وكان للخطبة «شنة ورنة» يومها قمت بمد الكلام مثل الشيخ كشك، ورفعت صوتي وانفعلت، وأخذت أقول يا عباد الله اذكروا الواحد الديان، ثم أخذت أضع حديثًا من هنا وآية من هناك، وقصة من الرقائق، على قصة من قصص بني إسرائيل، حتى استمتع المصلون أيما استمتاع وطلبوا مني أن أداوم عليهم فوعدتهم قائلًا: على قدر المستطاع إن شاء المولى عز وجل.

طريقة الشيخ كشك سهّلت لي أشياء كثيرة، فالرجل على تمكنه من اللغة العربية الفصحى إلا أنه في خطبته كان يخلط العامية بالفصحى كثيراً، وبذلك فتح لي - وأنا غير متمكن من اللغة - أن أسهب في الخطابة بالعامية، وقد اكتشفت أن العامية كانت تحرك قلوب العامة وتهز مشاعرهم.

وكما قال لي أبي ذات يوم: إن زامر الحي لا يطرب وكل شجرة ولها بلبلها، لذلك لم تلق خطبتي في بلدتي رويحة أي صدى، بل أخذ الجهلاء يستهزئون بموضوع الخطبة ويتفاكهون بشأنها، كنت واثقاً من أن الغيرة ستتهش قلوب شباب الأزهر بالبلد الذين كانوا يظنون أنهم جمعوا العلم كله، فصعب عليهم أن يقف على المنبر واحد دبلوم تجارة ويتفوق عليهم فأشبعوني غمراً ولمزاً، كل هذا لأنني قلت في الخطبة وأنا أمط في الكلام كعادتي: «هل تعرفون حووووت يونس، الحوت الذي ابتلع يونس عليه السلام؟ هل كان ذكراً أم أنثى؟ وهل تعرفون نملة سيدنا سليمان، هل كانت ذكراً أم أنثى؟ تعلموا العلم أيها الناس وعلموه، فالعلم هو طريق الإيمان، وحّدوا الواحد الديان، صلوا على النبي محمد الذي أشرقت بنوره الظلمات، أنت يا من تجلس الآن في آخر الصف بالمسجد، رأيتك وأنت لا ترطب لسانك بالصلاة على سيد الخلق أجمعين، قولوا معي اللهم صل على سيدنا محمد طب القلوب ودوائها، وعافية الأبدان وشفائها، ونور الأبصار وضيائها، وقوت الأرواح وغذائها، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً، عدد ما أحاط به علمك وخط به قلمك وأحصاه كتابك، صلينا على النبي، وزدناه صلاة، اسمعوا مني الإجابة، أما حوت يونس فقد كان ذكراً لأن الله

سبحانه قال في كتابه الكريم: ﴿فَأَلْتَمَمَهُ الْحَوْثُ﴾ ولو كان أنثى لقال: «فالتقمته الحوت» ونملة سليمان كانت أنثى لأن الله سبحانه يقول في كتابه الكريم: ﴿قَالَتْ نَمَلَةٌ﴾ ولو كانت ذكراً لقال سبحانه: «قال نملة» صلوا على النبي».

«الذي قلته في الخطبة هو العلم الصحيح وقد سمعته من عدد كبير من الشيوخ وتأثرت به، فما بال هؤلاء لا يأبهون لهذا العلم ويستصغرونه؟ إنهم في الحقيقة لا يستصغرونه هو وإنما يستصغرونني أنا، فأنا منذ أن درجت بينهم وأنا صغير في عيونهم، ما أنا إلا ابن الكحلوت خادم المسجد الفقير المهان».

«هذه هي الحقيقة التي لا يمكن إنكارها، حتى الشيخ راضي سلطان كان ينظر لي على أنني خادمه الخاص، فحين قلت له في يوم من الأيام: دعني ألقِ درساً على المصلين بعد صلاة المغرب في أي يوم تراه، فما كان منه إلا أن ضحك بملء شذقيه وقال: «والله هزلت، هذا هو الذي كان ينقصنا، عطية سيعطي درساً!».

«لا أنسى أبداً نظرتَه المتغطسة لي آنذاك، ولا كلماته القاسية التي أشبعني بها، هل قلة شأن عائلي وفقرها جعلني صغيراً إلى هذه الدرجة، حتى في الإخوان كان الأمر مماثلاً، فعندهم أولاد الذوات، وأولاد الجارية، وأنا كنت من أبناء الجارية، فعندما انتقلت للعمل في القاهرة، حملت خطاب التوصية من الأخ مسئول محافظة كفر الشيخ للأخ مسئول القاهرة، وعندما عرف مؤهلتي ودراستي وأنني أسكن مؤقتاً في شقة صغيرة بمنطقة المأظة

يقيم فيها بعض أبناء البلد، ألحقني بأسرة إخوانية في مصر الجديدة، ومنها قاموا بإلحاقني بعمل في حانوت البقالة الذي يمتلكه أحد كبار الإخوان في مدينة نصر، وكانت إقامتي ومبيتي بالمحل هما طوق نجاة لي من استتجار حجرة لا أقدر على دفع إيجارها، ولكن الأخ عبود الذي معي في الأسرة والذي جاء أيضًا من كفر الشيخ، قد تم إلحاقه بالعمل في شركة منسوجات كبيرة مملوكة لأحد أعضاء مكتب الإرشاد، وقطعًا كان راتبه كبيرًا، والناس مقامات، فعبود هذا كان طالبًا في السنة النهائية بكلية الألسن أما أنا فدلوم تجارة متوسطة».

«وليت الأمر كان مقصورًا على وظيفة «صبي البقال» التي ألحقوني بها، ولكنهم كانوا يستعملونني في الأشياء الحفيرة، فيكلفونني مثلًا أن أقف مراقبًا للعمال الذين يجرون تعديلات بمقر الإخوان بمنطقة التوفيقية، أو أن أحمل أشياء وأوصلها لبيت الحاج مصطفى مشهور، أو أن أكون سائقًا للحاج أحمد حسنين عضو الإرشاد وهو ذاهب لكفر الشيخ كي يلتقي الإخوان هناك، بالعربي الفصيح كنت مثل «عسكري المراسلة»، في مصر لن تكون لي قيمة، فأنا مضطهد من أجل نسبي وفقري، وغيره البلداء الأغبياء مني، لذلك كان السفر للسعودية هو الحلم الذي استحوذ على كياني، فيها سأرتفع ويرتفع قدري في كل شيء».

كانت عقدة الاضطهاد قد تمكنت من عطية فذكرياته المشحونة بشدة كانت تبحث له عن الحل السحري الذي يلقي باللائمة على الآخرين دائمًا، لذلك فإن المصاب بهذه العقدة تجده دائم الشكوى من أن العالم كله ضده،

وأن سبب عدم تحقيقه أحلامه ليس لأن هناك مشكلة في هذا الحلم، أو في أسلوب سعيه لتحقيقه، أو ربما لكسله أو قلة حيلته أو صفاته الأخلاقية، بل لأنه مظلوم مقهور ومنكل به! سخرية شباب قرية روينة من خطبته لم تكن بسبب ضعف الخطبة أو تفاهتها أو خطأ منطلقها، ولكن بسبب أنه مضطهد، رفض الشيخ راضي سلطان أن يمكنه من إعطاء درس بالمسجد ليس بسبب أنه لم يكن مؤهلاً بعد للخطابة، ولكن لأن الشيخ يضطهده ولا يريد إلا خادماً له، قيام الإخوان بإحاقه بعمل تافه وتكليفه بأشياء تافهة ليس بسبب ضعف مؤهله العلمي وقلة خبرته وحادثة التحاقه بالجماعة، ولكن لأن قياداته في الجماعة تضطهده خوفاً من أن يأخذ موقعها، هذه العقدة التي أصابته تغلغلت إليه وتسربت لمشاعره من خلال ضعف نفسيته؛ لذلك فقد كان استقرارها في عقله الواعي هو مجرد محاولة للتعويض، ومن نتائج هذه العقدة عند عطية أن أصبح شخصاً شديد الحساسية للانتقاد، وكان سرعان ما يشعر بعدم الأمان في أي مرحلة من مراحل حياته، ولكي يهدد مشاعره التي وقعت تحت وطأة الاضطهاد المصطنع فقد ظل عمره يطلب من الآخرين أن يوافقوه على آرائه، وأن يطيعوه طاعة عمياء لأنه كما كان يقول لهم: «ما أنا عليه هو الحق ولا حق غيره، والعلم الذي أعطانيه الله لا علم بعده» وكان في قابل أيامه يأخذه العجب بنفسه عندما كان أتباعه يقولون عنه: إنه أعلم أهل الأرض!

أخذ عطية يتردد على دروس الشيخ أبي بكر الجزائري، واستطاع بطريقة تزلفه أن يقترب منه ويتحول إلى خادمه المطيع، ثم انفتحت له أبواب ليلة

القدر عندما حل على المدينة الشيخ الكبير العلامة ذائع الصيت محمد ناصر الدين الألباني، فقد استطاع في اليوم الأول - من خلال الشيخ أبي بكر الجزائري - أن يقترب من الشيخ الألباني وكانت الفرصة سانحة فانكب على يد الشيخ مقبلاً إياها والشيخ يجذب يده وعطية متمسك بها وكأنها أصبحت من أملاكه الخاصة، يلاحظه الحسن، هو في معية الألباني.

وكان الباب الثاني من أبواب ليلة القدر قد أطل عليه وأطال النظر له قبل زيارة الألباني للمدينة، إذ أسر له خلسة أحد الإخوة الهنود الذين يعملون معه على فرشات الشيخ حمدون أن للشيخ ابنة اسمها «أساور» وصلت إلى سن الزواج وأن حمدون لن يمانع من زواجها منه إن تقدم لها.

أخذ عطية يقلب الأمر على جميع الوجوه، هذا الشيخ اليميني مقتدر ومعه مال كثير، ولديه أملاك في بلاده، كما أنه سمع بعضهم يهمس أنه في طريقه للتجنس بالجنسية السعودية، ولكن قد تكون البنت دميمة الخلقة «ومنذ متى وأنت تهتم بالجمال يا سي عطية، أنت في وضع لا يسمح لك بالاختيار، أتذكر أيام أن كنت تذهب لبيت «زغلولة» في الإسكندرية للمتعة، لم يكن يهمك شكل من ستقضي معها ليلتك، المهم أن تفرغ طاقتك».

وكانت ليلة لا يمكن أن يتساها عطية، عقد زواجه تم على يد الشيخ ناصر الدين الألباني وبشهادة الشيخ أبي بكر الجزائري، والشيخ عبد العزيز بن صالح إمام المسجد النبوي، وأظن أنه ليس من اللائق أن نتحدث عن أن عطية فوجئ بأن زوجته أساور أكبر منه بعامين، وأن سوق زواجها كان

راكداً نظراً لأن الله لم يهبها وجهًا حسنًا، أو خلقه مليحة، بالإضافة إلى أن سميتها كانت مفرطة بشكل مرضي، ولكن هذه الأشياء الثانوية لم تكن لتستوقف عطية، كل ما استوقفه أن أساور كانت سليطة اللسان متكبرة كأنها تداري بهذه الشخامة افتقادها للجمال والحُسن، مع أن النفس السوية تبالغ في الرقة والأدب وحسن المعشر إذا كان صاحبها دميم الخلقة، ولكن نفوس الناس لا تسير على وتيرة واحدة أبدًا.

تحمل عطية الكحلوت سخيمة زوجته من أجل مستقبله، يكفيه أن يعود لقريته ويشهر في وجوههم عقد زواجه ليعلم هؤلاء الساخرون المستهزئون به أن الشيخ الألباني بجلالة قدره هو الذي عقّد زواجه، وأن العلامة أبا بكر الجزائري كان هو الشاهد الأول، مع إمام الحرم.

«والله لو أن الشيخ راضي سلطان بذات نفسه، سف التراب تحت أقدام هؤلاء المشايخ ما استطاع حتى أن يجلس معهم».

وبعد الزواج تسر له الكثير من الأمور فغير أنه سكن وزوجه في شقة معتبرة بأطراف المدينة، فإنه عمل على الفور ككاتب حسابات بنفس المستوصف الطبي الذي رفضه من قبل، وترك الفرشة التي كان يجلس عليها وأصبح يجلس مع حماه الشيخ حمدون بالمحل المملوك له، يدير له شئون حساباته التي أخذ يتعلمها من كاتب الحسابات الأصلي للمحل «عم عبدالرقيب» الباكستاني، وسرعان ما ألم بأصول صنعة الحسابات خاصة أنه كان دءوبًا في التعلم سواء من رئيسه في المستشفى أو من عم عبدالرقيب بالمحل.

زادت قيمة عطية عند حماه عندما حملت زوجته، وزادت الهدايا التي عرفت طريقها إلى بيته، ومع منتصف رحلة الحمل، شعر عطية لأول مرة بحنين جارف لمصر، كان هذا الشعور مستجدًا عليه، هل كان فعلاً متشوقاً للوطن أم أنه كان يريد أن يتباهى أمام معارفه بما وصل إليه، يكاد يقسم بينه وبين نفسه أنه الآن أعلى في العلوم الشرعية من الشيخ راضي سلطان، فقد اكتسب مهارات جديدة، وجلس إلى الشيخ الألباني وعرف بعض مصطلحات علوم الحديث، وكانت ذاكرته القوية هي سنده في تثبيت هذا العلم في عقله.

أيًا كان الأمر فهو يشعر حقيقة بالشوق للوطن مرتع الطفولة، وأماكن الصبا، وملاعب الشباب، جرفه الحنين لمسجد «الرحمن» ومسمط الرهوان، وكورنيش إسكندرية، ومحطة الرمل، وشارع محمد كُرَيْم، وبيت زغلوله، شده الحنين لصديقه برهومة، ونقيب أسرته الإخوانية بكفر الشيخ الأخ «عبد النبي» وأيام الاعتكاف في المسجد في العشر الأواخر في رمضان.

وبينما هو جالس بعد صلاة الظهر في المستوصف أمام دفاتره مستغرق في أحلامه، إذا بأحد العاملين المصريين يهزه من كتفه وهو يصيح بفرح حقيقي: «الحق يا عطية، أنور السادات لقي مصرعه في العرض العسكري، التلفزيون أذاع الخبر منذ قليل».

- يا نهار اسود غطيس، من قتله؟!

- جيشه يا عطية، قُتل الرئيس وسط جيشه، فمن سيكون قتله غيرهم؟

ألقي عطية الدفاتر التي كانت أمامه وقفز جاريًا.



مرت الشهور على سفره ولم يرسل عطية لأبيه إلا الخطابات التي تتضمن
فيضاً من المشاعر الجياشة، والأب المكلم في جنيهاته الألف التي استولى
عليها عطية انحسرت عنه مقطوعة المسجد، وهبات المأذون، فأخذ يفضفض
لزوجته «أم الفرج» والحسرة تعتريه.

- الولد أرسل لنا كلاماً حلواً لناكله ونلبسه.

فتطيّب أم الفرج خاطره وتلمس لابنها الأعدار، وبعد نصف عام أرسل
عطية لأبيه حوالة مالية بأول مبلغ وكان قدره مائة ريال، وفي نهاية العام
وصل لرمضان الكحلوت خطاب من عطية يخبره فيه بأمر زواجه، وأرفق
مع الخطاب حوالة بمائة ريال.

قلب الأب من القلوب العجيبة، وقلب الأم أعجب منه، فالأب الذي
كان نائراً على ابنه غاضباً منه، هدأت نائرتة وسكن غضبه عندما علم
بموضوع الزواج هذا، ولكنه تحسر من أن يُزف ابنه دون أن يكون واقفاً
في عرسه يسلم على المعازيم، والأم بدورها زغردت من الفرح إذ قرأ لها
رمضان الخبر السعيد، ثم ما لبثت أن انهارت في البكاء، كان هذا البكاء يجمع
بين الفرح والشوق لابنها، والحزن لغيابه عنها زمناً، وتقصيره في حقهم،
وجحوده لأبيه، ولكنها كانت تعرف ابنها عطية تمام المعرفة، هو في النهاية
تأتي له دفقات الحنين فتخفي قسوته، وما كانت هذه القسوة إلا غطاءً يخفي
تحتة ضعفه، ولكنه في الحقيقة يحب أباه، وينحني قلبه عندما يسمع صوت
أمه، ولكن كيف له أن يتزوج دون أن تصدح أم الفرج في فرحه بالزغاريد،

وهل البنت اليمينية التي تزوجها جميلة وطيبة الخلق « أنا لا أعرف طبع أهل اليمن، لكن أبي قال لي قديماً: إنهم من أطيب خلق الله لولا أنهم يعضغون الشيء الذي اسمه القات، ولكنهم مع ذلك أهل دين ومروءة، يا رب اجعل زوجة عطية زوجة صالحة».

ثم سألت رمضان: ما اسمها يا رمضان؟

- اسمها أساور يا أم الفرج.

ضحكت أم الفرج وهي تقول: يا رب اجعلها أساور ذهب.

- وسأقول لك شيئاً يبهجك يا أم الفرج.

- خير يا أبا عطية.

- الذي عقد قران ابنك هو الشيخ الألباني.

- لماذا، ألم يكن هناك شيخ سعودي؟

- سعودي مين أيتها الجاهلة؟! الشيخ الألباني هذا هو عالم العصر، أكبر عالم حديث في العالم كله.

- وهذا الشيخ الكبير من معارف ابنك يا رمضان؟

- عطية يقول إنه من معارفه وإنه يتعلم على يديه علوم الحديث، ابنك سيكون عالماً يا أم الفرج.

انطلقت زغرودة أخرى من أم الفرج ثم أعقبتها قائلة: والله وفلحت يا عطية يا بن بطني، سأبل الشربات للجيران كلهم يا رمضان، أريد أن يعرف كل الناس إن ابني صديق للأكابر.

وبعد شهر آخرى عندما وصل خطاب آخر للأب من عطية أسرع إلى داره كي يبشر أم الفرج أن زوجة رمضان حامل، إلا أنه ذكر في خطابه أنه لن يستطيع إرسال أي مبالغ أخرى لأنه أصبح في حاجة، وأنه الآن يجمع السحتوت على السحتوت ليستطيع مواجهة النفقات التي ستستهلكه، وأنه سيؤجل دفع الألف جنيهه لحين عودته إلى مصر.

- الله الغني يا رمضان، نحن لا نتظر منه قرشاً ولا جنيهاً، المهم يكفي نفسه.

ومن بعد هذا الخطاب بشهر توالى الأحداث على مستوى الدولة، وقامت الجماعات الإسلامية بقتل الرئيس أنور السادات في الحادث التاريخي الذي سمي بحادث المنصة وانشغل الجميع بهذا الأمر، ثم روعت مصر بحوادث إرهابية قامت بها جماعات جهادية اعتبرت أنها تجاهد في مصر ضد الكفر والكفار فقتلت الجنود، والأبرياء، الكبار والأطفال، وفجرت المحال، وقامت مواجهة كبرى بين الدولة ممثلة في الجهات الأمنية، وهؤلاء القتلة الذين قتلوا وهم يحملون في أيديهم فتاوى تبيح لهم هذه الدماء، وأخذت هذه الجماعات تستقوي بالسلاح وتنهب محال الذهب المملوكة للمسيحيين بدعوى أن أموالهم حلال لأنهم أهل كفر.

في هذه الفترة اختفى من الساحة كثير من علماء الدعوة السلفية، وانكفأ الشيخ راضي سلطان في بيته لا يغادره إلا لماماً، وظهر رجال الإخوان يقدمون قرابين الولاء للحكومة، ويذهبون في قوافل دعوية مع شيوخ الأزهر إلى السجون التي فيها أهل التطرف فيخطبون فيهم ويحرضونهم على ترك فكر

التكفير الذي آمنوا به، وفتحت المساجد منابرهما لكثير من شيوخ الإخوان، يخطبون في الناس ويقولون: إنهم أهل الوسطية والاعتدال، وإنهم والأزهر الشريف حائط الصد الذي سيقف حائلاً بين مصر والجماعات المتطرفة.

وفي نهار أحد الأيام جاء أحد الخفراء يطرق باب دار رمضان الكحلوت، وإذا فتح أخبره أن ابنه عطية اتصل عليه تليفونياً عند دار العمدة وأنه سيعاود الاتصال عليه مرة أخرى بعد ساعة، وعليه أن يذهب الآن لدوار العمدة ليتلقى مكالمة ابنه.

هرع رمضان بعزم ما عنده من قوة، وحين وصل كان الدوار خالياً إلا من خفير واحد، جلس رمضان القرفصاء على الأرض ينتظر مهاتفة ابنه، وعندما رن التليفون انقبض قلب رمضان، ما باله يخشى هذه المكالمة، لأنها أول مرة يكلمه ابنه فيها تليفونياً، أم لأنه كباقي المصريين ينتظر من المجهول - من كثرة الأحزان والآلام التي مرت به - خبراً سيئاً، أو لأن غربة الأبناء تثير مخاوف وهو اجس الآباء وتعض على قلوبهم؟

تعود المصري عبر آلاف السنين على السكن بين ضفتي النيل لا يغادرهما، فإذا تزوج ابنه أسكنه معه في الدار نفسها، فإذا تزوج ابنٌ آخر بنى طابقاً فوق بيته، ويتوزع الأبناء في الدار نفسها، لا يفارقون الأب، ويصبح بيته هو بيت العائلة، الأم بدورها لا تستطيع أن تطمئن إلا إذا كانت تشم ريح أبنائها، وتطمئن على أحوال كل واحد منهم؛ لذلك نشأ المصري منذ فجر التاريخ وهو يخشى الغربة ويمقتها، حتى إن الذي يقيم في محافظة من المحافظات إذا جاء إلى القاهرة فإنه يعتبر نفسه في حالة غربة، أما إذا ذهب إلى محافظة من

المحافظات النائية فهو في اغتراب للجسد والنفس معاً، فما بالك إذا ذهب إلى دولة أخرى، بيننا وبينها بحار وجبال!

وللمفارقة فإن الغربية الوحيدة التي كانت تتحملها الأم هي غربة ابنتها عندما تتزوج من رجل يأخذها إلى قرية بعيدة، أو محافظة أخرى، فتظل الابنة ترزح في غربتها، والأم تشرب من أساها، ولكنها سنة الحياة التي يدعن لها الجميع.

- ما أخباركم يا ابا، وما أخبار أمي، أنا قلقان عليكما.

- «الأشيا معدن» والحمد لله يا عطية، ما أخبارك انت وأخبار امرأتك، خايف تكون أخبارك ليست على ما يرام، قل لي بسرعة متى ستلد الست زوجتك؟

- قريب يا ابا إن شاء الله، لكن أنا كنت قلقان على الأحوال التي تعيشون فيها في مصر، وموضوع الجماعات الإسلامية و و و. وأخذ عطية يسرد أخباره سريعاً ويستوثق من أخبار مصر حتى انقطع الخط.

بعد يومين طرق على باب الخفير مرة أخرى، قال له رمضان: خير يا سالم تليفون من السعودية؟

- لا يا رمضان، تليفون من المركز.

- خير يا سالم.

- إشارة من المركز تطلب حضورك فوراً لمقابلة السيد معاون الباحث.



هذه هي المرة الثانية التي يدخل فيها رمضان إلى مقر من مقرات الحكومة، المرة الأولى كانت يوم أن ذهب للمحكمة مشكوكاً في حقه، أو بمعنى أصح كمتهم، إذ كان قد اشترى قيراط أرض ودفع عربوناً ثم بصم على «شيك» بالمبلغ المستحق عليه، كان يحدوه الأمل أن يرسل له عطية من السعودية ما وعد به من مال، إلا أن عطية لم يف بوعده، فحرر البائع ضده محضراً بالمركز، وقامت النيابة باستدعائه لسؤاله وتوجيه الاتهام له توطئة لإحالة للمحاكمة، كان يعلم من خلال أهل الخبرة أن وكيل النيابة سيخلي سبيله إذا دفع ضماناً مالياً، وتوقع الخبراء بالمحاكم من قريته أنه سيدفع مائة جنيه كفالة، فارتدى رمضان جلباباً قديماً مهترئاً، ووضع المائة جنيه في جيب السروال، وذهب إلى المحكمة، وحين دخل إلى حجرة السيد وكيل النيابة هرع إليه وانكب على يديه مقبلاً ووكيل النيابة ينهره ويوبخه، ثم ظل منحنياً في وضع أقرب إلى الركوع، وحين بدأ وكيل النيابة سؤاله أصر رمضان على أن يجلس على الأرض ويضع بُلغته على رأسه، وإذ سمع وكيل النيابة يسأله عن الشيك قال وهو يبدي جهله: تيك؟ تيك؟ ما هو التيك يا جناب البك، وأخذ رمضان يستخدم «مكر الفلاحين» الذي يتفوق فيه حتى أقنع وكيل النيابة بسذاجته المفرطة؛ فأخلى وكيل النيابة سبيله بعد دفع مبلغ عشرين جنيهاً.

وها هي المرة الثانية حيث قضى رمضان فيها نصف يوم وهو جالس على الأرض أمام هذا الضابط الجاد الذي لا يتسم أبداً، دخل أولاً على معاون المباحث وهو يتتعل بُلغته، ثم سرعان ما خلع البُلغة وأمسكها في يده من باب توقيف الضابط، فنظر إليه المعاون وطلب منه أن يظل واقفاً في أحد جوانب الحجرة، وبعد دقائق دخل رجل لا يعرفه ومعه عسكري فخرج المعاون

وأغلق الحجرة، فهم رمضان أن هذا الرجل هو أحد الضباط المهمين، وحين طلب من رمضان الجلوس، جلس رمضان القرفصاء ووضع بُلغته على رأسه إشعاراً منه للضباط أنه طوع بنانه وأنه سيكون معه في قمة الخضوع، تجاهل الضباط هذه الإشارة إذ يعلم من خلال خبرته أن الفلاح المصري البسيط يكون أمام السلطة منسحقاً، إلا أن هذا الانسحاق هو في حقيقته نوع من أنواع «القوة السلبية» التي تمكنه من الإفلات من شر السلطة ووطأتها، ظل الضباط متجاهلاً إياه فترة طويلة، كان فيها يُقَلَّب في كثير من الأوراق، ويقرأ من بعض الملفات، وعيون رمضان ترقبه وتفحصه في محاولة منه لسبر غوره: «ما الذي وراءك أيها الضابط، ما الذي جنته يداي، أنا لم أفعل شيئاً يغضب الحكومة مني».

حانت التفاتة عابرة من الضابط لرمضان، فسأله: من أنت؟

- أنا رمضان الكحلوت يا سيادة البك.

- وما الذي جاء بك هنا؟

- إشارة من المركز يا سيادة البك.

نظر الضابط إلى العسكري وسأله: من هذا؟ ولماذا أتيتم به؟

- هذا رمضان الكحلوت أبو الشيخ عطية يا جناب الباشا.

موجهًا كلامه لرمضان: أنت والد الشيخ عطية.

- خير يا باشا! هل أخطأ عطية في شيء، كلنا من خدامين الحكومة، عطية

خدامك يا باشا.

- لا أبدًا، عطية شيخ قد الدنيا، ويعرف الشيوخ الكبار، ونحن نحبه، قم يا عم رمضان واجلس أمامي على الكرسي... هات شاي يا عسكري لعم رمضان.

شعر رمضان برهبة عندما جلس على الكرسي، هذه أول مرة في حياته يجلس على كرسي أمام أحد المسئولين، كان حديث الضابط معه رقيقًا هادئًا، فلماذا إذن كانت هذه الجهامة وهذا الإعراض الذي قوبل به منذ البداية! ففوق أن الفلاح المطحون يشعر في قرارة نفسه بالهوان، فإن صنعة «الأمّن السياسي» توجب على صاحبها أن يتفانى في إشعار هذا الذي وقع في مصيبتهم بالضعة والحقارة حتى يسهل له قياده.

ورغم ذلك فإن الموضوع كان غير ذي بال، فكل الحكاية هي أن هذا الضابط يعرف عن عطية أشياء كثيرة، يعرف أنه يعمل الآن في السعودية وأنه اقترب من بعض العلماء الكبار الذين يتبعون المنهج الوهابي، ورجال الأمن يريدون من عطية أن يعود إلى مصر لينضم إلى قافلة الدعاة الذين يواجهون الجماعات الإرهابية، ولأن بعض الرجال التابعين للأمن السياسي تحدثوا في السعودية مع عطية في هذا الشأن إلا أن عطية أوجس خيفة وامتنع عن إجابتهم.

- «افرحي يا أم الفرج فقد جاء الفرج من أوسع الأبواب، وزارة الداخلية أدخلتنا في مسابقة من أجل العمرة، وقد فزنا والحمد لله، عمرة على حساب الدولة، شاملة نفقات الإقامة والطعام مع مصروف جيب لي ولك قدره ألف ريال، والباشا طلب مني أوراقنا حتى يجهز لنا جوازات السفر».

كانت هذه هي المرة الأولى التي شد فيها رمضان الكحلوت الرحال إلى

الأراضي الحجازية ليستقبل الكعبة الشريفة ويطوف حولها، والمرّة الأولى دائماً هي أروع وأشجى وأعذب المرات، حيث يسبقها الغموض وتكتنفها الرهبة وتخالطها رغبة جارفة في المعرفة، وفي قلب الطائفة انكمش رمضان في مقعده وكأنه مذنب فر هارباً من جريمته ويخاف أن يطلع عليه الناس.

وبعد أن انتهت مراسم العمرة مكث رمضان وزوجته أسبوعاً في مكة، ثم ركب الحافلة في طريقهما إلى المدينة لزيارة قبر الحبيب ﷺ، ثم زيارة الابن الغائب الذي تزوج دون أن تتاح لهما الفرصة لرؤية زوجته، كان رمضان قد هاتف ابنه عطية من التليفون الذي في مكتب حضرة الضابط وأخبره أنه سيكون في السعودية بعد عدة أيام من أجل العمرة، وقال له: إنه ربح الرحلة من خلال مسابقة أجرتها الدولة.

في الفندق كان اللقاء، دار بينهم حوار طويل إلا أن رمضان تجنب أن يتحدث عن السبب الحقيقي للزيارة، وفي شقة عطية كان الحديث المسهب بينما أم الفرج تجلس مع أساور تطمئن على حملها وتعطيها النصائح والخبرات.

أبدى عطية لأبيه تخوفه من العواقب، فمن ناحية هو لا يأمن لنوايا رجال الأمن، ومن ناحية أخرى فإنه يخشى أن يدخل في غمار مواجهة مع الجماعات الإسلامية فينال منهم الويل والشبور وعظائم الأمور.

- «سيجعلون لك مكانة يا ولدي وستجري الدنيا طوع بنانك مستجيبة، ما عليك إلا أن تأمر».

«سأعيد بناء داري في البلد بالطوب الأحمر، وسيعرف الناس كلهم أنك أصبحت صاحب شأن كبير مرهوب الجانب».

«وفوق هذا فإنك ستكون شيخًا كبيرًا وستيسر لك الدولة كل الطرق لتتوأ مكانة العلماء، وسيوفرون لك الحماية».

لان عطية قليلًا إلا أن الخوف ظل مقترنًا به لا يغادره قيد أنملة.

- لو فرض وكان ما تقوله صحيحًا يا أبي، فهل أستطيع الإفلات من الجماعات الإسلامية.

- توكل على الله وهو حسبك.

أمضى عطية ليلته ساهدًا على فراشه، زارته كل الهواجس وأرقته، أيقبل فيصير في بلده عالمًا رغم قلة بضاعته، أم يرفض ويظل في السعودية ومنها يكون منطلقه، هو يعرف الآراء التي تحرم الخروج على الحاكم، يستطيع أن يراجعها ويعرض عليها بنواجزه، كما أنه يحفظ بعض الأحاديث وخمسة أجزاء من القرآن، ولسانه أصبح منطلقًا عن ذي قبل فقد وعى الكثير من أساليب الخطابة، فضلًا عن أنه كان موهوبًا فيها بالفطرة منذ طفولته، ألم يكن يقف مقلدًا الشيوخ فيثير إعجاب الرفاق، ولكن الذي حيره لماذا تلجأ إليه الدولة ليقوم بهذا العمل في حين أن هناك الكثير من علماء الدعوة السلفية في الساحة وتستطيع الدولة أن تتركن إليهم! خاطب نفسه وهو يجادلها:

«ومن قال لك إن الدولة لن تستعين بهم، بل لعلهم الآن يقومون بالدور المطلوب».

«ولماذا أنا إذن إذا كانت الساحة مليئة؟».

«البحر يحب الزيادة، وقد تكون طريقتي البسيطة السهلة هي التي جعلتهم يفكرون في الاستعانة بي».

«ومن أين عرفوا يا فالح أن لك طريقة بسيطة وسهلة؟».

«هذه الحكومة لا يخفى عنها خافية، ثم أنسيت أنك خطبت في مسجد القرية، وخطبت في زوايا مدينة نصر، بالتأكيد أصبح لك ملف لدى الأمن وكتبوا عنك تقارير، ويعرفون أنك أحد المقربين من الشيخ الجزائري، وأنت حضرت لمدة ثلاثة شهور دروس الشيخ الألباني، أنا واثق الآن أن واحداً من الضباط المجهولين اكتشف موهبتي وراهن عليّ، وقد تكون خطبة الحوت والنملة هي التي فتحت لي الطريق، فأنا لا أتحدث أبداً عن السياسة ولكن عن الدين فقط».

«من الأفضل أن أجلس معهم وأستمع إليهم، أبي أخبرني أن أحد رجال الأمن جاء معهم في العمرة، وأنه ينتظر أن أجلس معه، لا يضيرني شيء إذا جلست معهم، وبين البائع والشاري يفتح الله».

ورد على خاطره أنه سيؤدي خدمة جلييلة للوطن وللإسلام، ستكون كل دروسه عن تحريم الخروج على الحاكم، بيعه الحاكم شرعية ومن ينقضها إما يسير في طريق الكفر.

سمع عطية أذان الفجر فقام ليستعد للوضوء، وبينما هو في نصف الوضوء سمع التليفون يرن رناته المزعجة، من هذا الذي يتصل عليه في هذه الساعة، لم يتم عطية وضوءه وأسرع للهاتف، جاءه صوتٌ بالك:

«البقاء لله يا شيخ عطية، حماك الشيخ حمدون في ذمة الله».

والمصائب إذا جاءت لا تأتي فرادى كالجواسيس، ولكنها تأتي متتابعة

كسرايا الجيش، فما إن سمعت أساور بخير موت أبيها حتى صرخت ووقعت على الأرض فاقدة النطق.



بموت الإنسان تُغلق صفحة من صفحات الحياة الدنيا وتُفتح صفحة من حياة أخرى، فليس الموت انقطاعاً عن الوجود أو انحداراً إلى العدم، فالموت هو أحد مخلوقات الله، وإحدى صور الوجود في ملكوته، ألم يقل لنا: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ الحياة حضور وتجليه لروح «مُرَكَّبَةٌ عَلَى جِرم» في الدنيا المرئية لنا، واستتار وغياب عن دنا أخرى غير مرئية لنا، والموت هو غياب واستتار لهذه الروح «الْمُرَكَّبَةٌ عَلَى الْجِرم» من هذه الدنيا المرئية لنا، وحضور وتجليه في دنا أخرى لا نعرفها وغير مرئية لنا، وقبل أن تشرق أرواحنا في دنيانا الملموسة وتنزل إلى الحياة الدنيا، كانت في دنا أخرى نجهل طبيعتها وكيونتها، وحين أشرقنا في دنيانا غربنا عن الدنيا التي كنا فيها، فكل شروق يسبقه غروب، وكل غروب يعقبه شروق ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ حيوات ومماتات إلى أن نرجع إلى رب الموت والحياة.



مات الشيخ حمدون اليميني، وترك ابنته المتزوجة من عطية، وزوجته المريضة، وأخاً شقيقاً يعيش في اليمن يدير له أملاكه هناك، هؤلاء هم كل من كانوا في الدنيا، وقد أضاف له الزمن زوج ابنته عطية، وبموت الشيخ حمدون أغلقت صفحة من صفحات الحياة وذهبت إلى دنا أخرى غير دنيانا.

فقد عطية شيئاً عزيزاً آلمه فقده وأجرى دموعه، لم تجر دموعه على حماه ولكن على الجنين الذي أسقطته زوجته، فعندما تم نقلها إلى المستشفى اضطر الأطباء إلى إجراء جراحة لتوليدها بسبب جفاف ماء المشيمة الذي يمدّه بالحياة، حاول الأطباء إنقاذ الجنين ولكن إرادة الله فوق علم البشر وتفانين بني الإنسان.

دُفن الجنين مع جده حمدون في لحدٍ واحد، جنين كاد أن يستقبل الحياة فغادرها، وعجوز ظل بالحياة ردحاً من الزمن ثم غادرها، وكلاهما في لحد واحد، كأنك أيها الإنسان لن تمكث في الحياة الدنيا إلا لحظة، طالت أو قصرت هي لحظة.

أطلق عطية على ابنه اسماً إعمالاً للسنة، فكان إسماعيل، إسماعيل بن عطية ابن رمضان الكحلوت، لماذا أطلق عليه إسماعيل؟ هل لأنه استشعر أن ابنه هذا ذبيح حزن أمه، ذُبح بسكين اللوعة والأسى، ذُبح بسبب نكل أمه لأبيها فكان أن شكته، وبدلاً من أن نودع حبيياً ودعنا حيين؟

مرت أيام العزاء، وأخذ عطية يرتب أمر الحياة الجديدة التي تنتظره، جلس في فندق الحرم مع الضابط المصري المعتمر، كان متخصصاً في الجماعات المتطرفة، أبدى لعطية إعجاباً بطريقته في الخطابة وأخبره أن هذه الطريقة يستطيع أن يصل بها للأغمار من الناس الذين لا يحملون قدرًا من علم أو ثقافة.

«هؤلاء هم الذين نقصدهم يا شيخ عطية، فالجماعات الجهادية المتطرفة تتصيد هؤلاء وتوقعهم في شباكها ثم تنفث فيهم شرورًا وتكفيرًا وعنفاً».

«هذا الفكر الانقلابي ليس إسلاميًا يا شيخ، ونريد أن نواجهه بكل ما نملك من قوة من أجل الله والوطن».

«سنتفتح لك أكبر المساجد ونيسر لك الخطابة، وسنقربك من كبار علماء الدعوة السلفية وستنطلق في آفاق لم يبلغها خيالك».

«كبار دعاة السلفيين يقومون بالواجب، ولكنهم يخاطبون فئة واحدة هي فئة المتدينين الدارسين، ومن العسير على البسطاء أن يصلوا إليهم».

«تخيل يا شيخ عطية أن الشيخ أسامة عبد العظيم ظل أربع خطب متواصلة يتحدث عن قواعد رفع السبابة في أثناء التشهد في الصلاة! طريقته معقدة لا تصل للبسطاء أبدًا».

«ولكنك ستترك الإخوان، ولن يكون لك بهم صلة، الإخوان يقومون بأدوارهم أهلها، ولكننا نريدك مع الدعوة السلفية».

«ومع ظهورك على الناس سيظهر عدد آخر من الدعاة الشباب سيأخذون نفس طريقك وسيكونون شركاءك في هذه التجربة».

«وستخضع لدورة تدريبية تؤهلك لهذا الدور وتعلمك الموضوعات التي ستتناولها وأهمها تحريم الخروج على الحاكم، ومواجهة فكر التكفير، وكل فترة ستدخل دورة متخصصة ترفع من مستواك».

سيدربونه ويجهزونه للمهمة وكأنه رجل مخبرات أو جاسوس، ولكن كيف سيجعلون الجمهور يُقبل عليه؟ هل يملكون مفاتيح القلوب! المسألة ليست عويصة فمصر لها خاصيتها النفسية، الناس في مصر يندمجون مع

مشاعر المجموع، لذلك كانت هناك مهنة قديمة اسمها «الصَّيِّتة» وكانت هذه المهنة ذاتعة في أوساط المطربين والمقرئين، فإذا بدأ القارئ يتلو آيات الله تجويداً ترتفع الآهات وصيحات الإعجاب من هؤلاء الصَّيِّتة الذين يتم استئجارهم وتفريقهم بين المستمعين، وعندما تزداد الآهات وصيحات الإعجاب يبدأ الناس العاديون في الاندماج والتماهي مع المقرئ، حتى يتحولوا هم بدورهم إلى منشدهين متأوهين معجبين، والأمر نفسه بالنسبة للمطربين، وفي عالم المآتم والأحزان تنتشر مهنة أخرى هي مهنة «النائحة» أو «المعددة» التي تُستأجر لتنوح في العزاء وعند تشييع الجنازة فتستجلب دموع المشيعين، المصري يندمج دائماً مع روح المجموع، وروح المجموع تستطيع أن تصنع شعبية، ولكنها في هذه الأحوال تكون شعبية مصنوعة لا تلقائية.

أخذ الكلام مساره نحو المزايا التي أُسِّتَمَع بها عطية والأرباح التي سيجنيها من وراء ما سيقوم به، ولكن كلمة قالها الضابط في نهاية عرضه السخي أحدثت ربكة في عقل عطية، كلمة كانت إشارة إلى سبب اختياره، فهمها عطية وأدرك بذكائه كيف تدير هذه الجهات الأمنية ملفاتها:

«تعرف يا عطية، أكثر شيء أعجبني فيك هو أنك شاب متساهل في تدينك، لا تحفل بالتعقيدات التي يضعها المعقدون، أعجبتني فكرتك في مسألة عقد الزواج العرفي الذي كنت تعقده مع بنات «زغلولة». الحقيقة هي فكرة رهيبة».

- زغلولة!!

- نعم أنسيتهما؟! زغلولة سيدة المتعة في الإسكندرية.

اصفر وجه عطية وتحشرج صوته وجف ريقه وأخذ يتمتم متلعثمًا: زغ زغ
زغلولة، كي كي كيف عرفت موضوعها؟

- لا تخش شيئًا يا عطية، نحن سترك وغطاؤك، سرك في بشر، كل الصور
وتسجيلات الفيديو التي صورتها لك زغلولة في يد أمينة، اعتبرها في قبر لن
تخرج منه أبدًا.

- صور، فيديو!

- شريرة هي زغلولة، تعودت هذا مع زبائنها، ولكننا استطعنا الحصول
على هذه الصور والتسجيلات حتى لا تهددك بها.

أهكذا هو الأمر! إذا أردت أن تقود إنسانًا وتسخره لك ففُذُّه من أضعف
نقطة فيه، أمسك بتلابيبه من غرائزه التي باح بها، ضع أوراقك على عورته،
سيخشى حتمًا أن ترفع أوراقك فتتكشف عورته أمام الجمع الذين رأوه
مقدسًا.

سرعان ما استعاد عطية رباطة جأشه قائلاً: كلنا يا باشا ارتكبنا أخطاء
ونحن صغار، هذه أمور كانت في سن المراهقة والله غفور رحيم.

همَّ الضابط بالقيام بعد أن وضع لمساته الأخيرة، ولكن هناك مشكلة
كانت شاخصة في ذهن عطية، لم يرض أن يترك اللقاء بالضابط قبل أن
يتحدث معه بشأنها.

«الشيخ حمدون حماني مات كما تعلم، وهو من اليمن، وبما أنني سأعود
إلى مصر وهو ليس له إلا ابنته زوجتي، وأمها زوجته، فأريد أن أصفي

ما يمتلكه هنا، حتى أعطي للنساء حقهن في الميراث، والعقبة الكبرى أن الشيخ له أملاك في اليمن يديرها شقيقه، ولكننا لا نعرف عنها شيئاً، وأريد أن أستخلص حقوقهن، فماذا أفعل؟».

- هذه أشياء صغيرة يا شيخ عطية ويجب ألا تعطلك عن مهمتك الرسمية، أنت في مهمة وطنية.

- لن أذهب إلى مصر إلا إذا قمت بحل هذه المشكلة يا باشا.

- ستنزل مصر سريعاً يا عطية. لديك أسبوع، قم خلاله بحل مشاكلك

- لن أنزل مصر يا باشا وسأذهب لليمن.

- اليمن! أنت مجنون، ليس مسموحاً لك أن تخالف أوامري.

- يا باشا أنا أريد أن أرضي ربي وأستخلص حقوق زوجتي، ثم إنني

لا أستطيع أن أصطحب حماي إلى مصر ويجب أن أذهب بها لليمن لتعيش مع أهلها، حماي يا باشا ليس لها أهل ولا أقارب في المدينة.

وارتفع صوت عطية وهو يقول: اليمن يا باشا، سأذهب لليمن مهما

كانت العواقب، وستساعدونني في حل مشكلة الميراث هناك.



أفادت الجهات الأمنية أن ذهاب عطية الكحلوت إلى اليمن سيساعده

مساعدة كبيرة في إنجاز مهمته، فهناك في اليمن سيلتحق بمدرسة الحديث

للشيخ «نعمان بن عبد الكريم الوتر» الذي بدأ نجمه يبرز وأخذ مكانته

كواحد من كبار دعاة الدعوة السلفية في اليمن، وقد تخصص في شرح أصول

السنة للإمام أحمد بن حنبل، والشيخ نعمان الوتر على خصومة مع دعاة الإخوان المسلمين، فإذا مكث عطية في اليمن في مدرسة الشيخ نعمان ستة أشهر سيكسبه هذا خلفية علمية، ومكانة لدى جمهور المتدينين في مصر، كما أن هذه الزيارة ستوفر على أمن الدولة مشقة تدريب الشيخ عطية، ولتكن هذه الزيارة لليمن بمثابة دورة تدريبية له، أما عن حل مشاكل الميراث فالشيخ «عبد الكريم الزنداني» سيتكفل بها بما له ولقبيلته من مكانة، وهو أيضًا من رموز الإخوان المسلمين هناك ولجماعته كلمة مسموعة، ووادي أرحب باليمن يقع تحت سيطرته، وهناك لا يستطيع أحد أن يعصي له أمرًا، أي أن عطية سيتعلم على يد السلفيين أعداء الإخوان، وسيتم حل مشكلة ميراث زوجته عن طريق الإخوان.

ومضت الأشهر الستة وعاد الشيخ عطية إلى مصر تاركًا وراءه في اليمن زوجته أساور على وعد أن يعود ليصطحبها إلى مصر بعد أن يرتب أمور حياته ويجهز سكنًا يليق بها ويذكرى أبيها الشيخ حمدون، عليه رحمة الله، حمد الله أنه استطاع حل المشاكل المالية لزوجته وأمها سواء تلك التي كانت في المدينة، أو التي في اليمن، كان عطية مع زوجته وهو في اليمن كالخادم المطيع لا يعصي لها أمرًا، يتحمل انفعالاتها وإهاناتها ويتماذى في الخنوع والمسكنة حتى استطاع برفقه ومهادنته إقناعها بأن يحمل معه وهو ذاهب إلى القاهرة مبلغًا يوازي مائة ألف جنيه مصري من ميراثها، حتى يشتري لها شقة باسمها في حي راق من أحياء القاهرة ويؤثثها بالرياش اللائقة، لم يكن إقناع أساور بالشيء الهين، ولكن مدهانة عطية لأمرها مكتته من تحقيق مرامه.

حين عاد إلى مصر لم يعد كعطية الكحلوت، ولكن عاد باسم آخر، وسيرة أخرى لم تتحرر الحقيقة ولكن أخذت منها قبسات ثم أضافت لها وزيتها، فهو «الشيخ أبو إسماعيل الرويني» حافظ حديث رسول الله، وتلميذ الشيخ الألباني والشيخ أبي بكر الجزائري، وقام بتدريس علوم الحديث الشريف في مدرسة الحديث للشيخ «نعمان بن عبد الكريم الوتر» باليمن السعيد، والذي ساهم في الأرض من أجل العلم فجلس يتلقاه على يد أكبر علماء العصر، ومن نبوغه وجلاء بصيرته حصل على إجازة برواية الحديث من الشيخ الألباني.

ترك الشيخ أبو إسماعيل الرويني في اليمن كراكيه القديمة، وماضيه، وزوجته أساور التي كانت جزءاً من هذا الماضي، ولم يعد لها أبداً بعد ذلك، وبدلاً من أن يرسل لها تأشيرة زيارة لمصر لتسكن إليه أرسل لها ورقة الطلاق.

وكما يطوي الموت صفحات حياة، تطوي الحياة نفسها صفحات من عمر الزمن، ولكل زمن حال، ولكل حال رجال، وما كان بالأمس ليس بالضرورة أن يبقى اليوم، وما هو صائر اليوم ليس بالضرورة أن يكون غداً، لا شيء ساكن في الحياة، كل شيء يتحرك، حتى الجهاد يتحرك في مكانه، أليست الأرض تتحرك بما عليها من جماد ومخلوقات؟ الحركة الدائبة هي سر الكون، فالحركة هي إثبات مرور الزمن، قال أحد الفلاسفة: «إنك لا تنزل النهر مرتين» كان يقصد أن مياه النهر تسير في طريقها ولا تعود أبداً، وحين تسير يأتي خلفها مياه أخرى، تتغير وتتبدل المياه فيصير النهر نهرًا آخر غير الذي نزلت فيه من قبل.

لم يعد الشيخ أبو إسماعيل الرويني إلى مدينة كفر الشيخ ، أو قرينته روينة، ولكنه أقام في حي الجيزة، منطقة لم تعرفه من قبل، وفيها بعض كبار رموز الدعوة السلفية، وفيها أيضًا بؤر سوداء لجماعات الجهاد والتكفير، ومن الجيزة كان انطلاقه، وأخذ يتردد على العلماء يخطب وُدَّهم ويقبّل أياديهم، فها هو ينكب لاثمًا يد الشيخ الكبير عبد اللطيف المشتجري إمام أهل السنة بالجمعية الشرعية، وها هو يظل على تزلفه وتودده حتى سمح له الشيخ بأن يخطب مرتين في الشهر في أحد مساجد الجمعية الشرعية بالجيزة، وعن طريق «الصيّتة» الذين تباكوا أثناء خطبته عن الجنة والنار ذرف كثير من المصلين البسطاء دموعهم، وأخذت شهرته تتنامى يومًا بعد يوم، في بداياته لم يكن يخطب إلا في ثلاثة موضوعات هي: «أهوال النار» و«نعيم الجنة» و«أحوال الموتى وعذاب القبر» وبهذه الخطب كان يتنقل في مساجد الجيزة ومراكزها الحوامدية، والبدرشين، وأوسيم، وأطفيح، والعياط، وفي كل مكان كان الصيّتة يرافقونه ويقومون بدورهم خير قيام، أما هو فقد استطاع تطوير أدائه وتطوير كلماته، وتفخيم عباراته، كان كالممثل الذي يقف على المسرح كل يوم ليؤدي دوره المحفوظ في المسرحية، ومع التكرار تكون الإضافات، والتنويعات، والصياح الباكي حتى يستدر الدموع، وكما كان الشيخ كشك يفعل في خطبه فعل أبو إسماعيل الرويني، الشيخ كشك كان يكثر بالسليقة والفترة من الصلاة على النبي ﷺ، والرويني ابتدع طريقة جديدة في الصلاة على النبي تثير بهجة المصلين، إذ بعد الصلاة على النبي والاستزادة كان يقول وهو يفشخ نايبه مبتسمًا «شايك يالي قاعد في آخر الصف ولا تصلي على

النبي. إوعى الشيطان يكون ضحكك عليك، صل معنا على النبي يا من أغمضت عينيك وأغمضت قلبك ارفع صوتك بالصلاة حتى تنال الأجر والثواب».

وكانت قريحته كثيرًا ما تجود له بالقفشات فيوزعها على من يحضرون دروسه وخطبه، ففي درس ألقاه في مسجد بالبدرشين سأله أحدهم عن صلب السيد المسيح فلم يناقش التفصيلات كثيرًا، وإنما أخذ يقرأ من كتاب الله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ وبعد أن قرأ الآية قال ضاحكًا «صلوبونا على النبي»؛ أي صلوا بنا على النبي ولكنه مزج الكلمات لتبدو «صلوبونا على النبي» فضج المسجد ضحكًا لهذه القفشة.

ودارت الحياة دورات ودورات، وممرت السنوات، وأصبح الشيخ أبو إسماعيل الرويني أحد أشهر دعاة السلفيين، لا يجيب عن سؤال إلا وقال: نحن العلماء نجتهد في بحث هذا الأمر ولم تنته إلى رأي واحد بعد، ولكنني أميل إلى رأي الإمام أحمد بن حنبل.

أو يقول: جلست مع إخواني العلماء وشرحت لهم فقه هذا الأمر فأخذوا برأبي:

أو يقول: أنا باعتباري واحدًا من كبار علماء الأمة أقول كذا وكذا.

وكثيرًا ما كان يقول: قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَرْكُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ ينطبق على كل شيء ما عدا العلم، فالعالم يجب أن يقدم نفسه للأمة ويخبرها بعلمه، ألم يقل يوسف عليه السلام ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ﴾.

وانشرت شرائط الكاسيت التي تحمل خطبه ودروسه، ووضع بعضهم كتيبات تحتوي على ملخصات لبعض دروسه، ووسع الله عليه في الرزق، فتزوج أربع زوجات حسناوات متقبات، استأجر لكل واحدة منهن شقة في نفس العقار الذي يقيم فيه، وجعل من شقته الأصلية مضيفة لضيوفه وزواره، وكان كل حين يُطلِّق الأقدم ويتزوج أخرى في ميعة الصبا، وكأنه ينتقم للفترة التي كان لا يتخير فيها، ولكن يُجبر جبراً على القبيحات.

وكان من ترتيباته مع أمن الدولة أن يعود إلى مدينة كفر الشيخ غازياً، فهذه المدينة هي التي كان يتبع فيها الشيخ راضي سلطان ويقوم على خدمته، وهي المدينة التي شهدت أيام صعلكته مع برهومة حجازي «أين أراضيهِ الآن؟ وماذا سيفعل عندما يراني في هذه الهيئة الشائخة؟ وقريتي روينة وغزواتي فيها أين أيامها؟ رحم الله أمي وأبي، ماتا وأنا في رحلة حج مع إحدى الشركات السياحية الكبيرة، كنت مرشدهم في الرحلة كعادي كل عام، أقضي أيام حجي في أفخم الفنادق وأحسن المناجر والخيام، وألقي دروساً عن مناسك الحج، وفوق هذا أتقاضى منهم عمولة كبيرة، فسفري معهم يجذب الحجيج إليهم، ويجعلهم الأعلى أجراً بين الشركات، فتتخيم خزائنتهم بالمال، وحين عدت من رحلة الحج عرفت أن أبي كان قد اصطحب أمي لمدينة كفر الشيخ ليقضي بعض شئونهما، فصدمتها سيارة، ماتت أمي في الحال، ومات أبي بعد يومين، وقام أهل القرية جزاهم الله خيراً بالواجب، حيث قاموا بدفنها في مقبرة خالية لإحدى العائلات الكبيرة، على أن أدفع لهم ثمنها حين أعود، وإذا عدت لم أستطع أن أدخل القرية التي خلت من أمي وأبي وهما كل من كان لي في الحياة الدنيا، فأرسلت واحداً من أتباعي بتوكيل مني، حيث قام

بسداد ثمن المقبرة، وتكاليف الدفنة، ثم عرض البيت والقراريط للبيع وعاد بثمان معقول، والله الأمر من قبل ومن بعد».

قام الشيخ أبو إسماعيل بترتيب أموره قبل أن تدق قدمه على أرض كفر الشيخ. اختار موقعًا متميزًا يقيم لنفسه فيه سكنًا كبيرًا يقع غرب المدينة بالقرب من مدينة دسوق عروس النيل، وأقيم السكن من أربعة أدوار فوق الدور الأرضي، فجعل لكل دور زوجة من زوجاته وأولاده منها، وجعل من الدور الأرضي استراحة له ودار ضيافة يستقبل فيها تلاميذه وزواره ومعارفه، وأحاط البيت بحديقة صغيرة، وبهذا أصبحت كفر الشيخ هي المقر الرئيسي للشيخ، يضع زوجاته فيها، ويتنقل إلى مدن مصر حيث اقتنى لنفسه سكنًا كبيرًا في الإسكندرية، ومصر الجديدة، بالإضافة إلى سكنه في الجيزة.

في مسجد الرحمن كان اللقاء الذي ارتقبته كفر الشيخ، ارتفعت قبله اللافئات ترحب بالشيخ الرويني ابن كفر الشيخ وكبير علماء الدعوة السلفية، وازدحم الجامع عن بكرة أبيه، فشهرة الرويني طبقت الآفاق وسدت عين الشمس، وشرائطه أصبحت تجارة رائجة لكل أصحاب الفرشات الذين يقفون أمام المساجد، كان الشيخ راضي سلطان قد أصابه الكبر بكثير من الأوجاع والأمراض، بحيث انحنى ظهره وكاد بصره أن يكف، كان الشيخ راضي أول المستقبلين للشيخ الرويني في المسجد إلا أنه لم يتعرف عليه، لم يقع في خاطره أبدًا أن هذا الشيخ صاحب اللحية العظيمة والشهرة الكبيرة هو نفسه عطية الكحلوت الذي كان يعمل في خدمته، ويقف على فرشة أمام المسجد، ويرقى فيقف على فرشة في القاهرة - بوساطته - أمام مسجد الشيخ كشك!

وبعد أن انتهت الليلة الحافلة والدرس الذي تجول فيه الشيخ أبو إسماعيل الرويني بين الجنة والنار وعذاب القبر وحيل الشيطان، وقصص الغابرين الشائقة التي استخرجها من الإسرائيليات، خرجت تأوهات الإعجاب من الصيئة الذين حُشروا في هذا اليوم حشراً بين الحاضرين، فتجاوب أهل المسجد معهم.

وبعد الدرس أخذت الأسئلة تنهال على الشيخ وهو يجيب عن بعضها بعبارات عامة ويتهرب من الإجابة عن البعض الآخر، ويشرد في إجابة بعض الأسئلة ليحكى قصصاً مسلية، وبعد أن انتهت الليلة همس الشيخ أبو إسماعيل في أذن الشيخ راضي: ألم تعرفني يا شيخ راضي؟

- لم أعرف كيف ! أنت نار على علم يا مولانا.

- ألا تتذكر أنك تعرفني من قبل؟

بحلق فيه الشيخ راضي وأخذ يعصر فكره، من هذا، من هذا؟

- لن تعرفني يا شيخ فالدنيا تغير كل شيء ولا شيء يبقى على حاله، ولت أيام الشباب، وأنا الآن على شفا أربعين عاماً من العمر، وأنت لم ترني منذ عشرين عاماً.

- من أنت؟

- أنا الشيخ عطية الكحلوت، هل تذكرني؟



دنيانا

كواحد من أهل الكهف كان الإمام أحمد بن حنبل يسير والذهول يعتريه، ما هذه الدنيا الغريبة التي لا يعرفها؟! هذا عالم آخر لم يصل إليه خيال إنسان، أشياء تجري على الأرض بسرعة غريبة، وأشياء تطير في السماء، ورجال يضعون أعوادًا غريبة في أفواههم يخرج منها دخان، وطرق صلبة جلمودية، أرضها سوداء لم ير مثلها من قبل، ونساء متبرجات وأُخر كاسيات، ورجال يرتدون ثيابًا غريبة، معظمهم لا يعفون اللحي، كأنهم من الفرنجة الذين سمع عنهم في زمنه، هل هؤلاء هم أهل مصر؟! فما بال أحوال أهل بغداد؟ أوقفهم مصطفى في مكان غريب، على أرضه زُبُر الحديد ممتهدة ومتجاورة بطريقة منتظمة.

- ما هذا يا مصطفى؟

وقبل أن يجيب مصطفى قال العمدة غريب مندفعًا: هذه محطة قطار يا إمام.

- وما القطار؟

استمر العمدة ممسكًا بزمام الإجابة: القطار هو مجموعة من العربات تسير بعجلات على هذا الحديد.

- عربات! كنا نطلق على السفينة الراكدة في دجلة عربية، وهي أيضًا مركبات تنقل الناس وتجرها الدواب.

- هي مثل هذه المركبات، ولكن لا توجد دواب تجرها.

- وكيف تسير؟

- بالآلات تحركها بسرعة كبيرة.

وقبل أن ينتهي العمدة من كلامه ظهر القطار آتياً من بعيد، فجفَلَ الإمام وأخذ يتمتم بالأدعية والاستغفار، وداخل القطار استبدت به الرهبة فأغلق عينيه وأخذ يرتجف، وبعد حين وإذا استمع لحوارات الناس وتطمينات مصطفى هداً خاطره، وفتح عينيه وأخذ يتجول ببصره بين الجالسين والواقفين، وإذا كانت تحين منه التفاتة للطريق يرى الأشجار وكأنها تسير عكس اتجاه حركة القطار، أغلق عينيه مرة ثانية وأخذ يحدث نفسه: « ما هذا الخطل! أصبحت رجلاً هطلاً، أم أصابني رثي من الجن، العربات تسير بسرعة والأشجار تأتي من الجهة المقابلة وتسير هي كذلك بسرعة، لا بد أنني مرور، يا رب سلم سلم».

فتح عينيه مرة أخرى وأخذ يراقب الطريق بدقة بالغة «سبحان الله، الأشياء التي حسبتها تجري بسرعة واقفة في مكانها لا تتحرك؛ الأشجار واقفة، وولد ساكن بجوار نخلة، وولد آخر يجري يريد أن يسابق العربات التي نركبها، ولكن حركة العربات التي أنا فيها هي التي هيأت لي أن الأشياء الثابتة تتحرك؛ ثابت لا يتحرك، ومتحرك سرعته دوننا، ومصطفى قام الآن واقفاً ثم سار في هذا الممر بين مقاعد العربة، فإذا به متحرك داخل متحرك أسرع منه، وأنا والعمدة ساكنان في هذا المتحرك، هه، ساكن يتحرك بحركة غيره!».

استرخى جسد الإمام ونظر إلى العمدة غريب الجالس على المقعد المجاور له وابتسم له بحنان دافق وهو يقول ﴿وَوَرَى الْجِبَالِ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

عقب العمدة قائلاً: صدق الله العظيم يا إمام، هل حركة القطار هي التي فكرتك بهذه الآية؟

- كل الكون يفكرني بها يا غريب، وما أبدعت قرائحك إلا إلهاماً من الله.

- وهل الله يلهم غير الأنبياء والأولياء والصالحين؟

- نعم أوحى للنحل أن تتخذ من الجبال بيوتاً، وأوحى لأم موسى أن ألقه في اليم، ولم تكن نبيّة.

- ولكن هل يُلهم الله الكفار وغير المسلمين؟ هذه المخترعات والمستحدثات إنما صنعها الكفار وغير المسلمين، ونحن استعملناها.

- وماذا يفعل الله لكم وقد نزعتم عقولكم! الله يلهم من يشاء من عباده، الله يلهم من يسعى ويكد، يلهم من يمسك فسيلة ليغرسها، لا من يجلس منتظراً ثمارها، طلب الله من كل أبناء آدم أن يُعمروا الأرض فقال: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أفلا يلهم من يسعى لتعميرها حتى ولو كان كافراً؟

أنهى الإمام ابن حنبل كلامه ثم نظر إلى وجوه الرجال والنساء الذين في العربية، النساء معظمهن يتشحن بالسواد، وبعضهن يرتدين ثياباً عجبية عبارة عن غطاء للرأس وثوب هو أقرب ما يكون إلى السروال يستر النصف

الأسفل من الجسم، ولكنه ليس سترًا حقيقيًا، فهذا السر وال العجيب يلتصق بالجسد حتى إن كل تفاصيل هذا الجسد تظهر بوضوح بدون إعمال خيال، غض الإمام بصره واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم، وإذ به يسمع صوتًا يقول له: فتح الله عليك يا عم الشيخ، حضرتك بتدي دروس في أنهي بلد؟ حدق الإمام في الرجل فوجده من الفلاحين الذين شاهد مثلهم وهو خارج من بيت مصطفى، استنتج ابن حنبل المعنى ولكنه همس في أذن العمدة مستوضحًا، فأخبره أن الرجل يسأله عن البلد الذي يعطي فيه دروسًا دينية.

رد الإمام على البديهة: في مسجدي ببغداد.

- ما شاء الله عليك يا شيخ، صحيح شكلك غريب عن مصر، يا ألف آه على بغداد يا شيخ، ربنا يعطي صدام ما يستحق، ويلعن أمريكا دنيا وآخرة. فهم الإمام مقصود الرجل، ذلك أن مصطفى كان قد روى لها ما حدث في بغداد وما حل بها، إلا أن شابًا ملتحميًا كان واقفًا يراقب حوار الفلاح مع الإمام، فإذا به يقول: انت شكلك شيعي يا شيخ، العراق فيها شيعة أكثر من الهم على القلب.

رد الفلاح مدافعًا عن الشيخ: يا رجل حرام عليك، شيعي ازاى وهو يقول: قال الله وقال الرسول؟

- يا عم انت، أنا أقصد شيعي وليس شيعي، شيعي من أتباع سيدنا علي ابن أبي طالب، وهم أكثر ناس يكرهون الصحابة ويشتمونهم ليل نهار.

همس ابن حنبل في أذن العمدة: ما معنى ازاي / ومن هو الشيعوي؟ هل هي فرقة جديدة من فرق المسلمين؟

- «إزاي» معناها كيف، وهي أداة استفهام يا إمام، والشيعوية هي طريقة حكم لكنهم لا يؤمنون بالله.

كان الجدل قد احتدم بين الشاب الملتحي والفلاح، وكان مصطفى يتجول في آخر العربة فجاء مسرعًا ليسمع الشاب وهو يقول: ألم تسمعه وهو يقول: إن الله يلهم الكافر! هذا كفر والعياذ بالله.

تدخل مصطفى في الحديث قائلاً: يا أخي صل على النبي، هذا الشيخ غريب عن البلد وهو ضيفي، ولا علاقة له بالشيعية ولا الكفر لكنه رجل مبارك ومن الصالحين.

رد الشاب موجهاً حديثه لركاب القطار: أرايتم يا ناس، يقول إنه رجل مبارك يعني من الفلول.

قال مصطفى زاعقاً: اسكت يا ولد، فلول! هذا هو الذي كان ينقصنا، أيها الجاهل الذي يدعي العلم. كلمة «مبارك» تعني أنه رجل صالح من أولياء الله ومقامه عند الله كبير.

عاد الشاب يقول: ها هو يقولها مرة ثانية، هل سمعتم؟ مبارك رجل صالح ومن أولياء الله الصالحين، عشنا وشفنا.

رد عليه الفلاح البسيط: يا بني هو يقصد أن هذا الشيخ من الشيوخ المباركين وأنه من أولياء الله، لا تتهجم على أولياء الله، ألم تسمع الحديث الشريف: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب»؟

رد الشاب بقحة: «ولي» يعني من الصوفيين عليهم لعنة الله، الولاية للعلماء يا عم وليست للرفاعية الذين يلعبون بالثعابين ويرقصون في الموالد. أثار كلام هذا الشاب المتلحي امتعاض ركاب القطار فأخذوا يوبخونه ويزجرونه، ويسبون تلك الجماعات المتطرفة التي قامت بإلغاء عقول هؤلاء الشباب، وأنبى واحد من الركاب الكلام قائلاً: صلوا على النبي يا اسيدانا، الموضوع لا يستحق هذه المهاتية، ثم أردف بصوت منخفض: داهية تاخذ الجماعات وأشباههم، أفسدوا عقول العيال.

في محطة مصر بميدان رمسيس هبط الثلاثة بحقيبتهم، كان المنظر الذي بوغت به ابن حنبل فوق احتماله، فشعر بقدميه ترتحيان وجسده وكأنه في طريقه إلى التفكك.

«ياسبحان الله، ما هذه الدنيا! ما هذه الأرض التي نسير عليها؟! إنها مفروشة بالحجارة المصقولة مثل التي في قصر الخليفة المعتصم، كل شيء في هذا المكان مدهش ويثير الحيرة، كيف تجمع هذا الخلق في هذا المكان الرحب؟ الأكتاف تصطدم بالأكتاف، والوجوه بعضها جامد لا يشي بشيء، وبعضها تقفز الفرحة منه، وبعضها الآخر تسيطر عليه الحسرة، كل المشاعر تجتمع في هذا المكان؛ هذا الرجل تبدو عليه الحيرة والارتباك، وذاك يتلفت يمينًا ويسارًا يشرب بعنقه ليبحث عن مبتغاه، وهذا الرجل الذي هناك لماذا يعدو بهذه الطريقة؟ هل يفر من شيء؟ لعله يهرب من الشرطة! يا الله! هذه امرأة تحمل صغيرها وتكاد تنفطر من البكاء، ألا يوجد من يكفكف

عنها دموعها؟! وهذا الولد الصغير يبدو أنه يبحث عن أهله، يسير تائهاً بلا مرشد ولا دليل، إليه أيها التائه الشريد، متى تثوب إلى عشك الذي يتظرك؟ ليس هذا المكان مكانك ولا هذه اللحظة لحظتك، اللهم اهده واهد أهله له، كل الناس يتحركون في هذا المكان، هناك من يدخل وهناك من يخرج، وعلى كل أنماط الحركة تدور المحطة بناسها ولا يديرونها، كل الدنيا تجمعت فيها! وصوت هذه القطارات يكاد يصم الأذان، تدخل العربات بانسيابية إلى هذا المكان ثم تتراص فوق أعواد الحديد، كل شيء محسوب، وعندما يأتي وقت المغادرة تغادر بانسيابية كما دخلت، الفارق فقط أنها حين تدخل لمقرها تترفق وتتهادى إلى أن تتوقف، ولكنها حين تخرج تغادر ببطء ثم تسرع في المسير تسابق الريح».

استحته مصطفى على الإسراع في المسير، ولكن قدميه لم تطاوعاه، فاستند من ناحية على مصطفى ومن الناحية الأخرى على غريب، وأخذ يجرجر قدميه وكأنه هو الذي يحملها وليستا هما تحملانه، حتى خرجوا من هذا المكان الغريب، لم يقو ابن حنبل على رؤية هذا العالم الجديد مرة واحدة، فطلب من مصطفى أن يعطي له برهة يجلس فيها على الأرض حتى يستعيد رباطة جأشه، أعطوا ظهورهم للمحطة وجلسوا يفترشون جانباً منزويًا من الطريق، ويقدر انبهار الإمام أحمد، كان مصطفى قلقًا عليه وجده، صحيح أن الجد غريب كان متماسكًا إلا أن شيئًا ما ينبى عن أن بركانًا يفور في داخله، الانتقال من مكان لمكان يحدث ربكة نفسية لبعضهم، فما بالك لو كان الانتقال ليس من مكان، ولكن من زمان لزمان؟ ابن حنبل انتقل عبر ألف

سنة، وغريب انتقل عبر أكثر من ستين سنة، انتقال ابن حنبل هو الأصعب بلا جدال، فدنياه كانت مختلفة عن دنيانا بشكل جذري، ومع ذلك فإن الأمر بقدر ما هو صعب، فهو محير، قد تكون الصعوبة والحيرة أكثر طغياناً عند ابن حنبل من غريب، ولكن كليهما يخرج للحياة كمولود ترك منطقة دافئة مريحة في بطن أمه كان يظن أنها الدنيا كلها وأنه لا شيء غيرها، لتصدمه الحياة الرحة باتساعها وغرابتها، كل مولود يستغرق أعوامه الأولى في التعرف على الدنيا وحاجياتها، ليتعلم الأسماء كلها، ليفهم ويعقل، ليقوم بالتجربة وينفق مرة تلو الأخرى حتى ينجح، تُرى ماذا كان شعور أربنا آدم عندما خرج إلى الحياة، وأخذ ينظر إلى أعضائه ويتعرف عليها، نظر للموجودات التي تحيط به وقام يلمسها ليتعرف عليها، الاستغراب هو الشعور الأول الذي يحتويه حين نهبط إلى الحياة الدنيا، والاستغراب يبدأ من شعور الإنسان بغرته عن المكان أو الشيء الذي استغربه، إذ لم يألفه بعد، ولأنه لم يألفه فإن المكان أو الشيء يصبح غريباً عنه، أما هو فيكون مغترباً عنه، لذلك يكون الاستغراب، ولكن الوافد الجديد إلى الحياة الدنيا لا يشعر بالاستغراب فقط؛ ذلك أن شعوره بالاستغراب يندمج مع شعوره بالدهشة، نعم يشعر بالدهشة قطعاً، والدهشة غير الاستغراب، فالدهشة تصاحب الأشياء المبهجة التي تثير الإعجاب لجمالها أو لرقتها أو شجنتها الشفيف، والاستغراب إنما يكون دائماً مصحوباً بالحيرة والخوف والقلق والإنكار، وفي مزيج الاستغراب والدهشة كانت مشاعر ابن حنبل ترتع، وكانت مشاعر «العمدة غريب» تسبح، بينما كان مصطفى يغوص في قلقه خوفاً على الأمانة التي أوصلها الله له، وعلى جده الذي عاد إلى دنيانا.

وإذ هم على هذه الحالة لم تهدأ نفوسهم وخواطرهم بعد، إذا بمجموعة كبيرة من الناس تتضاماً، وترفع لافتات، وتصرخ بهتافات لم يتبين مصطفى طبيعتها، انكمش ابن حنبل في مكانه، والتصق غريب بحائط المحطة وكأنه يلوذ به من شيء مجهول، قام مصطفى واقفاً وهو يصيح فيهما: انتظرا هنا، لا تتحركا، سأذهب لمعرفة الموضوع.

وقبل أن ينتهي مصطفى من كلامه كان قد اندفع إلى نهر الطريق ليستين الأخبار، وفي اللحظة التي غاب فيها مصطفى عن الأبصار ارتفع صوت فرقة ودوي يصم الأذان، وامتألت السماء بسحب دخان كثيف، قال الإمام بصوت مرتعش: هل هذا هو ضرب النار بالرصاص الذي قلت لي عنه؟

قال غريب وهو يسعل: الله أعلم.. أنا لم أر شيئاً مثل هذا في حياتي قط.

ابن حنبل: ما هذه الدموع التي تنسال من عيني، إن عيني تحرقاني.

زاد سعال غريب وراحت دموعه تترى وشعر بالاختناق فهمهم بصعوبة:

رثتي يا إمام تكاد تنفجر، أريد ماء.

تهافت صوت ابن حنبل: أكاد أهلك أنا الآخر. أشعر بوجهي وكأنه

يحترق، قم بنا ندخل إلى المحطة.

وقبل أن يهم الرجلان بالوقوف حدث لهما ما لم يخطر على بالهما قط.



اقتربت منها مجموعة كبيرة من البشر، كانت تجري مقبلة عليها في

فزع، وخلفهم مجموعة من الجنود تطاردهم وتعمل هراواتهم فيهم، خيل

للشيخين أن الأقدام المسرعة ستدهسهم إن بقيا في مكانها فأسرعا يعدوان إلى داخل المحطة، ابن حنبل يتقدم وهو لا يعرف بأي شيء يلوذ ويحتمي، والعمدة غريب يحمل حقيبة الملابس ويهرول خلفه وصوته يسبقه، رأى غريب عن بعد كشكًا أخذ صاحبه يغلقه بهمة وسرعة، فنبه الإمام إلى هذا الكشك قائلاً: هيا نحتمي بهذا الرجل ومكانه.

ولكن الذي يريدان الاحتباء به ليس بأحسن حالاً منهما، كان صاحب الكشك قد أغلقه وغريب يقول له: الحقنا يا عم الحج، ما الذي يحدث في البلد؟ نريد أن نحتمي بك.

أضاف الإمام: أجرنا، أبارك الله.

إلا أن الرجل كأنه لم يرهما، استدار بوجهه مسرعاً وهو يقول: كل واحد عقله في راسه يعرف خلاصه.

جرى الشيخان خلف هذا الرجل، وإذا دخل إلى بناية صغيرة داخل المحطة دخلاً وراءه، وفي داخل المكان وجدا عددًا كبيراً من الناس يجلسون إما على مقاعد مصطفة وإما على الأرض، فجلسا على الأرض.

كان هذا المكان هو كافيتريا من الكافيتريات التي في المحطة، وبعد أن دخلا إليها قام بعض الناس بإغلاق بابها، كان الناس في الكافيتريا يتشابهون بالكلام، ويختلفون، اشتد بهم الجدل وظهر عليهم الحنق والغضب فإذا الحوار بينهم يأخذ هذا المنحى:

- ألا توجد نهاية لهذا العبث الذي نعيش فيه؟ نريد أن نتفرغ لأكل عيشنا.

- هذا ليس عبثاً، هذه ثورة، وحرام أن يجھض أصحاب المصالح أعظم ثورة في تاريخ مصر من أجل تحقيق مصالحهم.

- أقسم بالله العظيم إن الإخوان متفقون مع المجلس العسكري.
- يا حلو بانت لبتك⁽¹⁾.

- يا عم انت وهو، أكل عيشنا ضاع، هذا هو ما أخذناه من الثورة.

- هل هذا الكلام يرضي ربنا؟ أصحاب «الإسلام هو الحل»، ونريد تطبيق شرع الله، وقال الله، وقال الرسول، هم أول من يريد افتراس الثورة! ما هو الثمن؟ خروج آمن للمشير والفريق! ألم يكونا من رجال مبارك المقربين؟ ثم لماذا جلس الإخوان مع عمر سليمان؟ والله هذه تمثيلية من أجل ابتلاع مصر، الإخوان يا جماعة ومعهم الجماعات الإسلامية لا علاقة لهم بالثورة، صدقوني.

- هذا صحيح هم آخر من دخلوا للثورة وأول من خرج منها، هؤلاء خونة، لا يبحثون عن مصلحة مصر، فقط يبحثون عن مصلحتهم، يريدون الحكم ولا يريدون الدين.

وأخذت الحوارات مسارها ما بين رافض للثورة، ومؤيد متحمس لها، وناقم على الإخوان والجماعات الإسلامية، وملتمس العذر لهم، إلا أن أكثر ما جذب انتباه ابن حنبل أن الناس يتحدثون عن طائفة أطلقوا عليها الإسلاميين، نعم مصطفى أخبره عن الإسلاميين، ولكنه وجد أن هذا

(1) لبتك: اللبة هي موضع القلادة من الصدر وهو الموضع القريب من عنق الإنسان.

المصطلح غريب على أذنه، من هو المسلم ومن هو الإسلامي؟ هل هذا غير ذلك؟ من الذي خرج على الناس بهذا الدين الغريب، دين الإسلاميين! ما هذه الطائفية التي انتشرت في هذا العهد؟ همس ابن حنبل لغريب في أذنه بكلمات، فقام غريب واقفاً متدخلًا في الجدل المحتدم.

- يا أخي الكريم انت وهو، نريد أن نعرف من هم الإسلاميون؟

رد عليه شاب ذو لحية خفيفة: ألا تعرف يا عم الشيخ من هم الإسلاميون؟! هم يا سيدي من يرضون بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبسيدنا محمد ﷺ نبيًا ورسولًا.

سأله ابن حنبل بلكته ولغته العربية الفصيحة: قل لي أيها البهلُول، إذا كان الإسلاميون هم من يؤمنون بما قلت، فبمن يؤمن المسلمون؟
تعجب الشاب واندفع قائلاً: بهلُول! أنا بهلول أيها الجاهل؟
انخفضت كتف ابن حنبل من فجأته وقال: البهلُول هو السيد، لا تنحرف عن فهم مقصدي يا فتى.

- انحرف! أنا لست منحرفًا، أنا داعية كبير، تعلّم كيف تحترم العلماء.
- والله يا أخي العالم لا أستطيع أن أنتقص من نقابك وعلمك أنا فقط أريد أن أعرف بأي شيء يؤمن المسلمون.
- نقابي! أنت رجل منحرف، هل تراني ألبس النقاب، أو أنني من رجال النقابات، صن لسانك واحفظ أدبك.
تدخل بعض الجالسين والواقفين لينهوا النزاع، إلا أن أحدهم سأل

ابن حنبل: لغتك غريبة يا مولانا لكن يبدو عليك أنك رجل طيب، عن أي شيء تقصد عندما قلت لمولانا الداعية إنك لا تنتقص من نقابه؟

- يا أخي الكريم، الرجل الذي ينقب في البلاد بحثًا عن العلم هو الرجل «النقاب».

- هو حضرتك عضو في مجمع اللغة العربية؟

- أنا لا أريد إلا أن أعرف من هم المسلمون في زمنكم هذا.

قال الداعية بكلمات وقور ليستعيد مكانته في المكان: هذه أول مرة يواجهني أحدهم فيها بهذا السؤال! المسلم يا عزيزي هو من قال لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

ارتفعت أصوات الجميع: صلى الله عليه وسلم.

ابن حنبل: أي إن المسلمين هم من يرضون بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبسيدنا محمد ﷺ نبيًا ورسولًا.

- نعم.

- وما الفارق بينهم وبين من تطلقون عليهم الإسلاميين؟

رد أحدهم: يا عم الحج رَيِّح نفسك، الإسلاميون هم بتوع الجماعات.

تدخل غريب يوسف في الحديث وقد ظهر عليه أن صبره نفذ أو كاد: يا اسيا دننا نستميحكم عذرا، نحن أغراب عن هذا البلد وكان معنا صديق ولكنه تاه سنا في المظاهرات، فهل يدلنا أحدكم على كيفية العثور عليه.

رد الداعية صاحب اللحية الخفيفة وقد أخذته الريبة: لما انت غريب
يا حاج لماذا دخلت المظاهرة مع صاحبك؟!

ترك ابن حنبل قعدته واستند على مرفقيه وقام واقفاً: يا سيدي إنما أنا
رجل حَلَّ على بلادكم في رحلة كان الدافع إليها خالصاً لوجه الله تعالى.
بتهمكم: أهلاً وسهلاً، يعني حضرتك سائح من بتوع السياحة الدينية،
وما دمت سائحاً لماذا تشترك في المظاهرات؟

- لقد أنطقك الله بالحق يا فتى، أنا سائح أبحث عن الحقيقة.

وإذا بالداعية يصيح مثيراً الشغب بين الحاضرين: هؤلاء عملاء، شكلكم
من حماس أو حزب الله.

- اقبضوا عليهم، يجب أن نسلمهم للشرطة.

- شرطة! وهل يوجد شرطة؟ الشرطة انتهت يا سادة، نحن يجب أن
نأخذ حقنا بأيدينا، قسماً بالله العظيم ثلاثاً لنقتلكم الآن يا عالم يا كفرة.

هجمت مجموعة من الواقفين على الشيخين، وبدأ الركل واللكم،
والشيخان عاجزان لا يستطيعان الدفاع عن أنفسهما، كَوَّم العمدة غريب نفسه
على الأرض وأحاط وجهه ورأسه بيديه، وعلى إثره فعل ابن حنبل مثله، إلا
أن المروءة تمكنت من بعضهم فأحاطوا بالضارين ومنعواهم من الاسترسال
في الضرب وأحدهم يقول زاعقاً: حرام عليكم يا ناس، أنضربون شيخين
يسدو عليهما الوقار والاحترام لمجرد الشك فيهما؟ من أدراكما أنهما عميلان
أو من حماس أو من حزب الله، أمِن غير تحقيق أو سين وجيم تتهمون الناس
بالباطل؟!

رد أحدهم: خلاص، يبقى أن نسلمهم للشرطة.

قال آخر: نحجزهم هنا إلى أن تنتهي المظاهرة ثم نسلمهم لقسم الأذربكية.

انحدرت دمعة عزيزة من عين الشيخ المُبتلى ابن حنبل، لم تُذرف دموعه من قبل إلا في مواضع خشية الله والتبتل إليه ومناجاته، حتى عندما انهار عليه الجند بالضرب بالسياط كان ثابتاً رابط الجأش، لم تنطلق منه دمعة واحدة، هو لا يبكي أبداً وهو يقف على ثغرة من ثغور الأمة، فلماذا يبكي وهو في شرف لا يدانيه شرف؟ ولكنه الآن في موضع آخر، هؤلاء الرعايا يضربونه إهانة لكرامته، وشكاً في مروءته، سالت دموعه رغماً عنه، إلا أن كرامته انتفضت وابتلعت دموعه قبل أن تعلن عن نفسها، ابتلع دموعه ولكنه بكى، بكى كما يبكي الرجال، والرجل الذي تصاحبه عزة النفس يبكي قلبه، ورأسه مرفوع، وشفته منفرجة عن ابتسامة خفيفة خفية، لا ينعكس رأسه أبداً، هكذا يكون الرجل وهكذا بكى صاحبنا.

رفع رأسه شامخاً ولم يحفل بالضربات التي نهشته، وغريب بين أيدي الضاربين يتلوى، أين أنت يا مصطفى؟ أفي هذا الموقف تترك الشيخين نهياً للمتشككين وأصحاب الهواجس؟! هذه أول مرة يتعرض فيها ابن حنبل للضرب من العامة، وهي أيضاً أول مرة يتعرض فيها العمدة غريب للضرب من أحد على الإطلاق، ولكنك يا مصطفى اختفيت من أمامهما في الوقت الذي هم فيه في أمس الحاجة إليك، ها هما الآن في قسم الأذربكية يتعرضان

للمهانة والإعراض، عالم الأمة يقف بين المشتبه فيهم والمجرمين، ليس الأمر غريباً عليه فقد سبق أن اقتيد إلى سجن الرصافة وهو مقيد بالأغلال، ولكنه الآن لا يهتم بحاله وإنما يرأف بالعمدة غريب الذي كان من أرباب السلطة، ومن حكام البلاد ثم إذا به يقف هذا الموقف، هذا أصعب ما يتعرض له رجل ذو سلطة ومهابة وهيلمان، فجأة يقف في موقف الرعاع المجرمين: «والله لو أن الدنيا كلها أصبحت الآن لقمة في يدي ما توانيت عن وضعها في فم العمدة».

وفي حجرة الحجز المظلمة ذات الرائحة العطنة التي لا يعرف الهواء النقي طريقها اقتيد الشيخان، جلسا على الأرض متهاكين.

جسدك يا غريب نال ما نال، وجسدك يا بن حنبل أخذ نصيبه كأن ضربات المعتصم لم تكفه، أمضروب أنت في كل زمن؟!

انتبه غريب على رجل جالس بجواره ويكي بصوت مرتفع، رق قلبه لهذا الرجل الأشعث المغبر فسأله: ما لك يا عم الحاج؟

- ابني غائب عني منذ ثلاثة أشهر، اختفى بعد أحداث محمد محمود، بحثت عنه في كل مكان فلم أجده.

- غائب! أين ذهب؟

- الله أعلم.... وانهمك الرجل في البكاء.

- ما اسمك يا عم الحاج؟

- أنا صادق.

- والله العظيم أنا عارف إنك صادق، حكايته أوجعت قلبي.

- اسمي صادق يا أستاذ....

- غريب يا حاج، اسمي غريب.

- ما غريب إلا الشيطان يا أخي.

- قل لي يا عم صادق بالراحة، ما سبب اختفاء ابنك؟

- ابني يا أخ غريب اسمه حسين وهو من الثوار، كان أول من وقفوا في ميدان التحرير، وظل ثابتاً لا يغادر الميدان، ويوم الجمعة الثامن والعشرون من يناير أصيب برصاصة في بطنه ولكن الله سلّم حيث قام الأطباء بإنقاذه بعد عملية جراحية استأصلوا فيها جزءاً من القولون، وظل الولد يا سيدي تحت العلاج فترة، إلى أن جاءت أحداث محمد محمود فإذا به يترك البيت بدون علمي ويذهب إلى هناك، كنت خائفاً عليه، فكيفيه ما قدمه للثورة، فكيفيه دمه الذي سال وجسده الذي استأصلوا جزءاً منه، تعرف يا حاج، يوم أن تم الاستئصال قلت له بعد أن أفاق من البنج «ولا يهيك يا حسين، جزء من جسديك سبقك إلى الجنة، وهذه بشرى خير، وأنت إن شاء الله ستذهب إلى الجنة وستكون دليلنا إليها، أنا وأمك».

كنت أضحك يا حاج غريب في وجهه وقلبي يبكي، تعرف يا عم غريب، إذا تأملت فمن الممكن أن يعرف الناس أنك تتألم، ولكنهم لن يشعروا بمدى ألمك، الوحيد الذي يشعر بألمك ويتألم من أجله هو أبوك، والوحيد التي

يكتوي قلبها بالنار من أجل الملك وتتمنى أن يصير هذا الألم إليها بدلاً منك هي أمك.

كان الإمام ابن حنبل يستمع إلى الحوار بأذن صاغية فكان أن سأل الرجل: سمعتك تقول أحداث محمد محمود، من هو محمد محمود هذا؟

مال صادق ناحية غريب وقال له همساً: هل هذا الرجل غريب عن مصر؟ رد غريب: نعم يا عم صادق، هو غريب عن مصر، وأنا أكثر منه غربة.

وجّه صادق كلامه لابن حنبل: محمد محمود هذه يا سيدنا كانت منذ ثلاثة أشهر، كانت هي الموجة الثانية للثورة، خرج الثوار كلهم وذهبوا إلى شارع محمد محمود عند وزارة الداخلية، وكانت مظاهرتهم سلمية، كل ما كانوا يطالبون به هو أن يقوم المجلس العسكري بنقل السلطة لحكومة مدنية منتخبة، كان الثوار يا سيدنا يطالبون العسكر بتحديد موعد لإجراء الانتخابات الرئاسية، ورغم أنهم كانوا سلميين، فإن وزارة الداخلية والعسكر استخدموا معهم كل وسائل العنف، ضرب بالرصاص الحي يا مولانا، والرصاص المطاطي والخراطوش والقنابل المسيلة للدموع وهلم جرا، ضربوهم بأشياء لا تستخدم إلا في الحرب الكيماوية! تصدق يا سيدنا شرطتنا وجيشنا يعتدون على شبابنا بأسلحة محرمة دولياً! سييك انت يا مولانا من كلام الحكومة الذي كان مدهوناً بالزبدة وطلعت عليه شمس الحقيقة فذاب، لكن الذي أوجعنا كلنا هو أن الإخوان لم يشاركوا في هذه المظاهرات، ليس الإخوان وحدهم، ولكن الجماعات الإسلامية كلها، ولماذا

لم يشاركوا في المظاهرات؟ لأنهم كانوا يستعدون لانتخابات مجلس الشعب، وقالوا إن انتخابات المجلس أهم من أي شيء. سبحان الله يا حجتنا، هل هذا الكلام يرضي ربنا؟ تتركون دماء الشباب تسيل، وتقولون إن البرلمان أهم! هل الكعبة يا عمنا - وشكلك رجل بتاع ربنا - أهم من دم المسلم؟! دم المسلم والمصري كان يسيل أنهارًا، الدم روى أرض الوطن، والأرض لا تشبع من الدم، فهو في الأصل منها، والإخوان وقتها لم ينصروا الثورة ولم يقفوا مع الشعب، وقالوا التبرير موقفهم. إننا نأسى لأحداث محمد محمود يا سلام على المشاعر المرهفة! والله لقد قطعوا بباط فلي! ثم قال واحد منهم اسمه راغب السرجاني لضحايا محمد محمود: «صبراً آل محمد محمود فإن موعدكم الجنة». أما الإخوان يا مولانا فإن موعدهم البرلمان.

استدار صادق ناحية غريب قائلاً: تعرف يا عم غريب الكاتب جلال عامر. لم يرد غريب فاستمر صادق متحدثاً: جلال عامر قال هل تعرفون الفارق بين المسلم والإسلامي؟

رد ابن حنبل سريعاً: نعم أنا أريد أن أعرف، ما الذي قاله الشيخ عامر هذا؟ - قال: إن المسلم هو من يتخذ الدين طريقاً ليتبوأ مقعداً في الجنة، أما الإسلامي فهو من يتخذ الدين طريقاً ليتبوأ مقعداً في البرلمان... آه يا حسين، أين أنت؟

قال غريب مستفسراً، وما الذي حدث لحسين منك؟ - الله أعلم، لم يعد إلى البيت، بحثت عنه في السجون كلها والأقسام،

والنيابات، ثم أخذت أتجول بين المستشفيات، لم أترك مستشفى إلا ودخلته
بحثاً عن ابني الوحيد وفلذة كبدي إلا أنني لم أعثر عليه، قالوا لي اذهب
ابحث عنه في المشرحة، ولكنني رفضت، مشرحة، مشرحة، مشرحة لماذا؟ حسين لم
يمت يا عم غريب، حسين ما زال حيًّا يرزق، هل الثوار يموتون؟! الثوار
لا يموتون أبداً مثلهم مثل الشهداء، الثوار أعطاهم الله منزلة أعلى من منزلة
البشر العاديين الذين يأكلون ويشربون وينامون كما البهائم، الثوار لا يبحثون
عن الدنيا أو المناصب أو المال أو الجاه، هل يثور الثوار من أجل عرض الدنيا
الزائل! الثوار يا عم غريب يشورون من أجل الحرية، ستقول لي: حرية
مَن؟ سأقول لك: حرية الذين يأكلون ويشربون وينامون ويضطجعون مع
زوجاتهم كما البهائم، ثم يقولون عندما يستيقظون من نومهم وهم يعبثون
بأنوفهم المقززة: ماذا يريد هؤلاء الثوار، لقد خربوا البلد.

نظر غريب إلى ابن حنبل فوجد عينيه قد اغرورقتا بالدموع، فقال لصديق
وكله أسى: كان يجب أن تذهب للمشرحة يا عم صادق، لا تترك ضناك
هناك.

- ابني لم يمت يا عم غريب، لو كان الثوار يموتون لمات يوم أن ضربه
بالرصاصة في بطنه، ابني ليس في مشرحة، ولكنه في أحسن مكان خلقه
رينا.

- رينا يهديك له ويعيده سالماً غانماً، ولكن ما الذي جاء بك إلى هنا؟
- أنا ساكن في دائرة القسم وكنت قد حررت محضراً بفقد ابني وطلبت

من الشرطة أن تبحث عنه، الشرطة مستولة عنه، والحاكم مستول أمام الله، وكنت كل فترة آتي إلى القسم لأسأل: هل من جديد؟ واليوم أخذت ألح على الضابط بالسؤال، فقال لي اذهب إلى مشرحة زينهم، ثم قال وهو يضحك: لن تجده حتى في المشرحة، فبال تأكيد تم دفنه في مقابر الصدقة، أو تبرعت المشرحة بجسده لكليات الطب، فانفعلت على الضابط وأخذت أقول له: أنت كذاب، كذاب، فاعتبر أنني تعديت عليه أثناء ممارسة عمله وحررتي محضراً، وسيعرضني ليلاً أمام النيابة المسائية، ولو قال لي وكيل النيابة إن ابني مات وجسده في المشرحة سأضع أصابعي هذه في حبة عينه.

انطلقت أفكار ابن حنبل معلنة رفضها هذا الظلم، قال لنفسه: «أنا كنت ثائراً، ثرت في وجه الحاكم الذي أراد أن يخضعنا لكلامه وأفكاره، لك أن تعتقد ما تشاء يا مأمون ويا معتصم، ولكن ليس لك أن تجبرنا على أن نؤمن بما تعتنقه، الثورة شكل من أشكال تطهير الذات، فكما نظهر أنفسنا بالوضوء قبل الصلاة، فإننا نظهر أرواحنا بالثورة في وجه الظالم، ولكن كيف تضيع الأولويات ممن يسمون أنفسهم إسلاميين، يبحثون عن الدنيا ولا يهتمون بالدماء، أكاد الآن أوقن أنهم لا يهتمون إلا بدماء الحيض والنفاس، ولكن دماء الثوار والشهداء لا تعينهم.. كل إنسان في شأن، ونحن هنا في هذا الحبس العطن، وأنت، أين أنت يا مصطفى؟».

مصطفى كان له شأن آخر، ولكل شأن يغنيه، فعندما اشتدت الشرطة في ضرب المتظاهرين أمام مسجد الفتح برمسييس تراجعوا إلى قرب محطة رمسييس، وأخذ البعض يجمع الحجارة ويكسر بلاط الأرصفة ويناولها لفتية

ينقلونها سريعًا للمتظاهرين في الصفوف الأولى فيقذفونها على قوات الأمن، والأمن من ناحيته أخذ يطلق القنابل المسيلة للدموع والخرطوش على أولئك الذين يريدون استمرار الثورة، كان مصطفى قد اندس وسط المتظاهرين إلا أنه أدرك خطأه بترك الشيخين في هذا الموقف فأراد أن يعود إليهما سريعًا، وحين استدار تلقى ضربة على رأسه لا يعلم سببها ففقد الوعي.



أفاق مصطفى من غشيته فوجد نفسه يستطب في مدخل فسيح لعمارة، كانت بوابة العمارة مغلقة وبعض الشباب يتنقلون بين مجموعة من المصابين، شعر بألم شديد على رأسه فتحسس موضع الألم ليجد أربطة تحيط برأسه «آه على هذا الوجع، من الذي ضربني وأين أنا الآن؟».

ومضت في ذهنه صورة الشيخين فقفز من مكانه واقفًا: أين أنا؟ ما الذي حدث لي، من أنتم؟

رد أحد الشباب: هذا مستشفى ميداني يا حضرة، أنت مصاب في رأسك من ضربة حجارة ألقتها جنود الأمن المركزي، احمد ربنا أن رأسك استقبل حجارة ولم يستقبل قنبلة غاز، أو رصاصة خرطوش.

- مستشفى ميداني؟! ومن حضراتكم؟

- نحن من الثوار، وبعضنا طلبة في كلية الطب نقوم بإسعاف المصابين.

جلس مصطفى كما كان، وأخذ يتأوه شاكيًا من وجع الرأس وحرقة الألم، فتقدم إليه الشاب الذي كان يحدثه وأمسك يده وأخذ يسأله: قل لي إذا كنت تشعر بدوار أو غثيان أو صداع؟

زمكان

- هل أنت طيب؟
- لا، أنا علاء طالب في كلية الطب جامعة عين شمس
- لا أشعر بشيء مما سألت.
- هل توجد زغللة في عينيك؟
- لا والله، عيني سليمة ونظري سليم.
- هل تعرف في أي يوم نحن؟
- الخميس.
- هل كنت في المظاهرة؟
- دهده دهده! هو تحقيق با حصرة؟
- أنا أريد أن أطمئن أنك لم تصب من نجاج في مح
- الحمد لله يا دكتور، دماغى مصفحة. هل المظاهرة، ما -- مسمرة؟
- ابتعدت قليلاً، هل تريد أن نخرج لتنضم إليها؟
- لا والله، أريد أن أخرج لأنضم إليهم
- قام مصطفى خارجاً من المستشفى الميداني وأخذ يحدق بمصره ليعرف موقعه، فرأى من الناحية الأخرى محطة رمسيس. فاستخرج هاتفه ليطلب إليها، وحين وصل إلى المكان لم يجد الأمانة، اختفى الشيخوخاء انفساسه ويساراً وأنفاسه تلهث من فرط الهرولة والانفعال، دخل مسرعاً إلى... صه واندهع

ذات اليمين وذات الشمال ونظرات عينيه تسقه. لا أنه لم يعثر لهما على أثر،
وحين رأى بعض الأشخاص يقفون في جمع ذهبهم وقلبه يتمنى أن يجد
خبراً لديهم.

- السلام عليكم يا جماعة.

- وعليكم السلام ورحمة الله.

- هل رأيتم رجلين غربيين نحيفين احدهم سحر الوجه والثاني أبيض
وكلاهما منتح.

- بتوع حماس؟

- حماس! يا داهية دقي، أين هم؟

- قبضنا عليهم وذهبت بهم مجموعة من الشباب إلى قسم الأزيكية، هل
أنت معهم؟

ولي مصطفى مدبراً ولم يعقب، واتجه على الفور إلى قسم الأزيكية، وأمام
الصابط النوباجي أخرج بطاقته وأفهمه أنه مدير في المجلس المحلي لمدينة
سيس، وأنه كان في زيارة للقاهرة مع قريبين له، ولكنه فقدهما.

قال نه الصابط برود: وهـاـ يريد مني أن أبحث لك عنهما؟!!

- لا العفو يا افندم، أنا حايـف تكون الشرطة قبضت عليهما (اشتباه)
لأنهما لا يحملان بطاقات شخصية، فقد نسيناها في البلد.

- وما اسماهما؟

- الإمام أحمد بن حنبل والعمدة غريب يوسف.

- نعم يا حضرة، انت جاي تفوق علينا، الإمام أحمد بن حنبل! ولماذا لم يأت معه الإمام الشافعي والإمام أبو حنيفة وباقي الأئمة؟

- نصيب والله يا حضرة الضابط، كل شيء نصيب ومكتوب، لو رويت لك فلن تصدقني.

- اسمع يا رجل انت، افتح فمك عن آخره.

تعجب مصطفى إلا أنه فَعَرَ فمه، فاقترَب الصابط منه وأخذ يشم أنفاسه.

- هو حضرتك فاكر إني سكران؟ أنا رجل متدين والحمد لله ولا أقترَب من هذه المنكرات.

- اتفضل امش من قدامي وإلا أدخلتك الحجز وحولتك للنيابة حتى تأمر بإجراء تحليل لدمك إن كان عندك دم.

هرع مصطفى خارجاً والضابط يصيح خلفه: بَطَّلْ مخدرات، ولو أتيت هنا مرة، أخرى قَبِّلْنا حبسك.

جلس مصطفى على الناحية الأخرى من شارع الجلاء مرتكئاً على الرصيف، أين يذهب الآن؟ هل سدت الدنيا أبوابها في وجهه؟ لا لم تسد أي باب في وجهه فهو يستطيع العودة إلى بلده مرة أخرى، وكأنك يا أبو زيد ما غزيت، ولكن هل يليق هذا به، أبعد أن وعدهما بالذود عنهما ومناصرتهما ينسل منهما، هل هذه رجولة! ثم كيف يجرؤ قلبه على أن يترك جده نبياً للأحداث؟

«ألم تكن تفكر يا مصطفى في السياحة في الأرض وحيدًا والبعد عن كل الناس؟ ها هي الفرصة قد جاءتك، أنت الآن وحدك، خذ نفسك وابتعد، اذهب إلى طنطا حيث السيد البدوي ومقامه، ادخل وقبّل الأعتاب وتبرّك بهؤلاء الصالحين، وعش ما بقي لك من العمر في الذكر والعبادة».

«ولكن ولماذا لا أتبرك بالصالحين الذين معي؟ يكفيني أنني أرافق إمام الأمة أحمد بن حنبل».

«ومن قال إن ما رأيته كان حقيقيًا؟».

«وهل كان خيالًا أو هلاوس سمعية وبصرية؟».

«أنت أفقت من ضربة على رأسك وقد تكون هذه الضربة قد أثرت على عقلك وجعلتك تتوهم هذه القصة العجيبة».

«إذن لماذا أنا في القاهرة؟ ألم أكن في البلد! أنا لم أتحرّك من السعيدية إلا لكي أرافق الشيخين، إنما الهواجس هي ما يبشئ الشيطان في روعي الآن، فسأبذل كل الحيل حتى أصل إليكما».

انتبه مصطفى من أفكاره التي غيبته عن الدنيا على رجل يمرق من أمامه متجهًا ناحية القسم، كان هذا الرجل متوسط العمر وقورًا نحيفًا يبدو من سيماء وملابسه أنه شخصية ذات اعتبار وحيثية، أسرع مصطفى خلف الرجل صائحًا: يا أستاذ، يا أستاذ.

الفتت إليه الرجل قائلًا: خير يا عم الحاج.

- هوَ حضرتك نيابة أو مباحث؟

- لا نيابة ولا مباحث أنا محام، خير.

- طيب ممكن تساعدني؟

- لو كان في إمكاني فلن أتأخر عليك، ما هي مشكلتك؟

- كان معي شيخان من أقاربي، وهذه أول مرة في حياتهما ينزلان مصر، ومن حوالي ساعتين كانت هناك مظاهرة عند جامع الفتح و... واسترسل مصطفى في شرح الأزمة التي تعرض لها هو والشيخان وما لاقاه داخل القسم من تجهم وإعراض، فطلب منه المحامي بيانات الشيخين، تردد مصطفى إذ خاف أن يعتقد المحامي أن به لوثة عقلية إن ذكر له اسم الإمام ابن حنبل، فاكتفى بأن قال له: والله يا أستاذ من الحظ النكد أنهما مريضان، وقد أحضرتهما للقاهرة من أجل العلاج، واحد منهما عمدة قد الدنيا من الشرقية اسمه الحاج غريب يوسف غريب، والثاني اسمه الشيخ أحمد أبو عبد الله، وهو رجل بركة من أهل الله، وليس معهما تحقيق شخصية.

أشار له المحامي بالسير معه حتى دخلا على الضابط النوباتجي، انزوى مصطفى سريعاً في ركن قصي حتى لا يلحظه الضابط، إلا أنه وجد الضابط يش في وجه المحامي محيياً إياه: أهلاً بك يا أستاذ سيد، خير إن شاء الله.

- أريد أن أسألك عن بعض الشباب الذين كانوا في مظاهرة جامع الفتح، قيل لي إنهم هنا في القسم.

- لا والله يا أستاذ سيد، المقبوض عليهم في المظاهرة يأخذونهم مباشرة

كما تعرف إلى معسكر من معسكرات الأمن المركزي، الحجز في القسم لا يتسع لأعداد المقبوض عليهم، ولو كان عندي أحد لأخبرتك.

- هل تعرف إلى أي معسكر ذهبوا؟

- في الغالب سيكرونون في معسكر الدراسة.

- أشكرك يا باشا، لكن لي خدمة صغيرة عندك لو تفضلت.

- خير يا أستاذ سيد، أنا تحت أمرك.

- يوجد شيخان في الحجز عندك، أحدهما عمدة من الشرقية، ولا يحملان تحقيق شخصية، انت تعرف طبقاً أننا في ثورة، وهؤلاء من الفلاحين الذين لا يعرفون شيئاً عن القاهرة ووووو.... وأخذ الأستاذ سيد المحامي يشرح للضابط محاولاً إقناعه بإخلاء سبيل المحتجزين، والضابط يقاومه، والمحامي يلوح له بأنه ليس من حقه أن يحتجز مواطناً دون وجه حق، ودون أن يرتكب جريمة، وأننا في عصر الحريات، ولا شيء يعلو على حرية المواطن، وأن منظمات حقوق الإنسان من الممكن أن تفضح هذا الاحتجاز خاصة أن المحتجزين مريضان وقد يهدد الحجز سلامتهما، لم تسفر محاولات المحامي عن نتيجة فأنجه بالحديث إلى منحى آخر.

- أنت حمر يا حصرة الضابط، لكن أريد أن أخبرك أن أحدهما عمدة كسر، وإذا لم تفرج الآن عنهما فستفتح عينيك بعد قليل على أهل بلده وهم محاصرون القسم. وقتئذ ستكفون كارثة، ألا هل بلغت اللهم فاشهد، السلام عليكم.

- انتظر يا أستاذ سيد، الكلام أخذ وعطاء، المشكلة أن من أحضر وهم يقولون إنهم شكوا في حقيقتهم، يظنان أنها من حماس.

- وهل حررت لهما محضراً وسألتها؟

- ليس بعد.

- إذن أحضرهما الآن لنسمع ردهما على ما قيل في شأنهما، والبينة على من ادعى واليمين على من أنكر.

جاء الشيخان يتكئان على بعضهما، يسيران على مهل وضعف، ووجه الإمام ازدان بالكدمات، وآثار دم على وجه العمدة، نظر الأستاذ سيد إلى الضابط مستنكراً: ضرب وتعذيب يا حضرة الضابط داخل القسم.

- ضرب! لم يضربها أحد يا أستاذ داخل القسم، ولكنها جاء الي بهذه الحالة.

تقدم مصطفى لأول مرة ليظهر في دائرة الرؤية وهمس في أذن المحامي، فتقدم المحامي إلى حيث الإمام أحمد وطلب منه أن يكشف عن ظهره، وإذا فعل الإمام هذا ظهرت علامات الضرب بالسياط بوقاحتها وقسوتها، صاح المحامي: ما شاء الله يا حضرة الضابط، ضرب بالسياط على ظهور المحجوزين، هل جاء لك بهذه الحالة أيضاً!

لرتبك الضابط وأخذ يلين بين يدي المحامي الأريب، وإذا حاول أن يستنطق الشيخ المضروب بالسياط عن سبب هذا الضرب ومن الذي فعله إلا أنه لم يتلق إجابة إذ لزم الإمام الصمت.

خرج المحامي من القسم ومع الغنيمة التي اغتتمها، حصل على حرية رجلين بريئين، كانت هذه هي أسعد لحظات هذا المحامي الذي عاش عمره يكد من أجل الحرية، نذر نفسه للناس، ظل في عونهم دون أن يبحث عن مقابل، هل في الدنيا من يضحى بوقته وجهده وماله بل وعمره كله من أجل مبادئه؟ نعم يوجد ولكنهم يعملون في صمت لا يراهم أحد، لا نشعر بهم إلا إذا افتقدناهم، هؤلاء هم الذين يعملون من أجل قناعاتهم ويستغنون من أجلها عن طموحاتهم الشخصية، أما أصحاب الشهرة والحديث المتراص المنمق البارد الذي لا يحمل حرارة الرجال، فهؤلاء يضحون بقناعاتهم ومبادئهم ويبيعون أخلاقهم من أجل طموحاتهم، ويدلون مواقفهم كما يدلون جواربهم، وحين يدلونها يشعرون في قرارة أنفسهم بنقيصتهم فيقولون إنما التبديل كان من أجل الوطن، نحن مع الوطن ندور، وهم في الحقيقة مع «الوثن» يدورون، يقيمون في أوثانهم التي صنعوها، ويهجرون أوطانهم التي صنعتهم، ولأن الشرف ينقصهم فهم لا يتكلمون إلا عنه، تناظر رجلان ذات يوم، فأخذ أحدهما يتحدث عن الشرف والوطنية، فأعجب به الجمهور أيما إعجاب رغم برودة كلماته ونمطيتها، بينما قال الآخر موجهاً كلامه لمن نظم المناظرة: ما قدر المال الذي ستأخذه من وراء هذه المناظرة؟ فإنني أرى عددًا كبيرًا من الجمهور دفع من ماله ليحضر، كما أن قنوات التلفزيون المتعددة تصورنا على الهواء!

بوغت الجمهور بكلام الرجل واستصغر شأنه، ووجدها الآخر فرصة للنبيل منه، فقال له وهو يظن أنه يوجه له الضربة القاضية، أتحدث عن الشرف والوطنية، وتحدث أنت عن المال.

فرد الآخر ردًا مسكّنًا: كل واحد منا يتحدث عن الشيء الذي ينقصه.
وعلى باب القسم أخذ مصطفى يشد على يد المحامي شاكرًا إياه لحسن
صنيعه: جميلك في رقبتي يا أستاذ لن أنساه ما حييت، كم تريد من أتعاب؟
رد المحامي باسمًا: أنا لا أتقاضى أتعابًا في قضايا الحريات أو العمال أو
الفلاحين.

قال العمدة غريب: أتعابك عند ربنا يا متر، ولكننا نريد أن نتعرف عليك،
يمكن نأخذ اسمك وعنوانك لربما احتجنا إليك مرة أخرى.
- اسمي سيد فتحى المحامي يا حضرة العمدة، مدير مؤسسة الهلال
للحريات، خذ هذا الكارت ففيه عنواني ورقم هاتفي.
وقبل أن يقرأ العمدة ما في الكارت كان سيد فتحى قد اختفى.



حادثة المنصّة

(اللهم إني أعوذ بك من عذاب النار، وعذاب القبر، ومن فتنة المحيا
والمات، اللهم اختم بالصالحات أعمالنا، اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي
الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، يارب إنك القائل في كتابك ﴿إِنَّ الَّذِينَ
عِنْدَ اللَّهِ أَلْأَسْلَمُ﴾ وأنت القائل ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلْتُ وَجْهَ اللَّهِ﴾ وقد
أسلمت نفسي يا الله وانخلعت عن أنانيتي وذاتي، يا رب نجني من هذا
الأمر الذي أنا فيه كفافًا، لا علي ولا لي، اللهم إنك تعلم السرّ وأخفى،

- فهل الدعاء بالخير بدعة؟
 - لا بالقطع.
 - وهل المصافحة بدعة؟
 - أيضًا لا.
 - أجبت بنفسك.
- تدخل مصطفى: ولكن هناك من يقولون نقلًا عنك يا إمام، إن هذا الفعل بدعة.
- مندهشًا ومستغربًا: لم أقل هذا أبدًا ومن نقله عني افتري عليّ، قل لي يا مصطفى هل سمعت دعائي بعد التشهد وقبل التسليم؟
- نعم يا إمام سمعته، كنت تدعو بصوت خافت ولكنه مسموع.
 - الدعاء الذي تعبدت به لله سبحانه فيه ما هو مأثور عن الرسول ﷺ وفيه ما كان إلهامًا أجراه الله على لساني ولم يقله الرسول، فهل هذا الدعاء بدعة... وهو في الصلاة نفسها.
 - لا ليس بدعة.
 - فكيف تكون مصافحتكم ودعاؤكم يعد الانتهاء من الصلاة بدعة!
 - قال العمدة غريب: ولكن لماذا تكره أن ينقل الناس علمك يا إمام؟!
 - أحبُّ أن ينقلوا عني الحديث الشريف، وليس عندي في الدنيا أحب من هذا، ولكن الرأي والفتوى فلسْتُ أهلاً لها.

- ولكن كل الخلق نقلوا عنك رأيك في القرآن.
- هذا لم يكن رأي، هذا دين، ولم أقله من عندي ولكن من كتاب الله.
- أتكره من ينقل الرأي والفتوى عنك؟
- لا ولكن أكره أن يُنقل الرأي عني، ذات يوم يا غريب كنت أجلس مع أبي بكر المروزي، فجاء لي رجل من خراسان يحمل أوراقاً فأعطانيها، فنظرت فيها؛ فإذا فيها كلام لي، فغضبت وألقيت الأوراق كراهية أن يروي عني أحد شيئاً.
- قام مصطفى واقفاً: أتحب أن أحضر لك شيئاً باللبن يا إمام، لقد كان يوم أمس متعباً لكياً؟
- اجلس يا مصطفى أريد أن أتحدث معك قليلاً.
- جلس مصطفى فاستطرد الإمام: قلت لي بالأمس عن هذا الصندوق العجيب الذي صعد بنا إلى هنا أن اسمه «المصعد»!
- نعم يا إمام اسمه مصعد.
- هذا من عجائب ما رأيت في حياتي، ويخلق ما لا تعلمون، هل هذا المصعد كان في أيامك يا غريب؟
- نعم يا إمام ولكنني لم أركبه إلا مرة واحدة عندما ذهبت إلى مكتب حامد باشا زكي في القاهرة.
- سمعتكما تقولان إننا في القاهرة، ما القاهرة؟ لم أسمع عنها في زماني، كنت أعرف القسطنطينية والعسكر.

مصطفى: القاهرة هي عاصمة مصر يا إمام، ونحن الآن في منطقة مدينة نصر إحدى ضواحي القاهرة.

- وما المسجد الذي بجواركم؟

- اسمه مسجد خضر التوني، سنصلي فيه الجمعة إن شاء الله.

- لقد عرفت في هذا اليوم يا مصطفى الكثير من لهجتكم، فقد كان الحجز مدرسة لي، إلا أنني لن أكلم أحداً من أهل مصر حتى أعرف كيف يفكرون، وكيف هو دينهم، من اليوم سأكون مستمعاً ولن أتكلم إلا معكم.

كان السكن الذي أوى إليه الرجال هو شقة في «عمارات التوفيق» بمدينة نصر كانت لأحد أقارب مصطفى، وكان هذا القريب قد سافر سفيراً بعيداً وأعطى مفتاح شقته لمصطفى كي يراعيها ويقوم فيها إذا نزل إلى القاهرة ليقضي بعض شئونه، وعلى الناحية الأخرى من هذه العمائر ترتفع منذنة مسجد خضر التوني الشهير.

أعد مصطفى الإفطار فأكل الإمام لقيمات وشرب رشقات من اللبن، وبعد إفطارهم صلوا الضحى ثم ناموا، وحين رن جرس المنبه انتفض الإمام من نومه فرعاً: يا رب سلم سلم، ما هذا، ما هذا!

قام مصطفى يفرك عينيه: هذا هو المنبه يا إمام؟

مط غريب جذعه متثابثاً: يضرب الجرس في الموعد الذي نحدده.

ابن حنبل: وكيف تعرفون الوقت؟

مصطفى: بالساعة.

ابن حنبل: الساعة! يا رب سلم ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾.

مصطفى: أقصد ساعة الدنيا يا إمام وليست ساعة الآخرة، والساعة هي أداة اخترعها الإنسان ليتعلم منها المواقيت.

ابن حنبل: ويخلق ما لا تعلمون، ولكن الإنسان يستطيع - إذا أراد - أن يبنه نفسه ويستيقظ في الوقت الذي يريد.

مصطفى: هذه أشياء انطفأت فينا يا إمام فمع كل اختراع تضع ملكة من ملكات الإنسان، المهيم الآن أن نقوم لنغتسل غسل الجمعة حتى نستعد للصلاة.

كان مسجد خضر التوني مزدحمًا الأمر الذي أبهج قلب الإمام: ما شاء الله، هؤلاء هم عُجَّار المساجد، همس مصطفى في أذنه: يقولون إن الخطيب اليوم هو العالم السلفي والداعية الشهير أبو إسماعيل الرويني، لذلك فإن المسجد مزدحم عن آخره، ولو تأخرنا قليلًا ما وجدنا مكانًا داخل المسجد. - رغم أنني لا أستسيغ كلمة سلفي هذه فإنني أتمنى أن نسمع خطبة طيبة إن شاء الله.

كانت عين الإمام ابن حنبل قد تعودت نوعًا ما على الدنيا الجديدة، وههبتها، وطبيعة الناس فيها، أهل مصر من السهل أن تألفهم وتتواد معهم ورغم أنه تلقى في المحطة ركلاً وضربًا منهم فإنه عذرهم، فالناس أعداء ما يجهلون.

سيخلد في سار حهم لا يخرج منها أبداً، تعرفوا الظريف ده قال لي إيه؟ قال لي. ومن هو الكافر؟ شوفوا السفسطة! حاجة غريبة والله، هل سحتاج الآن بعد هذه القرون الطويلة من بعثة الرسول ﷺ إلى تعريف جديد للكفر، هل سثبدل ديننا من أجل أن يفرح بنو العلمانيين والليبراليين وساء أولئك رقيقاً؟ الكافري يا ظريف يا بتاع السفسطة هو كل من أنكر وجود الله وأنكر دين الإسلام، وحدوا الديان، ريك قال لك يا مسلم ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ هل هناك أكثر من ذلك؟ نعم، فقد قال في محكم آياته ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ قام الظريف سألني. وهل المشرك غير الكافر؟ نعم يا عبد الله، المشرك غير الكافر، وكلاهما في نار الخلود، فالمشرك من يعبد الله ولكنه يعبد معه إلهاً آخر، زي النصراني كده، إوع حد فيكم يفتكر إن النصراني دول أهل كتاب، هم أهل شرك، الذي يقول إن الله ثالث ثلاثة مشرك، وكافر، لماذا مشرك، لأنه كما قلت لكم أشرك مع الله إلهاً آخر، ولماذا كافر؟ لأنه كفر بوحدانية الله، الظريف ده يا إخواننا لا يهدأ أبداً، هؤلاء هم أهل الباطل، يريدون البحث عن ثغرة لينشروا الفتنة، فسألني عم الظريف: هل عندما أقابل النصراني أحبيه بتحيةة الإسلام، شوف يا اخويا، إذا قابلت النصراني فلا تحيه بتحيةة الإسلام، قل له أي تحية؛ صباح الخير أو صباح الفل، وإذا وقع في مشكلة فلا مانع أن تقدم له يد المساعدة؛ لأن الرسول ﷺ قال (دخل رجل الجنة في كلب سقاه). يا أخي! نزل هذا منزلة ذاك.

كانت أفواج المصلين خارج المسجد لا حصر لها، استند ابن حنبل على

العمدة من ناحية وعلى مصطفى من الناحية الأخرى ومرق معها من الزحام، وقال بصوت خافت لصاحبيه: أصابني هذا الرجل بدوار، كيف تحمّله الناس.

كان مصطفى قد طلب من خلال الهاتف سمكًا مشويًا من أحد المطاعم، وعندما رُفِعَ أذان العصر قال ابن حنبل: سنأكل إن شاء الله تعالى بعد أن نقيم الفرض.

استفهم مصطفى: أراك لم تستعد للنزول للمسجد يا إمام، هل سنصلي هنا؟

- سنصلي هنا جماعة، هذا الخطيب أصابني بالصمم والغثيان.

وبعد أن فرغوا من الصلاة تحلقوا حول السمك المشوي، لم يكن ابن حنبل قد تذوقه من قبل، فأخذ منه قطعة صغيرة أخذ يلوكها، سأله مصطفى: هل الكلام الذي قاله الخطيب صحيح من الناحية الدينية يا إمام؟

- هذا الرجل ليس عنده أثاره من علم، وهو يلبس الحق بالباطل، إما جهلاً، وإما قصدًا.

وما هو الصحيح إذن؟

- ليس الآن يا مصطفى، ليس الآن، لكن أخبرني ما هذا الذي تسميه هاتفًا أو تليفونًا؟ إنه أعجب ما اخترعتم، صوتي يصل إلى غيري الذي يقيم بعيدًا عني، سبحان الله، ويخلق ما لا تعلمون.

مصطفى نيهذا من اختراعات الكفار. يا إمام، هم يخترعون ونحن نستعمل؟

- نريد أن نعرف يا مصطفى المساجد التي يلقي فيها علماء الأمة دروسهم، أورد أن أستمع اليوم لدرس من عالم غير هذا الذي أسمعتني إياه.

كان غريب يوسف صامتًا لا يتكلم وكأنه نذر الصوم عن الكلام، كانت قسوة الشيخ أبي إسماعيل الرويني وهو يخطب أرهفته وشوشت على فؤاده، ابن الرقة في الأداء واللين في مخاطبة الناس، ولكن... لكل زمن رجال، ويا لفظاظه رجال هذا الزمن.

مرت أيام والإمام يتجول مع رفيقيه في مساجد القاهرة، تعرف خلالها على ملامح القاهرة وشوارعها وحواريها، ودروبها ومسالكها، أخذ يستمع لحوارات الناس وشئونهم وشجونهم، رأى بعينه معظم المخترعات الحديثة، حتى إنه جلس في أحد مقاهي الإنترنت وأخذ يشاهد ويستمع لكثير من الشيوخ مثل محمد حسان وأبي إسحاق الحويني ومحمد حسين يعقوب ومحمود المصري، وأصابه الفزع عندما استمع إلى الشيخ وجدي غنيم، وشيخ آخر اسمه عبده قمر وهو الظلام بعينه، وعند مساء الأربعاء أول فبراير عاد الإمام ورفيقاه إلى البيت، فأخذ غريب ومصطفى يسألان الإمام عن أشياء جرت علي خاطريهما، قلل غريب: ماذا نفعل يا إمام عندما نستمع من التلفزيون أو المذياع، أو تسجيلات الكاسيت، أو هذا المسمى بالإنترنت، لآية من آيات السجدة، هل نسجد عندها، أم لا؟

- لا أدري والله أعلم يا غريب.

قال مصطفى: وهل عندما نستمتع لدعاء أحد الشيوخ يخرج من هذه الأجهزة، هل يصح أن نؤمن على هذا الدعاء؟

- لا أدري والله أعلم.

مصطفى: وهل يجوز أن نصلي جماعة خلف الإمام الذي يؤم الصلاة مباشرة على التلفزيون؟

- لا أدري والله أعلم.

غريب يوسف: عرفت أن بلاد العرب خرج منها سائل يسمى البترول يستخدم في توليد الطاقة وأشياء أخرى، فهل تلتزم هذه الدول بسداد زكاة المال عن هذا البترول يا إمام؟

- كان رأيي الذي كنت في زمني إن الذي يعثر على معادن بلغت النصاب فعليه زكاتها كما كانت أو نضفة أو غير ذلك، وهي ربيع العشر عند الظهور عليه، وتسمى زكاة الركاز، ولكن الواقع الآن يختلف، فالذي عرفته منكم أن الذي يمتلك الآن هذه المعادن ليسوا الأشخاص، ولكن الدول، والشركات، والله أعلم هل تجب على الدول والشركات الزكاة أم لا؟

قال مصطفى وقد ينس من أن يحصل على إجابة: كلما سألتك عن شيء من المستجدات لم تجب علينا يا إمام، بل إنك لا تقول إلا: الله أعلم، لا أدري!

قال ابن حنبل: هل تعرف يا مصطفى أن الإمام مالك سُئِلَ عن ثمان

وأربعين مسألة، فقال في اثنتين وثلاثين منها لا أدري، يا مصطفى لا تبحثوا عن اجتماعات الأولين فكلُّ اجتهد لزمانه وواقعه، ولكن اجتهدوا لزمانكم، اجتهدوا لمكانكم، هذا ليس زمني فلا أستطيع أن أجتهد فيه إذ لا أعرف واقعه كما تعرفونه.

وبينما الحوار دائر بينهم إذا بصراخ مفرع يأتي من شقق العسارة التي يسكنون فيها وباقي العمائر المجاورة.



عاد مصطفى إليهما وهو يحمل أخبارًا حزينة، كانت هناك مباراة في كرة القدم في مدينة بورسعيد بين فريقَي الأهلي والمصري البورسعيدي، وقبل أن تنتهي المباراة نزلت الجماهير إلى أرض الملعب، ويبدو أن البعض كان قد بيّث النية على ارتكاب مجزرة فندس بعض المجرمين بين الجماهير، وعند نزول الجماهير إلى أرض الملعب هم هؤلاء الأوغاد المجرمون على جمهور النادي الأهلي وأعمقوا ليهم القتل والنهب، هذه مذبحته لم يحدث مثلها في تاريخ مصر، لم تنطلق صرخات انساس في بيوتهم من هول ما حدث، ولكن لأن الذي حدث هو الهول ذاته، مصر لم تكن هكذا أبدًا، لم تكن فيها هذه الدموية المرعبة، أفجأة تتحول تلك الطبيعة الوداعة المسالمة إلى عدوانية شرسة، ما الذي حدث للمصريين؟ كنا في أزمنة مضت وانقضت نفخر بأننا أهل المروءة والشهامة حتم، أصبح تعبير «الجدعنة» من ألصق التعبيرات بالشخصية المصرية، وقد استمد المصريون هذه الكلمة من كلمة جدع، والجدع هو الشاب القوي، كانت قوتنا في الخير فوجهها البعض إلى الشر.

كتبت كل الصحف عن هذه الجريمة التي هي من جرائم «الإبادة»
 وتحذات المحللون في القنوات الفضائية كل يشرح ويحلل ويُظنر، قال
 البعض: إن هذا الإجرام لم يخرج إلا من بعض فلول النظام السابق انتقامًا
 من الثورة، ورد البعض عليهم: ولماذا يقوم فلول النظام السابق بهذا الفعل؟!
 هذا تصرف من يريد إبعاد النظر عن أمر ما، كهذا الموظف الذي يسرق مخزنًا
 خلسة فيحرقه ليخفي جريمته، هناك جريمة سطو تتم على البلد، ولكي تتم
 بسهولة ودون أن يلتفت إليها أحد فليكن هناك حدث ضخم يشغل الأذهان
 ويؤرق الضمائر ويزيد كراهية الشعب للنظام السابق الذي أحاط به الفساد
 والطغيان، الأمر إذن يتلخص في مجرم مفسد تخلصنا منه، فإذا الذي يريد
 أن يسرق البلد من الثوار ليس مفسدًا مجرمًا فحسب، فالإجرام يتقاصم عن
 تصرفاته وسلوكه، ولكنه مفسد سفاح.

ظل ابن حنبل عدة أيام لا يستطيع النوم لما سمع به ورآه في التلفزيون،
 كان من عادته أن يستيقظ في الثلث الأخير من الليل ويظل مصليًا إلى أن
 يؤذن للصبح، وبعد حادث بورسعيد انحسر النوم عنه فصار لا ينام إلا
 ساعة ثم يستيقظ ليقوم الليل كله، ولم يكن هذا الأرق بعيدًا عن غريب، بل
 صاحبه هو الآخر، كان قيام ليله مختلفًا عن قيام ابن حنبل، فقد كان الإمام
 لا ينفك عن الصلاة، أما غريب فيصلي أربع ركعات متفرقات ثم يقضي الليل
 في الذكر والتسبيح وتلاوة الأوراد، ويزاد على غريب أن يرقه شعوره أسالت
 الدموع من عينيه مدرارًا، وعلى حين غفلة وجد أن رعشاته وارتجاجاته تزداد
 يومًا بعد يوم، وعندما وجد أن حركة اهتزازية لا إرادية أصابت يده عرف أنه

أصيب بمرض الشلل الرعاش، فقد خبر هذا المرض وعرف آثاره وأعراضه عندما أصيب به والده.

حال مصطفى لم يختلف عنهما، فكل حادثة من حوادث الموت كانت تُقلِّب عليه الأوجاع وتعيد له ذكرى موت ابنه نور، وما أدراك من نور، وإذا كانت فجيعة ذات يوم في ابن واحد ففجيعة اليوم في أموات وأموات، لذلك لم يكن يقيم الليل إلا بقوله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

كادت الأموال التي مع مصطفى تنفذ، ورغم أن الشيخين لا يكادان يأكلان فإن توالي الأيام بدد معظم ما كان معه من مال، الآن تذكر مصطفى أسرته التي تركها، لم يستطع أبداً أن يضعها في غياهب النسيان، وأنى له أن ينساهم وهم دمه ونبضه، ولكنه حاول أن يبعد ذاكرته عنهم حتى لا يتذكر ذلك الوجع القاتل الذي أصابه بموت نور، وجع ما بعده وجع، كأنهم أحضروا نصلاً حاداً ومزقوا به نياط قلبه تمزيقاً «يا ويح وجعي وألمي وشوقي لك يا نور، في لحظات ضعفي أستدعيك دائماً أشد بك أزري وأحورك وأتفاهم معك وأوصيك أن ترعى نفسك، وفي لحظات ضعفي هذه لم أستدعك وحدك، ولكنني استدعيت أمك وإخوتك، فحين الضعف لا نتذكر إلا من نحبهم، وأنا تواطأ عليّ الضعف من كل ناحية، كيف تتحملين غيابي يا ثريا، هل تبحثون عني أم فقدتم الأمل في عودتي؟ أعرف أن هذا المكان الذي أؤينا إليه لن يرد على خاطركم أبداً، وإن ورد فأنتم لا تعرفون السبيل إليه، انتظروني يا ثريا فموعدني معكم قريب».

حين نفذ المال من جيب مصطفى اصطحب صاحبيه وذهب بها إلى البنك الأهلي وسحب مبلغًا من رصيده كان قد ادخره لوقت الحاجة، هناك حاجة أهم من هذه الحاجة؟! أخذ الإمام أحمد يسأل مصطفى عن البنوك وطبيعتها، فشرح له مصطفى بخبرته كمحاسب أعمال البنوك سواء كانت ودائع أو قروضًا، وطبيعة النقود، وأفاض معه وهو يتحدث عن الفائدة البنكية، سواء في الإقراض، أو في الوديعة، وحين عادوا إلى البيت استكمل مصطفى شرحه، كان يريد من خلال هذا الشرح أن يضع الإمام أمام واقع الأمة فيما يتعلق بالبنوك، والإمام كان يستمع باهتمام وتركيز شديدتين، وبعد أن خُيل لمصطفى أنه وضع كل شيء أمام الإمام قال له: انظر يا إمام الأمة، سأسألك عن شيء مهم ولا تقل لي كعادتك. لا أدري، هل فائدة البنوك حرام؟ أنا شخصيًا أخاف منها، ولذلك أضع مالي فيما يسمى بالحساب الجاري وهو لا يرتب فائدة، وما فعلت ذلك إلا اتقاءً للحرام مخافة أن أقع فيه

- وماذا قال علماء عصركم عن تلك الفوائد؟

- معظمهم قال إنها هي الربا المحرم.

- قياسًا على أي شيء، هل المال هو المال، أم تغيرت طبيعته؟

- الله أعلم فأنا لا أعرف شيئًا في دروب الفقه، ولكن مع ذلك هناك قلة قليلة أجازت هذه الفوائد في حالة واحدة فقط هي: إذا كان الشخص هو المودع وكان البنك هو الذي سيدفع الزيادة.

- لكي يجتهد علماء عصركم في هذا الشأن يا مصطفى يجب أن يبحثوا

عن طبيعة النقود ونوعيتها، فما لكم الذي رأيته يختلف عن مالنا، وقد رأيت عندكم ما تسمونه الأوراق النقدية الورقية، فهل قيمة هذه الأوراق ثابتة أم متغيرة؟ وقد عرفت منك أن هذه الأوراق كانت في بدايتها عبارة عن سندات تعطي الحق لصاحبها في أن يأخذ قيمتها من بيت المال ذهبًا، فهل الأمر ما زال يسير على نفس المنوال أم اختلف؟ وهل أوراقكم النقدية هذه سلعة أم أداة للوفاء؟

- سلعة! لم يرد هذا الخاطر على بالي من هذه الناحية يا إمام، ولكن النقد ليس سلعة، هو فقط أداة تمكنك من اقتناء السلعة.

- وهل تظل قيمتها ثابتة أمام السلعة أم أنها تختلف من حين إلى حين؟
- تختلف طبعًا، فما أستطيع اقتناؤه اليوم بقيمة نقدية معينة قد لا أستطيع اقتناؤه غدًا بنفس القيمة.

- إذن ما هو الحال بالنسبة للقروض طويلة الأجل عندما تقل قيمة النقد الورقي بشكل كبير فلا يستطيع أحدكم بالمال الذي أودعه في البنك منذ سنوات أن يشتري به نفس السلعة الآن بسبب انخفاض قيمة النقد؟! ألا يشكل هذا ظلمًا للمودع من ناحية أو للمقرض من ناحية أخرى؟! والله سبحانه وتعالى قال في كتابه الكريم: ﴿فَلَكُمْ زُؤْشُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ فهل رأس المال الذي يتم إيداعه اليوم بقدره وعدده وقدرته على الشراء يكون هو هو بعد سنوات عند الاسترداد؟ كل هذه أشياء يجب أن يدرسها العلماء عندكم يا مصطفى قبل أن يفتي أحدهم في شيء مما سألتني

فيه وإلا يكن قد أفتى بغير أن يعلم شيئاً عن الواقع، فالفتوى تدور بين النص والواقع، فإن وقع أحدهما من المفتي سقطت الفتوى.

- وهل كان في زمنكم يا إمام من يفتي بغير علم؟

ضحك ابن حنبل لأول مرة منذ أن جاء إلى هذا الزمن ثم قال: العلم والجهل يلتقيان في كل زمن يا مصطفى، سأروي لك حكاية حدثت لي، فذات يوم أخبرني أحدهم أن هناك رجلاً يعطي دروساً في مسجد الرصافة ويذكر أحاديث غريبة وينسبها لي، فأخذت يحيى بن معين وذهبنا نستمع للرجل، فقال: حدثنا أحمد بن حنبل ويحيى بن معين قالوا: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر عن قتادة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ من قال لا إله إلا الله خلق الله من كل كلمة طيراً، منقاره من ذهب وريشه من مرجان! فجعلت أنظر إلى يحيى، ويحيى ينظر إليّ فقلت ليحيى: أنت حدثته بهذا؟ فقال لي: والله ما سمعت به إلا الساعة!! فسكتنا حتى فرغ، وإذ قمنا له أشار له يحيى بيده أن تعال.. فجاء متوهماً أنه سينال منا مالاً، فقال يحيى: من حدثك بهذا؟ فقال: أحمد وابن معين. فقال يحيى وهو يكتم ضحكة كادت أن تخرج منه: أنا يحيى وهذا أحمد وما سمعنا بهذا قط، فإن كان ولا بد الكذب فعلى غيرنا يا رجل!! فقال الرجل: أنت يحيى بن معين؟ قال: نعم. قال: لم أزل أسمع أن يحيى بن معين أحق وما تأكدت إلا الساعة!! كأن ليس في الدنيا يحيى بن معين وأحمد بن حنبل غيركما.

تضحك الشيوخ وتفاكهوا، وكانت هذه أول مرة تظهر نواجد ابن حنبل

من الضحك، أما مصطفى فقد استلقى على قفاه من كثرة الضحك وهو يقول وسط ضحكاته: ده راجل حزين⁽¹⁾ يا إمام.

كانت هذه هي ضحكة العمر، وضحكة العمر لا تأتي إلا بعد حزن العمر، وما كان ضحك مصطفى إلا لأنه تيقن أن ابنه نور يجلس الآن في هناءة في مكان ما من ملكوت الله يتبادل معهم الضحك.

مرت عدة أسابيع والحال هو الحال، مشايخنا يتجولون في المساجد، ويحضرون الدروس الدينية، ويجلسون على المقاهي ويأكلون في المطاعم ويستمعون للناس، عرف الإمام ابن حنبل كل المستجدات، وخبر أخلاق الناس وطبائعهم وقدر العلم الذي عند علماء الأمة، وتوجهات الشعوب السياسية، ومعاني الليبرالية والعلمانية واليسارية، ثم تطرق إلى نظام المحاكم ودخل إليها وشاهد القضاة والمحامين واستمع لمرافعاتهم وقرأ بعض الأحكام القضائية، نستطيع القول: إن ابن حنبل عاش دنيانا كأنها دنياه، وعلى الناحية الأخرى أخذ العمدة غريب ينكمش على ذاته فزغاً من هذا الزمن الذي لم يرق لقلبه، وتاقت نفسه لزمانه وزوجته سيادة التي تركها وحدها في خيمتها، أيعود إليها ذات يوم أم أن الله كتب عليه أن يُجس في هذا الزمن فيصير حبيس الزمن؟! ما الذي أجرمته يا رب حتى آتي إلى هذا الزمن قسراً رغماً عن إرادتي؟!

(1) كلمات حزين وحزاني ويحزنك هي من لهجة أهل الشرقية ويستخدمونها في معانٍ متعددة معظمها يصب في معنى الحنية، فيقال: «ولد حزين»: أي ولد خائب، وكلمة «يحزنك» هي دعاء بالحنية، وهكذا.

وضع ابن حنبل تصوراً للنكبات التي حلت على رأس هذه الأمة والفتن التي أصابتها، الفتنة الكبرى هي التكفير، والفتن المتفرعة عنها كثيرة وشائكة، والفتنة الكبرى الثانية هي تقديس العلماء ورفعهم إلى مصاف الأنبياء، والفتن المتفرعة عنها كثيرة ومقلقة، والفتنة الثالثة هي انحصار اهتمام العلماء بالأمر الشكلي والفرعيات والسفاسف وتركهم الأصول التي لا تقوم أمة إلا بها. وبعد أن تحدث ابن حنبل مع صاحبيه عن هذه الفتن وغيرها رأى أن يواجه علماء هذا الزمن ويصوب لهم ما وقعوا فيه.

- ولكن كيف ستواجههم يا إمام؟ قالها غريب وهو يحدودب بقلبه على إمامه.

- سأواجههم بما وهبني الله من علم.

- أخشى عليك من قسوتهم.

- وماذا سيفعلون بي؟ هل سيفعلون أكثر مما فعل المعتصم؟! ملة الظلم واحدة يا غريب.

قال مصطفى: يا إمام هناك فرقة من فرقهم تسمى الجهادية السلفية، وهؤلاء إذا عارضتهم فسيستحلون دمك.

رد ابن حنبل: ما أتيت إلى هذا الزمن إلا لأواجه فتنهم كما واجهت فتنة خلق القرآن، وقد يكون موتي هنا ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ وأنا يا أحباب سأستقبل الموت هنا أو في زماني فكلها أزمان الله.

قال غريب: نحن معك ولن نتركك، ولكن، كيف سنبدأ المواجهة؟
- سنذهب لهم في عقر دارهم.



بارك الله في بعض علماء الأمة، يتبعون السنة، ويرفضون البدعة! ولأنهم يسيرون في فهمهم للدين على حرف؛ فإنهم يفهمون حديث «كل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار» فهماً ظاهرياً! لذلك فإنهم رفضوا الاحتفال بالمولد النبوي الذي جاء في الرابع من فبراير، ولكن عندما جاء شهر مارس نشرت الصحف أن عددًا من العلماء سيذهب إلى المملكة المغربية للاحتفال بالذكرى الثالثة عشرة لوفاة الملك الحسن، وكان هؤلاء العلماء - ومعهم بعض علماء الإخوان - قد ذهبوا إلى ليبيا منذ سنوات لإحياء ذكرى ثورة القذافي من سبتمبر حيث تقابلوا مع معمر القذافي.

ليس هناك من يخاف الله مثل هؤلاء العلماء، وهم من فرط خشوعهم وتقواهم يخافون اتباع سنن الغرب والسير خلفها شبرًا بشبر، أهل الغرب يحتفلون بمولد المسيح، فهل نُجن نحن ونحتفل بمولد النبي! ولكن لا مانع من الاحتفال بإحياء السنة النبوية، لذلك فإنهم بعد موعد المولد النبوي بشهر ونصف قرروا عقد مؤتمر إسلامي كبير احتفالاً بإحياء السنّة في مدينة كفر الشيخ بمسجد «السنّة النبوية» الذي أقامه الشيخ أبو إسماعيل الرويني وجعله مقرًا رئيسيًا له ولدروسه وخطبه.

أقيمت الزينات وعُلقت التعاليق والمصاييح، وغسلت الأمطار يومها

مدينة كفر الشيخ فاستبشر أهل المدينة، اليوم تحمل البركة، فكل شيوخ وعلماء الدعوة السلفية سيفدون إلى المدينة احتفالاً بهذا الحدث الديني الضخم الذي لم يحدث بالمدينة منذ عقود طويلة.

جلس الشيخ أبو إسماعيل يرتب اليوم مع تابعه ومدير أعماله الشيخ «إبراهيم حجازي» قال له حجازي: أريد رأيك يا مولانا.

- خير يا برهومة.

- عرفت أول أمس أن أحد علماء السنة الكبار بالعراق جاء إلى مصر للاحتفال معنا بالسنة النبوية، ويقولون إنه من علماء الحديث الكبار في بغداد، ولي رأي أن نستضيف هذا العالم في أمسينا.

- وما الفائدة من استضافته يا برهومة، نعمي «المشرحة ينقصها قتل»؟

- عندي سبب لاستضافته وإعطاء كلمة له يا مولانا؛ إذ بذلك سنفتح معه صلة، وسيكون طريقاً لنا للذهاب إلى بغداد وفتح أسواق لتجارتنا هناك.

- تقصد تجارة الأسمنت؟

- نعم يا مولانا، وهل لنا تجارة غيرها؟ والعراق في هذه الأيام تفتح بطنها لاستيراد الأسمنت وليس أحسن من الأسمنت الذي تستخرجه محاجرنا وتتجه مصانعنا، وهذا الشيخ يقولون عنه إن له سطوة كبيرة بين أهل بغداد.

- وما اسمه؟

- اسمه الشيخ أحمد أبو عبد الله.

- ومن قال لك عنه؟

- منذ يومين كان هنا، أحد أتباعه قابلني وأخذ يتحدثني عنه وعن تأثيره في أهل بغداد وتخصصه في الحديث الشريف.

- خلاص لا مانع، سأخبر باقي العلماء باستضافتنا هذا الشيخ، والله أنا خائف يا برهومة تكون عملتها وأخذت من تابعه هذا عمولة، هذه هي عادتك.

لم يكن برهومة وحده هو الذي تعود على مد يده، فيد الشيخ أبي إسماعيل عرفت طريق المد منذ سنوات بعيدة، فقبل مظاهرات الثورة خطب في أحد المحافل قائلاً: والله الذي لا إله إلا هو إن الكلمات التي قالها الرئيس مبارك عن أننا لن نقف مكتوفي الأيدي أمام حصار الشعب الفلسطيني لهي كلمات رائعة يجب أن تثنى الأمة وتقدر صاحبها، ولذلك فإنني أقول للرئيس أحسن قيادة مصر يا سيادة الرئيس، وأحسنت تمثيلها وأنا أحبيك على ما قلت وما فعلت، وأقسم بالله الذي لا إله إلا هو إنني قلت: لو أن الرئيس رفع هاتفه وتحدث، فسيغير الموقف، وجاء الصباح لنجد أن الموقف قد تغير، وما تغير إلا بفضل هاتف الرئيس.

وعندما بدأت مظاهرات الخامس والعشرين من يناير - قبل أن تتحول إلى ثورة - ظهر الشيخ أبو إسماعيل بناء على اتفاق مع أمن الدولة كي يُجرم هذه

المظاهرات ويقول إنها بدعة وضلالة وإنه لا يجوز الخروج على الحاكم، وبعد أن ظهرت بشائر الثورة بقوة، وأخذت تباشيرها تغمر الآفاق، خرج الشيخ على التلفزيون المصري وقتواته الفضائية وهو يبكي خوفاً على المصريين ويطالب الشباب بالعودة إلى بيوتهم مخافة أن تراق دماؤهم.

وبعد أن نجحت الثورة بفترة وأخذ المجلس العسكري زمام الأمور بالاتفاق مع الإخوان، خطب الشيخ من مسجده قائلاً: والله الذي نفسي بيده، لقد رأيت قبل الثورة أربعة من الرجال يحملون صورة كبيرة للرئيس المخلوع وينقلونها إلى مجلس الوزراء لتعلق هناك خلف رئيس الوزراء، فقلت أما أن لنا أن نترك تأليه البشر، هذا الرئيس الذي ظللنا ثلاثين عاماً تحت طغيانه واستبداده تحول إلى إله فرعوني مستبد، وقتها دعوت الله أن يخلعه كما خلع فرعون، وأقولها لأي حاكم سياتي من بعده: هي صورة واحدة التي ينبغي أن نعلقها في كل مكان، لا يكون فيها إلا لفظ الجلالة الله.. الله... الله.

- ذهبت الذكريات وتوارت، وكما قال الحكيم المصري الأصيل: آفة حارتنا النسيان، نسي الناس ما قاله الشيخ قبل وأثناء وبعد، والناس تنسى لمن تحب ما تكره، وأقبلت ساعة الاحتفال، وكما قال الشاعر: يا بلادي كل شيء فيك ينسى بعد حين.. إلا حين الاحتفال.



بدأت الأمسية بعد صلاة المغرب حيث أمّ الصلاة الشيخ «أبو الرجال» أحد المتخصصين في علوم القراءات، ثم بعد أن انتهى من الصلاة أخبر المصلين أنهم سيؤخرون العشاء إلى بعد انتهاء الأمسية.

جلس كل الشيوخ على منصة أعدت لهذا الغرض، لا يوجد واحد من كبار الدعاة إلا وله مكان، فالיום يستمع المسلمون لحديث العلم والعلماء، وقبل أن يبدأ الحفل سمعوا صخبًا وضجيجًا يأتي من خارج المسجد فأسرع برهومة يستطلع الأمر ثم سرعان ما عاد ليهمس في أذن الشيخ أبي إسماعيل بكلمات، ومن بعدها ظهر رجل غريب القسمات أسمر الوجه له لحية عظيمة ويرتدي جلبابًا أبيض وعمامة أشبه ما تكون بالقلنسوة، ويحيط به رجلان أبيضان كالبدن ليلة تمامه لهما مهابة ووقار، تقدم الرجل الأسمر إلى المنصة وصافح شيوخها فأجلسوه في أحد أماكن الصدارة، وجلس تابعاه في الصف الأول بعد أن أفسح لهما الجالسون مكانًا.

رحب الشيخ أبو إسماعيل الرويني بالضيف البغدادي وقال عنه إنه «الصديق العزيز» وإنه أحد أكبر علماء الحديث في العراق، وبدأ الشيخ إبراهيم حجازي يقدم وقائع الاحتفال وكلمات الخطباء التي بدأها الشيخ أبو إسماعيل، فأخذ يتحدث عن السنة النبوية وفضلها وفضل علم الحديث، وتمادى في مدح الإمام أحمد بن حنبل، ثم عرج على الذين لا يتبعون السنة، والذين يبدلون الدين، والذين يتتهجون مناهج أرضية مثل الاشتراكية والليبرالية والعلمانية، ووصمهم بالكفر مستدلًا بقوله تعالى: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

ثم تحدث من بعده الشيخ محمد حسانين فأسهب في وصف القبر وأحوال

الميت فأبكى الحاضرين، وتوالى الخطباء هذا يتحدث عن ملة الإسلام وملة الكفر، وذاك يقول إن من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون، وآخر يهاجم المسيحيين هجوماً ضارياً، وهكذا إلى أن قدّم الشيخ إبراهيم حجازي الشيخ العراقي أحمد أبو عبد الله، وكان التعب قد أصاب الحاضرين وكاد بعضهم أن ينصرف.

اقترب فم الإمام أحمد من الميكروفون إلا أنه لم يرفع صوته بل قال بما يشبه الهمس بعد الاستعاذة والحمد والصلاة على النبي: أنا من بغداد، أعرف حديث رسول الله ﷺ كما أعرف نفسي، وأعرف سنته النبي كما أعرف ابني، وقد أتيت إليكم بعد أن عرفت أن أمتكم تتعرض لمحنة، وقد ظهرت لي المحنة في أقوال من خطبوا قبلي، إن جلوس هؤلاء للخطابة فيكم والتدريس لكم هو أكبر محنة مرت على الأمة... ثم نظر الإمام لمن يجلسون معه على المنصة وقال لهم: أف لكم ولما تقولون.

ساد السكون لحظة كأن الناس فقدوا القدرة على النطق أو كأنهم تحولوا إلى تماثيل من نحاس: أف لكم ولما تقولون. قالها مرة أخرى فلم يثقل رد فعل، بل ظل الناس على ارتباكهم وحيرتهم، كانت مفاجأة مسكته، فمن ذا الذي يتصور أنهم يستضيفون عالماً يبدأ كلامه بصبّ جام غضبه عليهم، هل هذه طريقة جديدة في الخطابة للفت الأنظار، أنتظر الجالسون على المنصة أن يسترسل الرجل ليوضح مقصده، ولكنه استمر قائلاً: كنت أنتظر أن أجلس مع أهل العلم فإذا العلم لا أهل له، كنت أنتظر أن أناظر من لديه علم فإذا الجالسون معي هم خصوم العلم وكنس... وقبل أن يستكمل الكلمة قاطعه

أبو إسماعيل: ماذا تريد أن تقول أيها الغريب، استضعفناك في بلادنا لتشتمنا، والله يا أهل العراق إنكم أهل نفاق، تدعون العلم وتنشرون الهم والغم، إذا كانت لديك حاجة إلى مقارعة العلماء فنحن لها، تكلم معنا لتأخذ نصيبك وتنصرف إلى بلادك والقلب داعيلك غير مأسوف عليك، قل ما عندك يا حلو.

رد ابن حنبل: لست أعرفكم من أهل العلم فأكلمكم، ولكن أكلمكم لأكشف خبيثكم، وما أنتم إلا كالخوارج، تقولون بالتكفير ولا تعرفون كنهه، تدعون الإسلام ولا تدركون سلامه وتسليمه، وتنشدون الجنة بجنتكم، وتتقون النار بالشحناء... تقسمون ملكوت الله وتألهون عليه، فتقولون لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتنا، والنار للملة الآخرين، والله حذركم ونهاكم فقال لكم عن الأمم السابقة: ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا ۗ يَلَكُ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۙ ﴾

قاطع الشيخ أبو إسماعيل: امسك... عرفت الآن حقيقتك، أنت مرجع من مراجع شيعة العراق، أيها المسلموووووون يجلس الآن بيننا رجل خدعنا وادعى أنه من أهل السنة وهو من مراجع الشيعة، خبيكم الله يا شيعة، يا أصحاب العبادة الشنيعة، اخسثوا نحن أنصار الشريعة.

زاط جمهور المسجد وصخب وأخذ يصيح: الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، الخميني عدو الله... واختلطت الأصوات وهم بعضهم بالقيام للإمسك في

خناق هذا الشيخ الذي تهجم على سادتهم العلماء، ولكن الشيخ أبا إسماعيل قال للجمهور: من يحب الله ورسوله فليجلس في مكانه، نحن سنتكفل به، اجلسوا اجلسوا.... تدخل الشيخ محمد حسنين: أستحلفكم بالله يا إخوة أن تجلسوا في أماكنكم، من كان في قلبه مثقال ذرة من خير، فليجلس في مكانه وأنا الكفيل بالرد على هذا الرجل، ألا تحبون أن تسمعوني وأنا أناظره؟ والله الذي لا إله إلا هو، لو كان في قلب هذا الرجل مقدار خردلة من إيمان لترك المسجد الآن حتى لا يثير فتنة بين المسلمين، ولكنني سأستبقيه حتى ولو أراد الخروج كي أرد عليه.

ورويدًا رويدًا بدأ المسجد يعود إلى هدوئه، وحين التزم الجميع بالصمت قال الشيخ حسنين: قولوا معي: لا إله إلا الله.

ردد الجمهور خلفه: لا إله إلا الله.

واستمر الشيخ: محمد رسول الله.

الجمهور: محمد رسول الله.

الشيخ: رضينا بالله ربنا وبالإسلام ديننا وبسيدنا محمد ﷺ نبيًا ورسولًا.

ارتج المسجد بصوت الجمهور وهو يردد كلمات الشيخ.

قال الشيخ حسنين موجهًا حديثه للإمام أحمد: من أنت أيها الرجل؟ وماذا تريد؟ ولماذا تنقم على علماء الأمة؟ قل ما عندك وسنستمع إليك، ونرد عليك بكلام الله ثم سنبلغك مأمناك.

قال ابن حنبل: لقد عشت فترة في بلادكم، وتعرفت أحوالكم وأفكاركم، ورأيت أنكم تلقون بالتكفير في وجوه عباد الله غير آبهين بمعنى الكفر، وتهدرون أصول الإسلام من أجل إقامة الفرعيات، ولا تعرفون معنى الإسلام، ولا معنى الأديان، وأقول للجُمهور الحاضر إنني سأواجه من تعتبرونهم علماء، فإذا كنتم تثقون بعلمائكم فدعوا الأمر لهم، وإن لم تكن لكم ثقة بهم فشوشروا عليّ أثناء المناظرة أو قوموا الآن وأخرجوني من مسجدكم مخافة أن أهزم من تولونهم الثقة، وحين أرد عليهم فلا تقاطعوني، فإن فعلتم فأنتم تخافون أن يفشل من سيتولى الرد عليّ.

وأثناء كلام الإمام أحمد كتب الشيخ محمد حسانين ورقة مررها على علماء المنصة، وما إن فرغ الإمام من كلمته الأولى حتى قال الشيخ حسانين: وافقني العلماء على أن أتولى الرد على هذا الشيخ الدعي، وسأبدأ بسؤاله: من تمثل أيها الشيخ؟

قال الإمام: أمثل نفسي، كل إنسان في الدنيا يمثل نفسه، وكل إنسان عن قوله مسعول وفقاً لقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمَتْهُ طَائِرُهُ فِي عُنُقِهِ﴾ وكل واحد منا سيحاسب وحده، كل واحد من جماعتكم سيذهب إلى الله وحده ليحاسبه ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾.

الشيخ حسانين: أما نحن فنمثل الإسلام، والإسلام دين الخالق الذي أَرَادَهُ لَنَا.

الإمام: أنتم لا تمثلون الإسلام، ولا يوجد في العالم من يُمثل الإسلام؛

لأن الذي كان يمثله هو الرسول ﷺ، وليس من يمثل الإسلام غيره، أما أنتم فكل قول لكم منسوب إليكم ومحسوب عليكم ومردود إليكم.

الشيخ حسانين: يا جالاهل، أظهرت جهلك بين الناس، وفضحت خواءك، ألا تعرف أن كل واحد منا يقف على ثغرة من ثغور الإسلام؟ ألا تعرف أننا فقهاء الإسلام، ومن نقيم فريضته ونقف عليها ونعلمها الناس، وأنا أيها الجاهل ورثة الأنبياء؟ أفلا تريد من ورثة الحبيب ﷺ ألا يمثلوا الإسلام.... فلتعلم أيها الجاهل أن ابن قيم الجوزية أحد علماء مذهب إمام الأمة أحمد بن حنبل قال في كتابه «إعلام الموقعين عن رب العالمين»: (إن فقهاء الإسلام، ومن دارت الفتيا على أقوالهم بين الأنام، الذين خُصُّوا باستنباط الأحكام، وعُنُوا بضبط قواعد الحلال والحرام، فهم في الأرض بمنزلة النجوم في السماء، بهم يهتدي الحيران في الظلماء....) أيها النالاس، أيها المسلمووووون، يا أحباب رسول الله ﷺ بمن يهتدي الناس بعد الرسل والأنبياء؟

صاح جمهور المسجد: بالعلماء.

الشيخ حسانين مستكملاً: اعلم أيها الجاهل أن ابن القيم قال عنا: حاجة الناس إليهم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب، وطاعتهم أفرض عليهم من طاعة الأمهات والآباء بنص الكتاب، قال الله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهٗ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ من هم أولو الأمر؟ قال عبد الله بن عباس في إحدى الروايتين عنه، وجابر بن عبد الله، والحسن

البصري، وأبو العالية، وعطاء بن أبي رباح، والضحاك ومجاهد بن جبر في إحدى الروايتين عنه: أولو الأمر هم العلماء، وهو إحدى الروايتين عن الإمام أحمد. وقال أبو هريرة وابن عباس في الرواية الأخرى وزيد بن أسلم والسدي ومقاتل: هم الأمراء. وهذه هي الرواية الثانية عن أحمد بن حنبل.

تعال آهات الجمهور إعجابًا بالذي قاله الشيخ حسانين وسلاسته وانطلاقه في الكلام وسرعة بديته.

الإمام أحمد: والله لو أعلم أنكم ستفهمونها هكذا ما رويت هذه الرواية ولا كتبت الثانية، ولكنني نقلت هذا ليس فقهاً ولكن حديثاً، وللفقهاء أن يستنبطوا الصائب والأصوب.

الشيخ حسانين: تقول رويت، من أنت أيها الجاهل، وهل لك دراية أو رواية، هل تظن نفسك عارفاً بالحديث، أو في مرتبة الإمام ناصر الدين الألباني عليه رحمة الله؟! نحن العلماء يا رجال نقف على رأس هذه الأمة، نحن الإسلاميون حقاً، رد على بياني هذا وإلا فانصرف.

الإمام: لا يوجد في ديننا ما يُسمى الإسلام، ولكن يوجد المسلم، الله قال لنا ذلك، قال في كتابه الكريم ﴿هُوَ سَمَّكُمْ الْمُسْلِمِينَ﴾ ولم يقل هو ساءكم الإسلاميين، وقال ﴿وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ولم يقل واشهد بأننا إسلاميون؛ لذلك فإنني لا أعرف هذه الكلمة ولم تصادفني في حياتي، هذه كلمة تطلقونها من أجل المخاتلة، كلمة الإسلاميين هذه يا رجل لم تكن معروفة في عهد الرسول ﷺ ولا في عهد الصحابة ولا التابعين، بل كان

كل من يجتهد فإنما كان ينسب الاجتهاد لنفسه، لا للإسلام، فهذا حنفي، وذاك مالكي، وذلك شافعي، لم يجرؤ أحدهم على أن ينسب الإسلام لنفسه أو يقول أنا صاحب المذهب الإسلامي. ومن الأعاجيب التي رأيتها عندكم في عصركم أنكم تقولون: «المذاهب الإسلامية» وهذه كلمة لا أصل لها، لم يقل بها أصحابها، ثم رأيتكم أيها الرجل تقولون: «الفقه الإسلامي» وهذا من خطل الرأي وزلل الكلام، فالصحيح أنه «فقه المسلمين»، وسمعتكم تقولون كلمة شيطانية هي «الحضارة الإسلامية»، والله ما كانت حضارة الإسلام أبداً، ولا تنسب إلى الإسلام البتة، هي فقط حضارة المسلمين لا الإسلام، فلماذا تنسبون ما هو لكم للإسلام؟! وسمعتكم يا من تدعون العلم وأنتم تقولون: «التاريخ الإسلامي» وما هو بتاريخ الإسلام، هو فقط تاريخ المسلمين، تاريخ الإسلام لم يكن إلا في عهد الرسالة فحسب، وما بعد ذلك كان تاريخ أجيال من المسلمين، أصابوا وأخطوا.

ثم استطرد: لا ينبغي أن يختلط «الإسلام» في الأذهان بـ«المسلم» فثمة مسافة بينهما، ولذلك لا يوجد من يمثل الإسلام إلا نبي الإسلام المعصوم وحده، أما كلام ابن القيم هذا الذي لا أعرفه ولم أسمع عنه فهو يحسب عليه لا على الإسلام لذلك فإن استدلالك به باطل.

وما إن نطق الإمام أحمد بكلمته الأخيرة حتى اندفع إليه واحد من الجمهور من الصفوف الخلفية وهو يحمل عكازاً يتوعد به صائحاً: والله لأقتلنك أيها الشيعي المجرم.



اختلط الحابل بالنابل وارتفعت الأصوات وزاد الهرج والمرج، وكاد العكاز أن يقع على رأس الإمام أحمد لولا أن مصطفى الشراوي أمسك يد الرجل المعتدي قبل أن تهوي بالعكاز على مبتغاها، وفي الوقت ذاته ارتفعت أصوات العلماء تحض الجمهور على الهدوء وضبط النفس حتى لا يفسد المؤتمر الإسلامي الكبير، وكانت لرجوات الشيخ محمد حسنين الأثر الأكبر في عودة الهدوء بعد أن قال: أرجوكم، أرجوكم، أرجوكم، إذا كان بينكم من يكره الرسول ﷺ وآل بيته فليصخب وليتكلم وليحدث ما يشاء من الجلبة، وبعد أن هدأ الناس، عاد الشيخ حسنين للحديث قائلاً: إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، أيها الشيخ الذي جاء لنا من العراق، أرأيت ماذا فعلت؟ لقد أثرت فتنة بين المسلمين، نسأل الله أن يهديك ويكف شرك عنا، وأنا أقول لك أمام هذا الجمع الطيب: ماذا تريد يا شيخ، إلى الآن لم نعرف ما الذي أغضبك على أهل السنة والجماعة.

الإمام أحمد: أنا لم أغضب على أهل السنة يا رجل، ولكنكم أنتم الذين أغضبتم السنة، فما هي هكذا، وما هكذا كانت، ما هكذا ستكون، ولكي ندلف إلى أصل الموضوع قبل أن يعود أتباعكم إلى إثارة اللغظ، قل لي يا من تدعي أنك تمثل الإسلام: من هو الكافر، وما هو الكفر؟

الشيخ حسنين: هذا سؤال يجيب عنه المبتدئون، ومع ذلك اسمع

فسأعلمك، والله يهديننا وإياك، الكفر في اللغة: ستر الشيء وتغطيته، وأما في الاصطلاح الشرعي فهو «عدم الإيمان بالله ورسوله، سواء، كان معه تكذيب أو لم يكن معه تكذيب، بل شك وريب، أو إعراض عن الإيمان حسداً أو كبراً أو اتباعاً لبعض الأهواء الصارفة عن اتباع الرسالة، فالكفر صفة لكل من جحد شيئاً مما افترض الله تعالى الإيمان به، بعد أن بلغه ذلك سواء جحد بقلبه دون لسانه، أو بلسانه دون قلبه، أو بهما معاً، أو عمل عملاً جاء النص بأنه مخرج له بذلك عن اسم الإيمان؛ ولذلك فإن الكافر هو من مات على غير ملة الإسلام، ومن سمع عن الإسلام ولم يتبعه فهو كافر، وكل من سمع عن الإسلام يجب أن يبحث وينظر، فإن لم يفعل وكان قادراً على البحث والنظر فهو كافر مخلد في النار، فكل من كان في أقاصي الجنوب والشمال، والمشرق وجزائر البحور والمغرب، وأغفال الأرض من أهل الشرك فسمع بذكره ﷺ ففرض عليه البحث عن حاله وأعلامه والإيمان به، ومن ينكر ما هو معلوم من الدين بالضرورة فهو كافر بإجماع الأمة.

الإمام أحمد: هذه خريطة وخبطة.. قل لي ما الذي يلزم غير المسلم بالبحث في الإسلام؟

الشيخ محمد حسانين: دين الحق يا رجل هو الذي يلزمهم بهذا، الإسلام يلزم الجميع.

الإمام أحمد: ولكنهم لا يؤمنون بالإسلام أصلاً، فكيف يلتزمون من خلال دين لا يؤمنون به، الإسلام يا شيخ حسانين لا يكلف إلا من اعتنقه،

اعلم يا شيخ أنت ومن معك أن الإسلام تكليف ودعوة، تكليف لمن اهتنته، ودعوة لمن لم يعتنقه؛ لذلك فإن الداعية هو من يدعو غير المسلمين إلى دخول الإسلام.

الشيخ حسانين: ما أنت تضع تعريفات جديدة ما أنزل الله بها من سلطان، الداعية يا رجل هو كل من يدعو الناس جميعاً إلى سبيل الله، مسلمين أو غير مسلمين.

الإمام أحمد: الذي يخاطب في المسلمين هو الواعظ، أنت واعظ يا شيخ مصداقاً لقوله تعالى في سورة البقرة في آية الطلاق: ﴿وَأذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَكْفِي كَيْفَهُمْ عَلَيْهِمْ﴾ وما دمنا تحدثنا عن غير المسلمين فهل لك أن تقول لي: من هم أهل الكتاب وما مصيرهم عند الله؟

الشيخ محمد حسانين: كنت أظنك عالماً فإذا بك تائه، ولكن اسمع وافهم.. إنه من كان يهودياً أو نصرانياً، ولم يدخل الإسلام ولم يؤمن بنبينا محمد ﷺ، ومات على يهوديته أو نصرانيتها فإنه كافر قد حرم الله عليه الجنة وماواه النار، لذلك فإن من دان بغير الإسلام فهو كافر، ودينه مردود عليه وهو في الآخرة من الخاسرين، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾.

الإمام أحمد: خربطة ولخبطة، قل لي. أين هو أبو الـرسول ﷺ؟

الشيخ حسانين: هو في النار كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد
«أن رجلاً قال: يا رسول الله، أين أبي؟ قال: في النار، قال: فلما قفا دعاه،
فقال: إن أبي وأباك في النار».

الإمام أحمد: والله لقد رويت الحديث وتركته للفقهاء فهذه هي
بضاعتهم.

الشيخ حسانين: والله يا رجل يظهر لي من كلامك أن بك جنة، فكلما
تحدثت عن الإمام أحمد أشرت إلى نفسك وكأنك تظن أنك هو.

الإمام أحمد متجاهلاً تعقيبه: أيها الرجل، هل تريد أن أحدثك عن الحق
الذي تجهلون، أيها الناس هل تريدون أن أصحح ما وقر في أفهامكم، إذن
فاسمعوا وعوا، وإذا وعيتم فانتفعوا، فإن قاطعني أحدكم فقد حكم على
علمائكم بالعجز عن الرد.

تميزت الوجوه من الغيظ واشربت الأعناق وانتصبت الأذان، وبرقت
العيون وتعلقت بالشيخ محمد حسانين الذي قطع الصمت قائلاً: تكلم
يا هذا ودعك من اللجلجة والشقشقة والنطاعة.

كانت الكلمات قاسية على فؤاد ابن حنبل، فسوتها تفوق السياط التي
أهبت ظهره في زمن المعتصم، أما الآن فهو في زمن لا يعرفه فيه أحد، وحين
يجهلك الناس يمقتونك، فالناس أعداء ما يجهلونه، والجاهل يُعذر بجهله،
وإن كان البعض قال أن ليس كل جاهل يعذر بجهله! وهذا من أشد
الأمور غرابة على النفس، إذ كيف يستوى الشاهد والغائب، والشاهد يرى

ما لا يرى الغائب ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الذي يعلم هو الذي تلزمه الحجة، والذي لا يعلم لا إلزام عليه، هكذا قال الله في كل كتابه الكريم، كلماته واضحة تعبر عن نفسها، فكيف غفل من فقهوهم عنها، ألم يقل: ﴿وَلَمَّا أَتَبَعْتْ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ هذا هو ما يؤخذ عليه الإنسان، إذا جاءه العلم ثم أهدره واتبع الهوى فهو إذا لمن الظالمين، أما من لم يأته العلم فاتبع الهوى، فهل يكون من الظالمين؟! اعذرهم يا إمام فهم يجهلونك ويجهلون الحال الذي أتى بك إلى هذا الزمن، حاضرک عندهم غيب، وما هو غيب إلا لأنه غُيِّب عن عقولهم وأفئدتهم، فهل يحاسب المرء على ما غاب عنه!

تحدث الإمام أحمد بتؤدة: الحمد لله على ما علمنا إياه، وعلى ما لم يعلمنا، أعطانا فشكرناه، وحجب عنا فحمدناه، وكان في عطائه وحجبه هو المانع، فالعطاء منح، والحجب منح، وكلاهما بحكمته فتح، وصلى الله على سيدنا محمد الذي علمنا حاله ودينه فاتبعناه، ولم يعلم غيرنا حاله ونبوته فبحثوا عنك يا الله بعقولهم التي خلقتها لهم عن غير طريقه، يا أيها الشيخ، ليس كل من لا يؤمن بالله كافرًا، وليس كل من لم يؤمن بالرسول ﷺ كافرًا، وليس كل يهودي أو نصراني يعيش بينكم سيكون مآله النار، وليس كل من أنكر أمرًا اشتهر في الدين وتطلقون عليه «معلوم من الدين بالضرورة» كافرًا، وليس لنا أن نحكم بكفر أحد أيًا كان.

الشيخ حسانين: ما أحسبك إلا مبتدعًا أو فاسقًا ماجنًا أراد أن يعذب بعقول المسلمين.

الإمام أحمد متجاهلاً غلظته: العقل مناط التكليف، ولا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها في استعدادها الأزلي، فهو خالقها وهو الذي يعلم بواطنها وخوافيها، فلا تكليف على من عجز عقله عن الوصول إليه.

الشيخ حسانين: هذا كلام الفلاسفة.

الإمام أحمد: وما نقتت إلا على الفلاسفة، ولكن هذا هو كلام العقول الراشدة، اعلّموا أيها الناس أن خَلَقَ اللهُ ثلاثة، هم أهل الإيمان، وأهل الجهل، وأهل الكفر، أما أهل الإيمان فهم من عرفوا الحق فاتبعوه، وأهل الجهل هم من لم يعرفوا الحق فلم يتبعوه، وأهل الكفر هم من عرفوا الحق فجهلوه وأنكروه، ألم تعرف لنا الكفريا شيخ حسانين فقلت إنه ستر وتغطية، صدقت في تعريفك، فالكافر حاجب وسائر للحق، أما الجاهل فهو مستور عنه ومحجوب عنه الحق، وهذا غير ذلك، لذلك يقول الحق سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ في هذه الآية وفي غيرها يتحدث الله ليس عن أهل الكتاب جملة، وليس عن المشركين جملة، ولكن يتحدث عن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين، أي عن أولئك الذين عرفوا الحق، فكفروه أي حجبهوه وستره، أما غيرهم من أهل الكتاب والمشركين ممن لم يعرفوا الحق، ولم تهدم عقولهم إليه فهم مكفور عنهم وليسوا كافرين، والكفر الأصغر الذي لا يخرج من الملة كلّم يصيبه، تعرف أن حجة من يناظره هي الأصح فتكفرها أي تحجبها عن الناس كبراً أو بطراً أو غروراً، فأنت بجحدك تكون قد دخلت إلى الكفر الأصغر، فكل مسلم عرف أمراً من أمور الحق فحجبه بطراً أو عناداً فهو كافر أصغر، أما إذا حجب عن عقله أمر من أمور الحق فهو مكفور عنه لا كافر أصغر.

«نعمت همهمات جمهور اعتراضاً على كلام الإمام أحمد، إذ لم تألف عقوهم هذا المنطق، ولكن الشيخ حسانين أسكتهم قائلاً: اسكتوا، أطلق الله ألسنتكم في الحق، فنحن نريد أن يستكمل كلامه حتى نقيم عليه الحجة. ثم استطرد. أكمل أيها الغريب.

كان قلب الشيخ برهومة حجازي قد امتلاً حقداً وغلاً وهو يرى الإمام أحمد يطلق حججه في وجوه العلماء ويتدفق بعلمه فأراد أن يفسد عليه. فتحرك من مكانه، وجاء من خلفه وأمسك ظهر المقعد الذي يجلس عليه ودفعه للخلف فوقع ابن حنبل وصوت وقعته يدوي في المكان.



عاد الهرج والمرج إذ جذب برهومة الإمام من ملابسه يريد طرده من المسجد، ومصطفى وغريب بجولان بين الإمام وربانية العلماء، أدار الشيخ حسانين حواراً هامساً خطر على باله مع شيوخ المنصة، فلو طرده الآن لقال الناس إنهم فشلوا في الرد عليه فأهانوه وطرده: «ولكن يجب أن نكشفه ونكشف هافته نه طرده». فتدخل شيوخ المنصة سريعاً وعنفوا الشيخ برهومة حجازي وأعادوا الإمام إلى مكانه وطيّبوا حاطره وهم يتسمون ابتسامة التشفي، ثم عاد الشيخ حسانين يسأل الإمام بعد أن هدأ الجمهور: حدثنا عن والد الرسول، هل ترى أنه في النار أم أنه من أهل الفترة فتجحد بذلك حديث رسول الله الصحيح؟

الإمام أحمد: من قال إن عبد الله بن عبد المطلب والد الرسول في النار فقد

أخطأ وإنما حديث رسول الله عن عمه أبي طالب، فالعم أب، كما كان أذر عم إبراهيم أباً له، وأبو طالب كفر لأنه عرف الحق ولم يتبعه خوفاً من أن تعيره العرب، وهذا كبر، أما والد الرسول فهو من أهل الفترة إذ قال الله سبحانه في سورة الإسراء: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ وقال في سورة المائدة ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرٍ مِّنَ الرَّسُولِ﴾ والرسول ليس هو صاحب الرسالة فقط، ولكن الرسول أيضاً هو الدليل، فكل نبي أرسله الله كان يأتي قومه بآية أو علامة، فيعرفون أنه مرسل من قبل الله، فكانت لإبراهيم آياته، ولموسى آياته، ولعيسى آياته، ولمحمد آياته، هذه الآيات لأقوامهم، فإذا رأوها عرفوا أنها فوق إمكانية البشر، فأمنوا بهم، ولكن كان هناك من أقوامهم من يرى الآيات فيجحدونها ويقولون: ﴿إِنَّمَا سَكِرَاتٌ أَبْصَرْنَا﴾ فهو لاء هم كفار «الشهود والمعانية» ومن هؤلاء من قال فيهم الله سبحانه في سورة النمل: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَحَدُوا بِهَا وَأَسْتَقْبَتَهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ هنا يا أيها الشيخ، ويا عامة المسلمين وخاصتهم، جاءت آية الله مبصرة، واضحة، جلية، ولكنهم قالوا للناس حتى يفتنواهم: «هذا سحر مبين» رغم أن أنفسهم استيقنت الحق.

فإذا وصلت أخبار هذه الآيات لأمم بعد أمة الشهادة، فأمن بها البعض فهو مؤمن، وأيقن بها البعض الآخر وجحدتها فهو كافر، ولم يصدقها البعض ولم تدخل إلى عقله فهو مكفور عنه لا كافر، ويُعذر لأنه لم يكن من أهل الشهادة والمعانية.

الشيخ حسانين: كلامك مردود عليه، ولكنك وأنت تنكر أن أبا الرسول

في النار تحدثت عن أهل الفترة فأخطأت إذ ظهر من كلامك أن أهل الفترة سيدخلون الجنة !

الإمام أحمد: هذا من تمام عدل الله، وهو سبحانه الذي قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ فهو بعدله الذي منع التعذيب قبل إرسال الرسل.

الشيخ حسنين: ألا تعلم أيها الدعي أن الإمام أحمد بن حنبل روى حديثاً عن أن الله سيمتحن يوم القيامة أهل الفترة.

الإمام أحمد: أعرف هذا الحديث كما أعرف نفسي، وأعرف أن الدنيا دار اختبار وابتلاء مصداقاً لقوله تعالى: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿ وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وهي دار العمل ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (٢) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾.

استطرد الإمام أحمد مسترسلاً وقد أرهفت له الأسماع وانتفضت لكلماته القلوب لأول مرة منذ أن بدأ حديثه: أما الآخرة فهي دار حساب وجزاء ومستولية وليست دار امتحان مصداقاً لقوله: ﴿فَوَرَّيْكَ لَنَشْتَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٣) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ ثم أكمل حديثه وكأنه رجل من أهل عصرنا لا علاقة له بابن حنبل إلا علاقة المتابعة والاتباع، وما روى أحمد الحديث إلا لأنه ثبت عنده، فهو عالم حديث فحسب، ولكن كما أن الحديث إمامنا فالقرآن

إمامنا، وجلي، فليعمل الفقهاء والمفسرون علومهم لإزالة التعارض والذي
قاله بعض الفقهاء إن الإنسان سيسأل عن عمله، سواء كان مؤمناً أو جاهلاً
مكفوراً عنه، فالله قال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ وقال:
﴿مَنْ يَصْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ وهذا من تمام عدل الله.

كانت قلوب الجمهور قد رقت من فرط حلاوة كلام الإمام وطلاوته،
وقد ظهر هذا على وجوههم، فأراد الشيخ حسانين أن يسحب منه ما اكتسبه
فقال له: وما حكم النصارى واليهود الذين ماتوا على دينهم ورفضوا
الدخول في الإسلام؟

الإمام أحمد: حكمهم هو ما قاله الله فيهم.

تنفس الشيخ حسانين الصعداء إذ ظن أنه أمسك تناقضاً في كلام غريمه
فسأله: وماذا قال الله فيهم؟

الإمام أحمد: اعلم يا هذا أن الإسلام هو التسليم لله، لذلك قال سبحانه
عن إبراهيم إنه ﴿كَانَ خَاشِعًا مُسْلِماً﴾ وقال الله أيضاً: ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ
بَيْنَهُ وَبَعْقُوبَ يَبْنَؤَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾
وهكذا تجدد كل آيات الله، فالإسلام إذن هو التسليم والخضوع لله، لذلك فإن
الإنسان محاسب على خضوعه لله وحده، وفي الحديث الشريف قال رسول
الله ﷺ: «كل من قال لا إله إلا الله دخل الجنة» وليس في الحديث كل من
قال لا إله إلا الله محمد رسول الله دخل الجنة، فالشهادة التي تدخل الجنة هي
الشهادة بوحدانية الله، وعندما أراد الصحابي أبو عمرو سفيان بن عبد الله

الثقفي أن يعرف ما هو الإسلام قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك. قال: «قل آمنت بالله، ثم استقم»، فالإسلام إذن هو الإيمان بالله ثم الاستقامة.

صاح الشيخ حسانين وقد احمر وجهه: أنت تتهرب من الإجابة أيها الشيخ. سألتك عن النصارى واليهود فتحدثني عن الإسلام والتسليم، أنت تلف وتدور.

رد الإمام أحمد على البديهة: قال الله سبحانه في كتابه الكريم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِينَ وَالصَّابِرِينَ مَن ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ هذا قول الله لا قولي أنا، الذين هادوا والنصارى والصابئين ما داموا آمنوا بالله واليوم الآخر فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون؛ لأنهم في معية الله.

الشيخ حسانين: هذا استدلال في غير موضعه لأن النصارى لا يؤمنون بالله الواحد الأحد، هم يؤمنون بألوهية المسيح ويقولون إن الله ثالث ثلاثة.

الإمام أحمد: يا شيخ حسانين إن وحدانية الله منزهة عن الاجتماع، والافتراق، والامتزاج بالناسوت، والحلول، سبحانه عن هذا وتعالى علواً كبيراً، ولكن هناك من ابتدع وهناك من اتبع، فالذي ابتدع وكان يعلم الحق ومع ذلك قال بالامتزاج بالناسوت والحلول فيه فهو الذي قال، وهو الذي كفر، أما من اتبع ظناً منه أنه الحق دون علم فهو المقول له لا القائل، إنما الذنب على القائل لا المقال له، هل تعرف أن المعتصم بالله اعتبر ابن حنبل

مشركا لأنه قال إن القرآن كلام الله وليس خلقا لله؟ الاختلاف في ذات الله حدث في الإسلام نفسه، ولكن لتعلم أن هذا الاختلاف في عقائد الناس هو اختلاف المحيين لا اختلاف الكارهين، المسلم يحب الله وأخذ يبحث في النصوص التي لديه ليتصور حبيبه، والنصارى الذين يعيشون بينكم أحبوا الله واختلفوا في تصوره، فلندع أمرهم إلى من أحبوه.

استطرد الإمام: هل تعرف يا شيخ حسانين المأثور عن الإمام أحمد؟
الشيخ حسانين: هل تمتحني؟ أحفظه عن ظهر قلب.

الإمام أحمد: مر أحمد أبو عبد الله ومعه جماعة من أصحابه بقبر رجل في طرسوس فقالوا له: هذا كافر. فقال أحمد: الكافر هو أول من بدأ هذا الأمر.
الشيخ حسانين: هذا عن المأمون الذي كان مدفوناً في طرسوس، فقد كفّر الإمام أحمد المأمون.

الإمام: لا لم يحدث، بل امتنع عن تكفير المأمون لشبهة في تكفيره ووجود من يلبس عليه، فهو من المقول له فاتبع ظناً أن هذا القول هو الحق.

الشيخ حسانين: وهل تميز أن نترحم على الأموات من أهل الكتاب؟

الإمام: أجاز لنا أن نتزوج منهم أفلا نترحم عليهم؟ يا شيخ إن رسالة الإسلام هي الرحمة والسلام، فكيف تحجب رسالة الإسلام الرحمة عن خلق الله، وهل يملك أحدنا أن يقسم رحمة الله وهو القائل: ﴿أَهْرَ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾؟

غير الغافر والغفار، ولكل منهم موضعه، إيه يا شيخوخ هذا الزمن الغريب، لو تعلمون من هو الرسول ﷺ ما خرجت منكم كلمة كره أو حرب أو شحناء، ولكنكم جهلتم قلبه الذي أنار الدنيا بالحب والرحمة، وغابت عنكم نورانيته وحببه لكل الخلق، حتى أنه رفض أن يدعو على كفار قريش، ورفض أن يحسف الله بهم الأرض ويطبق عليهم الأخشيين، أراكم تنقلون للناس ما في قلوبكم أنتم، لا ما كان في قلب الرسول عليه الصلاة والسلام، تنقلون لهم بغضكم لا حبه، كراهيتكم لا سماحته، أمراض قلوبكم لا نور قلبه. الذي أنتم عليه ليس هو الإسلام الذي جاء به الرسول، ولكنه الإسلام الذي شوهته نفوسكم وعاداتكم وغيرتكم وغرورتكم وكبركم وحقدكم.

وهنا تدخل الشيخ أبو إسماعيل الرويني لأول مرة مستأذناً الشيخ حسنين: هل تسمح لي يا شيخنا وعالمنا أن أسأل هذا الرجل سؤالاً؟ أصله يا شيخ حسنين رجل مداور، تأتي له من اليمين فيستدير لك من اليسار، وقانا الله شر أهل اليسار.

الشيخ حسنين: تفضل أخي الكريم الشيخ أبا إسماعيل فالساحة مفتوحة للجميع، وكلنا نذب عن دين الله وعن حوض رسول الله ﷺ.
الشيخ أبو إسماعيل: شوف يا حضرة، أنا أحب الذي يأتي لي دوغري، وسأسألك سؤالاً لا أحب أن تراوغني فيه؛ هل تميز إلقاء السلام على النصارى.

الإمام أحمد: وكيف تكون رسالة السلام تحرم السلام وتقصره على

المسلمين؟! السلام لكل الناس ما عدا المحاربين، لأن مجال الحرب لا سلام فيه، ولتنظر إلى آيات القرآن الكريم، وخذ منها السلام الذي يريح خاطر ويطيب القلب واسمع لقوله تعالى: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِحِجَّةٍ فَحَيَّوْا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾ وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ ولفظ بيوت وأهلها هنا جاء على العموم لا الخصوص.

نظر الإمام أحمد للجمهور وقال: يا عباد الله انشغلتم بالآخرة ولم تعملوا لها، وسيّدكم الله على الأرض فلم تسودوها، واستعمركم فيها ولم تعمروها، وأنزل لكم سورة الحديد، فلم تتقنوا صنع الحديد، عرفتم أن النظافة من الإيمان فلم تقيموا تلك الشعبة في حياتكم، نهاكم الله عن الكذب فكذبتم، ونهاكم عن النفاق فنافقتم ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ فقلتم ولم تفعلوا، وأمرتم الناس بالبر ونسيتم أنفسكم، وجعلتم كل فقهم حرام خلق الله من رحمة الله، فجعلتم الجنة لكم وحدكم وفعلتم ما نهاكم الله عنه عندما أعلمكم بخبر الأمم التي سبقتم بقوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾. أصابتكم الأمراض فتذيلتم الأمم، ونشرتم الفرقة والخلاف في كل مكان وتحزبتهم، أخذتم من اجتهادات السابقين ولم تجتهدوا لأنفسكم، أوقفتم آلة الاجتهاد، كل قولكم أخذتموه من ابن حنبل وغيره، وهم اجتهدوا لزمهم ومكانهم، أنا لا أستطيع الآن أن أجتهد لكم في أحوال مستجداتكم لأنني لا أعرف واقعها، فكيف تأخذون برأيي في أمر لم أره ولم أعرفه، وأنا الذي كنت أكره أن يكتب أحد

رأيي؟! فتنة عصركم أيها الناس هي توسيع دائرة التكفير، واضمحلال التفكير، والتمسك بالفروع، وإهدار الأصوات، أنتم أمة «اقرأ» ولا تقرءون، وأمة «اعملوا» ولا تعملون، وأمة «يسروا» ولا تيسرون، وأمة عمّروا ولا تعمرون، وأمة اجتهدوا ولا تجتهدون، وأمة ارحموا ولا ترحمون، وأمة لا تكذبوا وتكذبون، وأمة أتقنوا ولا تتقنون.

انتفض الشيخ أبو إسماعيل: من أنت حتى تظن أننا نأخذ باجتهدك أيها الفسل النكرة؟ أجنث لتعطي لنا درسًا في الأدب يا عديم الأدب، لقد أخطأنا عندما أفسحنا لك وتركنك تهرف بسجعك وهرطقتك، وما كلامك إلا سفسطة ومرء، والله لا يحب المرء، فرسولنا الكريم هو القائل «أنا زعيم بيت في ربض الجنة لمن ترك المرء ولو محققًا» اخرج من بيتنا الآن، لا نريد أن نراك هنا مرة أخرى.

انتفض مصطفى الشقاوي من قعدته وصاح في الشيخ أبي إسماعيل: أتطرد الإمام أحمد بن حنبل يا جاهل، هذا هو عالم الأمة ومن ذاد عنها في فتنة خلق القرآن، شرف لكم أن جاء لكم يضع ملامح فهم قويم للإسلام الذي جعلتموه حرامًا كله، وتكفيرًا كله.

ضحك بعض الجمهور وضحك من يجلسون على المنصة، وقال الشيخ حسانين: ابن حنبل مرة واحدة! الآن فهمت لماذا كلما حدثته عن الإمام أحمد قال: رويت كذا أو لم أقل كذا... ثم نظر للإمام ساخرًا: لماذا يا إمام لم تحضر معك البخاري والنسائي وعبد الرزاق والترمذي ومسلمًا؟

انطلقت ضحكات الجمهور، وأخذ البعض يقول: خذنا على جناحك يا إمام أحمد.... وآخرون يقولون: هل معك تحقيق شخصية يا إمام الأمة؟ تحقيق شخصيتك هو المسند، هل سمعت عنه من قبل؟

وفي وسط خضم الشوشرة والضحكات التي أثارها الجمهور خرج الثلاثة مسرعين، وعلى باب المسجد وجدوا سيارة شرطة رابضة، تقدم منهم ضابط وبعض العسكر فاقتادوهم إلى السيارة وهم يدفعونهم بقوة، والضابط يقول: أهلاً بكم، لن تخرجوا من السجن أبداً.



في مركز كفر الشيخ كانت التهمة جاهزة والمحضر معداً سلفاً، من الذي حرك الأمر سريعاً؟ ولماذا جاءت الشرطة؟

في ليالي احتفالات السلفيين الدينية تقف قوات الشرطة دائماً لحماية محافلهم بجنودها وضباطها وأسلحتها وسياراتها، الككل في خدمة علماء الدعوة السلفية، من أول مدير الأمن إلى أصغر جندي في المديرية، وإذا فشل الشيخ برهومة في طرد الإمام وصاحبيه بعد أن أوقعه من فوق كرسيه، انتظر على باب المسجد وهو يكاد يفقد رشده من الغيظ، وإذا نطق مصطفى بقوله: هذا ابن حنبل، خرج برهومة حجازي وذهب إلى أحد الضباط الكبار قائلاً: يا سيادة العميد، الرجل الذي يناظر العلماء بالداخل جاء من العراق وهو رجل مخبول أو عميل، فهو يدعي أنه المهدي المنتظر، ومعه رجلان يؤيدان قوله، أليس من الخطر أن يُترك دون حسيب أو رقيب فيعيث في الأرض الفساد؟

جلس المأمور خلف مكتبه وأخذ ينفث دحاح سيجارته الثلاثة بفقور أمامه، لا حول لهم ولا قوة.

هل أنت المهدي المنتظر؟ قالها العميد مأمور المركز وهو يتفرس في وجه ابن حنبل.

الإمام أحمد: من قال ذلك؟! هذا غير صحيح، وهو فول واضح البطلان.

المأمور: وما اسمك؟

- اسمي أحمد.

المأمور: أكمل اسمك.

- أحمد أبو عبد الله بن محمد بن حنبل.

المأمور: أتقصد أنك الإمام ابن حنبل؟!

- نعم أنا هو؟

المأمور: ومن هم يا ترى أولئك الذين معك، أهم أئمة أيضًا؟!

لم يرد ابن حنبل فوجه المأمور كلامه لغريب ومصطفى إلا أنها امتنعت عن الرد، وحين طلب منهم جميعًا التوقيع على المحضر لاذوا جميعًا بالصمت الذي يوحى بالرفض، فوقر في قلب المأمور أنهم مخابيل، وأمر أحد الضباط أن يتم عرضهم على النيابة في الصباح قائلًا: في مثل هذه الحالات تصدر النيابة دائمًا قرارًا بعرضهم على الطب الشرعي أو مستشفى الأمراض العقلية للبحث عن مدى سلامة قواهم العقلية، وأحسبهم مجانين.

لم تغفل عين أحد منهم داخل الحجز، وكيف تغفل وهم الذين تعودوا على قيام الليل، لم يجد الإمام أحمد ماءً فتيماً، وطلب من رفيقيه التيمم مثله، وصلى الإمام الليل كله، أما غريب فصلى ما استطاع وأخذ يفكر في هذه الدنيا الغربية «غريب أنا في بلاد غريبة، ومن عجب أن هذه البلاد الغربية هي بلادي ولكن الزمن ليس زمني، غربتي عن الزمن هي التي شقت قلبي وأرقته، أهكذا كنتم يا أهل الكهف؟ ألهذا لم تتحملوا الاستمرار في الحياة؟ نكيدٌ هو من عاش في زمن غير زمنه». أخرج غريب من جيبه خرقة كان يتحسسها بين الحين والآخر، نظر إليها وإلى العبارة المكتوبة فيها «من أبي عبد الله أحمد بن محمد الشيباني لعبد الله غريب بن يوسف السعدي الثقفي باركك الله ورفع قدرك في الدنيا والآخرة».

«ستكون ذكرى لا أنساها، والحمد لله أن جعل الإمام يطرز لي هذه الكلمات وهذا الدعاء، لن أتركها ما حييت، وسأ تبرك بها كما تبرك الإمام الشافعي بثوب ابن حنبل».

أخرج من سرواله صورة كان قد التقطها مع ابن حنبل ومصطفى في أحد استديوهات القاهرة، كان مصطفى قد تحدث مع الإمام في أن الإنسان من الممكن أن يوقف الزمن، إذا صوره أحد فوتوغرافيًا «فذهبنا إلى الاستديو والتقط المصور هذه الصورة لنا، ظلت الصورة ثابتة على ما كنا عليه، تحركنا نحن ولم تتحرك الصورة، هل بهذا يكون الزمن قد توقف؟».

«الزمن لا يتوقف أبدًا، ولكن الذي حدث هو أن المصور ضبط ظلنا وعكسه على هذه الورقة» هكذا قلت لمصطفى أمام الإمام فابتسم كلاهما:

«إلا أن فرحتنا بالصورة كانت لا توصف، أراني أتوق شوقاً لزمني، هل أعود إليه أم أظل معلقاً في هذا الزمن؟ أم تُرى أن الثرى سيحتويني فيفني جسدي وتخرج روحي من نطاق أزمنة الحياة الدنيا إلى أزمنة وأمكنة لا يعلمها إلا الله؟».

ارتكن مصطفى إلى الحائط ودارت الدنيا برأسه: «لقد مررت على أمور غريبة وعجيبة حقاً، إلا أن فؤادي استراح، فما مررت عليه عرفت أن الموتى يعيشون بيننا، قد لا نراهم ولا نحس بهم ولا نشم طيبهم، ولكن عندما تقترب أرواحنا منهم نحس بهم ونشمهم، كانت لنور رائحة طيبة تميزه، ولكل إنسان رائحة ينفرد بها كبصمة الأصابع، يختلط فيها عرقه بجسده بطبقة جلده، بهواء دنياه التي يسير فيها، بالماء الذي ينضح به وجهه وجسده، بقبس من نور روحه، نعم تلك الرائحة لا يمكن أن تصل إلينا بعد أن يرحل صاحبها عن دنيانا إلا إذا اقترب منا كيانه الروحي وخالطنا، كأن العرق قد اختلط بقبس من نور الروح ولم لا يختلط في واقعنا والروح قبلها كانت تسري في ذلك الهيكل الطيني المسمى بالجسد؟». وفي الأيام الأخيرة كان أنف مصطفى يطير خلف رائحة نور، نور في المكان كله ينشر عقبه «أنا الآن أقرب إليه من أي وقت مضى، هو في حضني ولن يفارقني».

وفي الصباح وبعد أن نقلتهم سيارة الشرطة إلى مبنى محكمة كفر الشيخ، جلسوا على السلام بالقرب من مكتب وكيل النيابة انتظاراً للتحقيق، وجلس معهم عريف شرطة بحرسهم ويمسك بيده أوراق المحضر والأورنيك الخاص بهم، وإذا رأى عن بعد سكرتير التحقيق هرع إليه، وأثناء ذلك إذا بمجموعة من الشباب تحيط بالسكرتير والعريف وتقيم فيما بينها مشاجرة مفتعلة حتى

ينشغل العريف بفض الشجار، وفي ذات الوقت اندفعت مجموعة أخرى من الشباب الملتحي صوب المتهمين الثلاثة تجذبههم وتسحبهم خارج المحكمة وهم في قمة الانقياد لهم، وكيف لا تنقاد الأجساد وهي متعبة مثخنة بالآلام؟



كان الخاطفون هم مجموعة من أنصار الشيخ أبي إسماعيل، فمع الوقت وبعد الثورة تكونت له مجموعات ومجموعات أخذ يسخرها في مواقف كثيرة، وبعد أن كان يتلقى الأوامر من أمن الدولة فينفذ ما يريدون دون مناقشة، أصبح قريباً من الند، فعندما يكون هناك الأتباع تكون القوة والأنفة، ومع تزايد الأتباع تزداد القوة، والقوة دائماً تتغلب على الضعف، رغم أن الضعف في بعض الأحيان يتغلب على القوة، ولكل وسيلته في فرض الذات.

حملتهم سيارة نصف نقل ألقوا في صندوقها وجلس معهم فيه أحد الخاطفين، إلى أين يذهبون بهم؟ الله أعلم! ولكن الذي حدث هو أن الإمام أحمد أخذ يردد: يارب سلم سلم. وقلده غريب ومصطفى فأخذا يقولان مثل قوله وقد سنموا جميعاً أمرهم الله، كان الرجل الذي يجرسهم في الصندوق ذا لحية عظيمة، يمسك في يده سلاحاً يشبه السيف، وكان هذا السلاح كافيًا كي يلزم الجميع الصمت، أخذت السيارة تسابق الريح وتأخذ طريقها إلى غرب مدينة كفر الشيخ ناحية دسوق، اهتز مصطفى من رجرجة السيارة فأسنده مرفقه الأيمن إلى جانب الصندوق واعتدل بجسده وأخذ ينظر إلى أقصى مدى للنظر، يريد أن يحفظ الطريق، لمح شبحاً غائماً، علق نظره به، جسد هذا الشبح يشبه استقامة جسد نور وفي نفس عوده، اقتربت السيارة

من الشبح، ارتفع صوته: «يا الله كأنه نور!» زاد ارتفاع صوته: «ابتعد يا نوور عن السيارة، أنا حذرتك كثيرًا، ابتعد، السيارة ستدهسك». أمسك العمدة غريب بيده وأمسك الإمام أحمد باليد الأخرى، اقتربت السيارة أكثر وأكثر وهي تطوي الأرض طيًّا: «أنا أشم ريحك يا نور، أنت هو، أنت هو ولا أحد غيره». اصطدم إكصدام السيارة الأمامي بالشاب الصغير فاهتزت السيارة من قوة الصدمة ولكنها لم تتوقف، طار الجسد بعيدًا ومصطفى يصرخ بعزم ما أعطاه الله من قوة، تحول في هذا اللحظة إلى مارد، في داخلنا قوة لا نستطيع أن نستبصرها ولكنها تخرج في أوقات استثنائية، الإنسان هو أقوى مخلوق على وجه الأرض، هذه حقيقة مؤكدة، ولكنه يعيش باثنتين من مائة من قوته، ويخترن الباقي، لا يستطيع أن يعيش بها كل حياته، وإلا لأهلك الحرث والنسل.

قللت السيارة من سرعتها حتى يستطيع السائق خبر من يصرخ في الصندوق، فإذا بمصطفى يضرب حارسه بقوة على صدغه ثم يقفز من السيارة حين تهادت، اعتدل الحارس المضروب وأحكم السيطرة على الرجلين اللذين بقيا في السيارة وأمر السائق أن يستمر في السير بأقصى سرعته، كان هناك رجلان آخران يجلسان في الكابينة مع السائق فأخذوا يلهبانه بالكلمات حتى يذهب بهم جميعًا إلى مكمنهم.

حين قفز مصطفى من السيارة تدرج ولكنه سرعان ما قام واقفًا، اقترب من الجثة الملقاة على جانب الطريق، وجد بعض سيارات تتوقف، نزل منها أصحابها وأخذوا يعاينون ذلك الجسد الملقى الذي يفترش بركة من الدماء، نظر مصطفى للجنشان وهو في ذهول، ظل نظره معه حينما رفعه بعض الرجال ووضعوه في

سيارة أحدهم ليسر عوا به إلى المستشفى، انصرفت السيارات ومصطفى لم ينصرف، جلس على قارعة الطريق، أفاق لنفسه: «أين أنا؟ ما الذي جاء بي إلى هنا؟ هذه ليست السعيدية وهذا ليس طريق بلبيس، هذا طريق غريب لا أعرفه» وحين تحسس جيوبه وجد قدرًا من المال في محفظته، كان في حيرة شديدة، آخر ما يتذكره أن منادياً جاء له في المنام وقال له اذهب إلى نور. فقام ذاهبًا فإذا به هنا وقف مصطفى بعد أن جمع شتات أفكاره، وبعد حين استطاع إيقاف سيارة، عرف من صاحبها أين هو فأخذه العجب الشديد، ما الذي أتى به إلى كفر الشيخ وأنا الذي لم أذهب إليها من قبل؟! أخذ يضرب كفاً بكف، ثم توجه إلى موقف سيارات الأجرة وأخذ يبحث عن سيارة تنقله إلى بلده.



في قبو مظلم تزكم عفونته الأنوف هوى أول سوط على الإمام أحمد، كانوا قد علقوه على عارض خشبي، وأحد الرجال يصيح فيه: أنت جئت لتسخر من علمائنا؟ أنت كافر، كافر، وعقاب الكافر القتل، ستقتل أنت وصاحبك، ولكننا سنفرغ منك أولاً فأنت الرأس، والرأس يجب قطعه.

كان غريب مقيدًا وملقى على الأرض ينتظر دوره والسياط تهبط على ظهر ابن حنبل، يا للآلم الذي يتعرض له الإمام، ويا للآلم الذي يكابده غريب! ألم غريب كان أشد قسوة على نفسه من وقع السياط على ظهر الإمام، فهو مقيد عاجز عن نصره حبيبه ابن حنبل والذود عنه، يود أن يفتديه بحياته، ولكن قدر ابن حنبل أن يفتدي الأمة كلها ويتلقى عنها آلامها، في كل عصر مضروب أنت يا بن حنبل، وكل ابن حنبل في كل عصر مضروب.

أخذت الدموع تنهمر من عيني العمدة غريب، ومع كل ضربة تقع على ظهر الإمام كان جسده ينتفض وكأنه هو الذي تلقى الضربة، ومع انتفاضة جسده كان قلبه يقفز من مكانه يريد أن يغادر هذا الجسد الضعيف المغلوب على أمره، يود لو بذل الحياة إلى المنية وافتداه.

وحين بغتة شعر بحلقه وقد جف وكأنه أصبح عود حطب، تقطعت أنفاسه، وغامت الدنيا تحت جسده، ما بالها تدور به «الماء نفذ من كياني كله، حتى إنني لا أستطيع الاستنجاد بأحد، ويمن أستنجد وأنا وسط الذئاب، يا الله ما هذا الألم الشديد الذي أشعر به في عيني اليمنى؟ النور يغادرها، بل هو الآن يغادر العينين، الظلام في كل مكان، وأذني امتنعت عن السمع، صفير يطن في أذني، هل هذا هو الموت؟ أنا الآن أقاسي لهات الموت، جسدي سيفنى في زمن غير زمني، ولكن روعي في طريقها للتحرر».

أخذت الضربات تتوالى بعنف على ظهر الإمام الممتحن، هذا هو قدرك يا إمام، أن تثبت على قول الحق فيجلدوك، ومع ذلك فإن صوتك سيصل للعالم كله وإن كان خافتاً، وأنفاسك الحرى وإن هي أخذت، ستظل تغمر جهلهم فتبدده.

وبينما هو في هذا الحال نظر يمينه فلم ير العمدة (غريب)! أين أخذوه؟ هل قتلوه؟ أغمض عينيه حتى يجبس الدموع التي تهبأت للانزلاق، لا يريد أن يراه أحدهم وهو يبكي فيظن أنه يبكي على الدنيا أو من ألم السياط، هؤلاء لا يفهمون المشاعر ولا يعرفون القلوب، وحين فتح عينيه مرة أخرى إذا بعبد الله الرصافي يظهر له، «هل رأوك؟» قالها ابن حنبل والفرحة والدهشة تغمرانه.
أعماهم الله بقوة «فأغشيناهم فهم لا يبصرون».

الحياة الخامسة

زمنكان

عودٌ على بدء

ولما كان يوم الخميس الموافق الثالث والعشرين من شهر رمضان من سنة
مائتين وتسع عشرة للهجرة، والذي يوافق اليوم الأول من شهر أكتوبر عام
834 ميلادية؛

نظر ابن حنبل حوله وهو يتحسس جسده، المكان مظلم، ولكنه ظلام
يتيح الرؤية، شعر بألم شديد في ساعده حاول أن يرفع يده فلم يستطع:
«يبدو أنني أصبت في كتفي من أثر الضرب، أو من أثر التعليق على الخشبة،
رسغي⁽¹⁾ يؤلمني، ولكن من الذي أمر بضربي؟! المعتصم؟ لا ليس المعتصم
ولكنه أبو إسماعيل الرويني، نعم أبو إسماعيل الرويني وليس أحد غيره،
آه ثم آه، ولكنهم كانوا يجلدونني بسبب ذلك الامتحان الذي تعرضت له
الامة، يا لهم من أغبياء، كيف يقولون إن القرآن مخلوق، القرآن كلام الله، رب
العزة يقول: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ والقرآن من أمر الله، القرآن كلام الله،

(1) الرسغ: مفصل ما بين الساعد والكف.

هو يقول ذلك ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَةَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْرِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ ألم يكلم الله موسى عليه السلام؟ فهل كلام الله لموسى مخلوق! والذي نفسي بيده هذا من أعجب الأشياء، ثم إن الله لم يقل أبدًا في كتابه الكريم إن القرآن مخلوق، ولو كان كذلك لقال، ولكنه قال ﴿الرَّحْمَنُ﴾ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ ولم يقل: خلق القرآن، ولكن ما هذا الذي حدث لي من رجال أبي إسماعيل الرويني آه، إن جسدي يؤلمني بشدة، عقلي مضطرب، هل كنت أحلم؟! أين أنت يا غريب يا بن يوسف؟ تعال اقرب مني، كاد هؤلاء الأوباش أن يقتلوني لأنني وقفت لهم في فتنة تكفير المسلمين، هل أصابت لوثة عقول هؤلاء الناس؟ أصيبت الأمة بالخوارج ولن تشفى من هذا الداء العضال أبدًا، كادوا يقتلونني يا غريب لولا أن تغمدني الله برحمته فجاء لي عبد الله الرصافي وخلصني من بين أيديهم، ولكنني لا أتذكر الذي فعله الرصافي معي وقتها، هل تتذكر أنت؟».

نظر ابن حنبل حوله فلم يجد غريب، ووجد نفسه في مكان مظلم يتسلل إليه ضوء خافت، هل أنا في السجن؟! نعم سجن الخليفة، لا، يبدو أنني في سجن أبي إسماعيل «همّ التكفيريون يقتلي! ولكن كيف يقتلونني وأنا في قصر المعتصم؟! الأمور مختلطة في ذهني، أنا في مصر أم في بغداد؟! يا الله هل كنت أحلم؟!».

وَيَبْتَأُ^(١) هو في ارتباك وذهنه في تشتت، وجد بعض الجند يدخلون عليه.

(١) بينا: ظرف زمان مبني على السكون ومعناه بينا.

- أين أنا؟ المكان مظلم جدًا، ما هذه الظلمات التي وضعوني فيها؟
رد قائد الجند عليه: أنت في القبو، ولقد خرجت إلى الحياة بأعجوبة.

- أي قبو؟

- القبو الصغير الذي في قصر الخليفة.

- المعتصم؟

- وهل لك خليفة غيره؟!

- كم غبت عنكم؟

- غبت عن الوعي قليلًا، ولكن هأنذا أنتذا أنتذا تسترده، قم وتحرك معنا،
فالقوم في انتظارك في غرفة التطيب الشرقية... ثم نظر إلى أحد الجنود وقال
له: كتب الله له عمرًا جديدًا، فلقد ضربته بسوطي ضربًا لو كان على فيل
لوقع.

رد ابن حنبل بصوت واهن: لا أستطيع الحركة، قدماي لا تقويان على

حلي.

فأشار قائد الجند لبعض جنوده فخرجوا من القبو وعادوا سريعًا وهم
يحملون محفة حملوا ابن حنبل عليها، وابن حنبل يتنفص في داخله من الألم
ولكنه كتّم ما به وأخذ يعض على نواجذه، وحين حاولوا الخروج به وهو
محمول على المحفة لم يستطيعوا إذ كان باب القبو ضيقًا، فحمله أحدهم من
على المحفة ليخرج به من الباب، فاشتد الألم على ابن حنبل حتى لم يقو على

تحمله فندت منه صرخة أخافت الجند، فأسرع الذي يحمله وخرج به من الباب الضيق، ثم سرعان ما وضعه على المحفة مرة ثانية وصرخات ابن حنبل تتكرر، ولو عاد بك الزمن إلى تلك اللحظة وأنصت إلى صراخ ابن حنبل لوجدت كل صرخة كانت تخرج منه تقول: «الله، الله» فقد كان يستعين بالله على أمله.

دخلوا به إلى غرفة التطيب فرأى أناساً يعرف بعضهم ولا يعرف البعض الآخر، اقترب منه رجل غريب الهيئة لا يرتدي عمامة، أمسك الرجل يده حاملاً إياها فتأوه ابن حنبل بصوت مرتفع ثم قال: من أنت وأين أنا؟
- أنا الطبيب يوحنا بن ماسويه، وأنت في قصر الخليفة، هل أنت بخير؟
قل لي بماذا تشعر؟

وكانه لم يسمعه، استمر ابن حنبل قائلاً: أنت يوحنا بن ماسويه الطبيب المسيحي السرياني؟
- نعم، أنا هو.

تأوه ابن حنبل وقال بصوت خافت: لقد أكرموني إذن، فبعد الضرب أطلقوا أقيادي، وأحضروا لي طبيب الخليفة الذي لا يأتمن أحداً غيره.

- خذ هذا السويق الملتوت⁽¹⁾ اشربه وتقيأ.

- ألا تعلم يا طبيب أنني طائم؟ لن أشرب سويقك.

(1) السويق الملتوت: طعام يصنع من دقيق القمح أو الشعير، فإذا وضع عليه ماء وسكر، صار سويقاً ملتوتاً.

- وكيف تحملت هذا الضرب وأنت صائم؟ أنا لم أر مثل هذا من قبل!

- غفر الله للخليفة، أشهد الله أنني سأمته.

أخذ الطبيب يوحنا يداوي ابن حنبل ويطبب جراحه ويسكب من قنيتته أدوية سائلة على هذه الجراح، ثم أعد لبخة الأرقطيون⁽¹⁾ ووضعها في بعض مواضع من ظهره، وحين أظهر ابن حنبل تألماً من مفاصل رسغيه، وضع له الطبيب على مفصليه لبخة من نبات الخطاف⁽²⁾ فأخذ ابن حنبل نفساً عميقاً وأغمض عينيه.

مُجِّل ابن حنبل إلى دار صاحب الشرطة إسحاق بن إبراهيم المصعبي، يتطبب عنده، ويستريح من عناء الضرب، كانت الدنيا تدور به، فقد تعرض لما لم يتعرض له في حياته، كانت هذه هي المرة الأولى التي يُجلد فيها هذا الرجل العنيد الصابر، ورغم أن الضرب يحمل في طياته معنى الإهانة، فإنه اعتبر جهاده من أجل القرآن هو الشرف نفسه بحيث تتقاصر دونه أي إهانة، ولكن الدنيا ما زالت تدور به، فضَعف جسده ووهنه انضم إلى الصيام والضرب فلم تقو قدماه على حمله، كان جالساً على فراش فأسند ظهره إلى الحائط ومد ساقية إلى الأمام، ولكن سرعان ما أحس بألم الجروح التي في الظهر إذ ارتكن للحائط، فنبأ⁽³⁾ بظهره عنه، ولكن الأفكار لم تنأ عنه وظلت

(1) الأرقطيون: نبات تستخدم سيقانه وجذوره وثماره في عمل لبخة تشفي الجراح وتخفف الآلام.

(2) نبات الخطاف: يسمى أيضاً مخلب الشيطان إذ إن شكله الخارجى غليبي، وقد عُرف هذا النبات منذ أزمنة سحيقة في تخفيف آلام المفاصل.

(3) نا، ابتعد وفارق

تراوحه، وصورة أبي إسماعيل الرويني لا تفارقه، ومشهد هؤلاء الناس وهم يصيحون عليه ويحيطون به أفزعه، فأخذ يهز رأسه يمينًا ويسارًا هزات وكأنه يعلن رفضه للغباء الذي في الدنيا: «جُلدت في قصر الخليفة، وجُلدت في مسجد التكفيريين، خليفة يقول بخلق القرآن وبشر يقولون بتكفير المسلمين».

و حين أقيمت صلاة الظهر قام ابن حنبل واقفًا ليصلي متغلبًا بإرادته على ما أصابه، وتقدم قاضي بغداد محمد بن سعاة للإمامة⁽¹⁾ وحين دخل ابن حنبل في الصلاة كان كمن دخل في خلوته، فلم يشعر بشيء وانعزل عن الدنيا كلها، هو الآن في معية الله: «يا الله، يا من أحببتنا فخلقتنا، وأحبتنا فأحسنت خلقتنا، وأحبتنا فرزقتنا، يا الله يا رب العالمين أنا الفقير إليك في غناي، فكيف لا أكون فقيرًا إليك في فقري، وأنا الجهول إليك في علمي، فكيف لا أكون جهولًا إليك في جهلي، يا الله يا خالقي، بيدك الخلق والأمر، ولك الرحمة والجلود، والعفو والغفران، سمع العابدون بجزييل ثوابك فخشعوا، وسمع المولؤون عنك بجودك فرجعوا، وسمع المجرمون بسعة غفرانك فطمعوا، أتسلط النار على وجوه خرت لعظمتك ساجدة؟ وعلى جوارح سعت إلى عبادتك طائعة؟ وعلى ناس لم يختلفوا على محبتك ولكن اختلفوا فيها؟ إليك القصد، فاغفر لنا ولكل من أحبك وأخطأ الطريق إليك، فلئن أخطأنا في الذهاب إليك، فحسبنا أننا لم نَفِر منك، التمسنا نورك فوصل

(1) محمد بن سعاة هو العلامة المحدث أبو عبد الله، محمد بن سعاة بن عبيد الله بن هلال التميمي الكوفي كان قاضيًا لبغداد من عهد الرشيد إلى عهد المعتصم.

إليه من وصل، وضلَّ عنه من ضل، والكل - من وصل ومن ضل - أحبك
وسعى إليك، فأكرم يا الله من وصل، واغفر لمن ضل، وارحم من فرزل». .
انتهت الصلاة، وانفتل⁽¹⁾ ابن سعاة منها، وركن ابن حنبل إلى نفسه
يسبح لله، وعلى حين بغتة صاح القاضي ابن سعاة: يا الله! ما هذا الذي
فعلته يا أحمد؟! .



ولما كان يوم الخميس الثامن من ذي الحجة من عام 1366 هجرية،
الذي يوافق الثالث والعشرين من أكتوبر سنة 1947 ميلادية،

لم يصدق الحاج غريب يوسف نفسه: أين أنا؟ ما هذا المكان الضيق الذي
يغلب عليه الظلام؟ وما هذه الرائحة الكريهة؟ أخاف أن يكون إخوان
«أبو إسماعيل الرويني» يبحثون عني.

أخذ الحاج غريب يتفرس في المكان الضيق، بجواره حفرة صغيرة
وصنبور مياه، بعض الضوء يتسلل للمكان، نحن في رابعة النهار، أنا على
ما يبدو والله أعلم رأيت هذا المكان من قبل! آه، أنا في «الكنيف»⁽²⁾ الذي في
مِنى، أنا بجوار خيمتي، كيف حضرت إلى هنا؟ كاد هؤلاء الهمج أن يقتلونا،
وكاد ابن حنبل يروح في شربة ماء، ولكنه فص ملح وذاب، الحمد لله، لكن
كيف عدت لِمَنى؟! .

(1) انفتل: انصرف.

(2) الكنيف: المرحاض.

خرج غريب يوسف من الكنيف مسرعًا، وجد نفسه مرتديًا ثياب الإحرام، فنظر إلى الحزام القماش الذي يحيط بردائه، فوجد خرقة قماش تتدل منه، نزعها فوجدها تلك القطعة البيضاء التي أعطاه إياها ابن حنبل ونقش عليها اسميهما، أسرع غريب إلى خيمته فوجد زوجته «سيادة» جالسة ممسكة بسبحتها، بَشَّتْ له عندما رآته وقالت: عرفت الصوت الذي سمعته؟ كان صوت من؟

ابتسم العمدة غريب يوسف وجلس على الفرش المفروشة على الأرض، وقال لسيادة: آه... واحد من بلدنا.

- من السعيدية؟

- لأ، الدنيا كلها بلدنا يا سيادة.

- والله ما انا فاهمة حاجة منك يا عمدة.

- ولا أنا! إلا قولي لي، كم غبت عنك؟

- يادوب أقل من دقيقتين؟

أمسك العمدة بمصحفه وحاول أن يقرأ فيه ولكن ذهنه كان مشتتًا، ما الذي حدث وأين كنت؟ هل كان ما شاهدته حقيقيًا، وهل قابلت فعلا ابن حنبل؟ وهل مصطفى الشرقاوي حفيدي؟ أم أن الشمس أثرت في عقلي؟ ولكن كيف تؤثر الشمس في وأنا لم أغب إلا دقيقتين؟ معنى هذا أنني لم أكن في التيه! لا، أنا كنت في التيه ولم أكن أعرف طريقي، اتجهت في حياتي إلى الطريقة، ولكن الطريقة كانت صعبة، تمنحي فيها شخصيتي أمام الشيخ، لا أستطيع

أن أخالفه، قال لي الشيخ الفضالي في البداية «أنت بين يدي شيخك كالميت بين يدي من يغسله، يقلبه كيف يشاء» ولكنني لم أستطع، كان عقلي يغلب عليّ فأفكر وأناقش وأبحث، ورغم أنني ولجت في الطريقة ثم عرجت فيها، فقد ظللت كما أنا، شعر بي الشيخ الفضالي فأفصح لي: ليست الطريقة هي طريقك، فانطلق وراء روحك، دعها تقودك، كنت أقاوم رغبتني في التحرر، ولكنني لم أستطع، كنت أحب كل من في الطريقة ولكنني وجدت القيود تكبلني، وهكذا رأيت في المنام، جمهرة يقيدونني بالأغلال وأنا لا أستطيع الحراك، يالها من رؤية أصابتنني بالرعب! وإذا أنصتُ لنصيحة الشيخ الفضالي تركت الطريقة، فرأيت في اليوم التالي رؤية أغرب من الأولى، كنت أسير في طريق ثم إذا بي أرتفع عن الأرض ثم رأيتني أطيّر بلا أجنحة، كنت أسير في الهواء بسرعة وأجوب الأرض جوبًا، وحين قصصت رؤيائي على الشيخ قال لي وهو يغمض عينيه ويطأطأ رأسه: «من الناس من يتبع، ومن الناس من يُتبع، والذي يتبع يجب أن يكون مُقيدًا، أما الذي يُتبع فيجب أن يكون حرًا، وكلُّ مُهيأ لما خلق له، وأنت طريقتك ليست عندي ولكنها في قلبك، لذلك أراك الله نفسك وأنت تنطلق، فانطلق في ملكوت الله، واجعل جسدك تبعًا لروحك». ومع ذلك ظللت تائها مترددًا، مالت نفسي إلى الطريقة، ومالت روحي إلى الانطلاق، ذهبت نفسي للدنيا وشئون العمودية والأموال والأطيان، فقسا قلبي وضافت الدنيا بي على رحابتها، فجئت للحج باحثًا عن الحرية، كادت شمس الدنيا أن تضربني ولكن الحقيقة جذبتني، عدت من التيه وقد سلم قلبي وخشعت روحي، والآن بعد أن أراي الله ما رأيت سأسجد لك يا الله وحدك، سأطيعك وحدك، أنا لست عبدًا إلا لك».

قالت له سيادة: مالك يا عمدة، قفلت المصحف وسرحان؟ انت باين عليك عيَّان.

لم يرد العمدة وبدا أنه لم يسمعها، فقد كان مستغرقاً في خواتره، فأعادت عليه السؤال مرة أخرى فانتبه وقال لها: لا، أنا بخير يا حاجة والحمد لله. وحينها دخل عليها الحاج محمد فزَّاح - زوج ابنته ناجية - بعد أن تنحَّح وقال: يا ساتر، دستوركم⁽¹⁾ يا جماعة.

قال العمدة غريب يوسف بصوت مرتفع: ادخل يا محمد اتفضل. دخل محمد فراج وبادر غريب يوسف: هناك مجموعة من بلييس ومنييا القمح سستيم الآن صلاة الظهر والعصر جمع تقديم وقصر، قم نصلي معهم يا حضرة العمدة. - وهل أذنَّ الظهر.

ردت سيادة متعجبة: يوه، إنت جرى لك ايه يا عمدة! إنت تووَك مصلي الضحى... ثم أشارت لزوج ابنتها: خذ الساعة وشوف فاضل كم على الضهر يا شيخ محمد.

- مش محتاجة يا حاجة، فاضل ربيع ساعة، بس انا غرضي العمدة يتعد معاهم شوية ويتعرف عليهم.

(1) دستوركم: الدستور هو القواعد التي تضبط العلاقات في المجتمعات، وهي كلمة تقال في الريف المصري والأحياء الشعبية لطلب الإذن والسياح بالدخول لمكان فيه نساء.

قام العمدة غريب واقفاً، واتجه مع محمد فراج، وفي خيمة كبيرة بجوارهما وجد جمعاً من الرجال هبوا للترحيب به، عرف بعضهم وتعرف على البعض الآخر، وأخذوا يتحدثون عن أحوالهم في الحج والصعوبات التي قابلت بعضهم، وعرجوا بالحديث عن الشرقية وأحوالها وطلب بعضهم من العمدة أن يرشح نفسه كي يكون رئيس لجنة العمدة والمشايخ بالمديرية، ثم مرت عليهم أكواب الشاي، المرة تلو الأخرى إلى أن أقام أحدهم للصلاة، فوقف الجميع ولم يتقدم أحدهم للإمامة، فقال العمدة: حد يتقدم للإمامة يا جماعة.

قال واحد من الواقفين: حالاً يا حضرة العمدة، سيحضر شيخ مبارك قلبه أبيض زي البفتة البيضاء وحافظ للقرآن، وسيكون هو الإمام إن شاء الله.

وما إن انتهى الرجل من كلامه حتى دخل رجل أبيض الوجه مشرب بحمرة، وأشار بيده للجميع إشارة السلام ثم تقدم للإمامة.

ظل العمدة واقفاً في مكانه لم يتقدم للانضمام للصف، أشار له أحدهم: تقدم يا حضرة العمدة، تعال في الصف هنا.

ولكن العمدة لم يتقدم وكأنه لم يسمع، فاقرب منه زوج ابنته هامساً: مالك يا عمدة؟

- الإمام!!

- ما له؟

- أعرفه.

- من هو؟

أشاح العمدة بوجهه عن زوج ابنته وصاح في الإمام: انتظر يا شيخ، لا تدخل في الصلاة.



وَمَا كَانَ بَعْدَ صَلَاةِ الظُّهْرِ مِنْ يَوْمِ الْخَمِيسِ الْمَوَاقِفَ الثَّلَاثِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ مِنْ سَنَةِ مِائَتَيْنِ وَتِسْعِ عَشْرَةَ لِلْهِجْرَةِ، وَالتِّي تَوَافَقَ الْيَوْمَ الْأَوَّلُ مِنْ شَهْرِ أَكْتُوبَرِ عَامِ 834 مِيلَادِيَّةً،

صاح القاضي ابن سماعة في ابن حنبل: ما هذا الذي فعلته يا أحمد؟

التفت ابن حنبل حوله ثم نظر لابن سماعة وقسمات وجهه تنطق بالدهشة

ثم قال: ما الذي حدث يا بن سماعة، هل فعلت شيئاً أغضبك؟

- صليتَ والدمُ يسيل في ثوبك، أليس هذا يبطل صلاتك؟!!

- قد صلى عمر - رضي الله عنه - وجرحه يسيل دماً، أليس ذلك

كذلك!'

- ستظل تغلبني يا أحمد، في علمك ومواقفك، ولكني أرى أن الخليفة

خلع عليك خلعاً كثيرة، مبطنة وقميصاً وطيلساناً⁽¹⁾ خفاً وقلنسوة⁽²⁾ وها هو

الدم يسيل على القميص فيفسده.

(1) الطيلسان: قطعة كساء خضراء غير مخيطة، يرتديها خواص العلماء والمشايخ.

(2) قلنسوة: غطاء للرأس.

- الحمد لله أنه أفسده ولم يفسد الصلاة، ولكن اطمأن يا بن سبيعة، فقليل من الماء ينظفه، أتخشى على القميص من الدم ولا تخشى على الأمة من سفك الدم؟

- اسكت يا أحمد أنسيت أننا في بيت صاحب الشرطة الذي يسفك الدم؟

ضحك إسحاق صاحب الشرطة قائلاً: وما فعلته عن أمري، إنما أنا عبد الخليفة.

رد ابن حنبل بحسم: أنت لست عبدًا لأحد، أنت عبدُ الله، هو وحده الذي سيحاسبك، اللهم اغفر له وللمعتصم، فإنها يجهلان.

عاد ابن إسحاق للحديث قائلاً: آمين يا رب العالمين، كادت الفتنة تثور من أجلك يا بن حنبل، واقترب الناس من باب القصر يرغبون في اقتحامه، لولا أن الله ألهم الخليفة فخرج إليهم ومعه عمك إسحاق ثم قال للناس وهو يشير لعمك: أتعرفون من هذا؟ فقال الناس: نعم إنه عم أحمد بن حنبل، وبعد أن هدأ الضجيج قال للناس: فانظروا إلى عم أحمد بن حنبل وسأله أمامكم: أليس ابن أخيك صحيح البدن؟ فأوما عمك إسحاق برأسه أي نعم، فقال الخليفة للناس: الحمد لله، لقد سلمته لكم صحيح البدن، فهدأ الناس وانصرفوا كالذين ينصرفون من صلاة الجمعة زرافات.

انهمرت الدموع من عين ابن حنبل المقهور لأنه ثبت على رأيه وجاهد من أجل ما اعتقده، وحين رأى من في الغرفة ينظرون إلى دموعه غالبها وقال:

وهل كادت الفتنة أن تثور من أجلي أنا؟ أنا المقتول من أجل أن تحيا الحقيقة!
أنا المقهور ظلماً إذ نطقت بغير ما قال الخليفة، قد أثار الفتنة العمياء من قال
بأن الله قد خلق كلامه، وهذا القولُ إفكٌ فيه شرٌّ للخليفة، هذا القول لا يبغي
الحقيقة.

رد القاضي ابن سماعة: كان بإمكانك أن تظل على رأيك وتستخدم
التقية.

- ألم يصل لك يا بن سماعة حديث الرسول ﷺ: «كان الرجل فيمن كان
قبلكم يؤخذ فتجعل المناشير على رأسه فيفرق بفرقتين ما يصرفه ذلك عن
دينه».

- أعرف هذا الحديث يا أحمد، ولكنك كنت على وشك أن تموت.

- لا يخشى الموت إلا الموتى.

تدخل صاحب الشرطة: والله يا أحمد لقد شعر الخليفة بخطئه ناحيتك،
رأيتة وهو يبدي الندم ويقول لابن أبي داود: ليس ابن حنبل هذا كما وصفتم،
لقد سمعته وعرفت قدره. فقال ابن أبي داود له: احبسه يا مولانا الخليفة فإنه
فتنة. إلا أن الخليفة نهره وأمرني أن أطلق سراحك، فأحضرتك إلى داري،
وقبل أن أنصرف بك سمعت الخليفة يأمر أحدهم قائلاً: لا تنقطع عنه
واثني بأخباره كل يوم، حتى يبرأ مما ألحقناه به.

حُمل ابن حنبل بعد ذلك إلى داره، وما إن وصل حتى خلع قلنسوته
وملابسه التي أهداه إياها المعتصم، ثم أعطاها لابنه عبد الله وأمره أن يبيعهها

ويتصدق بثمانها، وظل أحمد في داره عدة أشهر لا يبرحها، وانقطع عن الناس حتى إنه لم يعد يرى جاره عبد الله الرصافي.

ولمَّا ولي الواثق بعد المعتصم، لم يتعرض للإمام أحمد بن حنبل في شيء إلا أنه بعث عليه يقول: لا تخرج من بيتك. فصار الإمام أحمد يختفي في منزله، فاخفى عدة أشهر إلى أن مات الواثق، وبعد ذلك تولى الخلافة المتوكل بعد الواثق، فخالف ما كان عليه المأمون والمعتصم والواثق من الاعتقاد، وطعن عليهم فيما كانوا يقولونه من خلق القرآن، ونهى عن الجدل والمناظرة في هذا الشأن، وعاقب عليه، وأطلق من كان اعتُقل بسبب القول بخلق القرآن، ورفع المحنة عن الناس.

كان الإمام أحمد يفكر في الفتنة التي عاينها في زمن المعتصم - فتنة خلق القرآن - والفتن التي رآها في مصر في الزمن الآخر الذي ارتحل إليه، وظل الإمام يتذكر ما مر به من أحداث، وما تعرض له من أهوال، وكلما شخصت أمامه صورة الحاج غريب يوسف بكى، وانهمرت منه العبرات، فإذا داعبه خيال مصطفى الشقاوي ابتسم، وتمنى أن لو كان احتضنه قبل أن يفارقه، ما أوجعك أيها الفراق! أنت والموت صنوان: «ولكن أرجو أن يجمعني الله بهما في مستقر رحته في جنة الخلد التي ليس فيها فراق، ولا ألم، ولا تعب، ولا نصب، أحيينكما وعشت معك يا غريب كأنك أخي، ورأيتك يا مصطفى ابني، فت فزادي موت ابنتك، لكنك إن شاء الله مصير إلى ما صار إليه، ثم سنجمع به، ولعلك اجتمعت في جنات حبيك رب العزة بأمر كن فيكون، ﴿لَنْ نُرْآكَ وَلَا تَتَجَوَّزُ﴾».

ضعف جسد ابن حنبل كثيرًا، ولم يستطع السير إلا إذا اتكأ على أحد، ولكنه كان يهب للصلاة واقفًا ويقول: أنا في صلاتي لا أشعر بذاتي، فليست قدمي هي التي تحملني، ولكن قدرة القادر تُبدلني، فتصيرني شابًا لا يني⁽¹⁾. وفي أحد الأيام أخذ ابن حنبل يبكي، فجزع ابنه عبد الله من بكائه وهرول إليه: ما بك يا أبي؟

- أضناني الشوق يا حبيبي.

- لمن؟

- لله خالقي.

ثم عاد ابن حنبل للبكاء، وهو يقول: ثقل علي أن يغيب عني الرصافي.

- يقولون في الحي يا أبي إن الرصافي مات غريقًا في أحد أسفاره.

وما إن انتهى عبد الله بن حنبل من آخر كلمة حتى وجد أباه قد خر

مغشيًا عليه.



كررها مرة ثانية: لا تدخل في الصلاة. ثم اندفع العمدة للأمام واقترب من إمام الصلاة محتضنًا إياه وهو يقول: غير معقول، غير معقول، الحمد لله أنك أتيت لي، كنت أظن أننا لن نلتقي ثانية.

(1) لا يني: لا يضعف.

أبدى الإمام ارتباكًا وقبّل كتف العمدة محيياً إياه بوقار، ثم استدار للصلاة ودخل فيها.

وإذا انفتلوا من الصلاة قام العمدة وجلس بجوار الإمام ثم انتحى به جانباً من الخيمة وبادره قائلاً: وقع في قلبي أنك لا تعرفني.

رد الإمام مندهشاً: ومن ذا الذي يجهلك يا حضرة العمدة.

- ألسنت عبد الله الرصافي؟

- نعم أنا هو.

- ولماذا تتجاهلني؟ طريقتك تدل على عدم الاهتمام بي!

افتّر ثغر الرصافي عن ابتسامه وقال: كنت معك حينما كان التيه في داخلك، والآن عرفت الطريق وتخلصت من المتاهة، أصبحت حرّاً عارفاً، لم تعد تحتاج إلى مرشد.

- من أنت يا رصافي؟

- أنا عبد الله.

- كلنا عبيد الله.

- لا لسنا كلنا عبيد الله يا رصافي، عبيد الله هم من تخلصوا من عبودية البشر واستشعروا الحرية في عبوديتهم لله، ألم يقل الربيعي بن عامر لكسرى وهو يدعو للإسلام: «لقد ابتعثنا الله لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها»؟

- صدقت.

- ولكن بعضنا يرتد بنا إلى عبودية العباد، ولم يجد هؤلاء أفضل من عبوديتنا لله لتغييرها إلى عبودية العباد، إذ لن يستنكف المعرر بهم أن يصبحوا عبيدًا لأصنام صنعوها مادامت ستقودهم - في ظنهم - لعبودية الله.

- صدقت.

- ما فتى الشيطان يغير طرقه ويستخدم حيله ليبعدنا عن عبادة الله، وإذ أيس⁽¹⁾ من أن نعبد أصنام الحجارة، يَسِّر لنا طريق عبادة أصنام من خم ودم، فقال الجاهلون الدين لعب الشيطان بأحلامهم: إنما أصنامنا البشرية هذه تقربنا إلى الله زلفى وترشدنا إلى طريق عبادة الله.

- صدقت.

- مالك يا أخي؟ أقول وتصدقني، أقول وتصدقني! أليس لك توجيه؟
- قالها لك أبو الفضل منذ زمن، أنت مرشد روحك، اتبع قلبك يدلك، استغن عن العباد وعذ برب العباد.

- ولكن قل لي يا رصافي، أين ابن حنبل؟

- في محنته يزود عن أمته.

- ومحنتنا؟!

- يزود عنها أبناء زمنها.

(1) أيس: يسس وانقطع رجاؤه

قام الرصافي من مجلسه وألقى السلام على الجميع وخرج مسرعًا إلى دنيا الله.
انتهت أيام الحج وركب العمدة وأهله الباخرة، وفي ميناء السويس كان
لنذ كله في انتظاره عن بكرة أبيه، وفي السعيدية تناوبت الوفود عليه للتهنئة،
فأقام لهم المآدب، وأعطى الهدايا، وأمر رجاله بتوسعة مسجد سيدي سعيد
فاشعلت القرية الهادئة الوادعة بهذا الحدث، وفور أن انتهت التوسعة عهد
العمدة لابنه المهندس الرصافي أن يخطط لإنشاء حديقة كبيرة بجوار بيته
تكون مريحة ومعداه، فأصحت الحديقة مضرًا للأمثال.

وإذ جاء له الشيخ الفضائي رائدًا فكر العمدة في أن يحكي له ما مر به،
ولكنه أحجم، وأمر رجاله ونساء البيت بإعداد مائدة طعام كبيرة للشيخ
الفضائي ومن معه، على أن تكون في الحديقة.

كَل القوم ولما فرغوا من الطعام قال أحد رجال الشيخ الفضائي هامسًا
لآخر يجاوره: قل أن تأتي إني هنا قال لنا الشيخ إننا سنزور رجلًا زاهدًا
وعابدًا، ولكنه كما رأينا يُعزق المال يمينًا ويسارًا وينفق عن سعة، ويسكن
في بيت كالقصر له حديقة غناء، وكأنه لا يعيش إلا من أجل الدنيا هل هذا
هو الزهد؟! فماذا نقول في أنا، حيث لا أسكن إلا في كوخ، ولا أكل إلا وجبة
واحدة، وأظل على قيام الليل فلا أنام أبدًا، إن هذا شيء عجيب!

وبعد أن انصرف القوم، حطوا رحالهم في مسجد بقرية الجوسق المجاورة
للسعيدية من أجل صلاة العشاء، وبعد الصلاة قال الشيخ الفضائي لهم:
أعطى الله عبده غريب بن يوسف الدنيا، ولكنه وضعها في يده، وأعطى
لبعضنا كوخًا ووجه طعام ولكنه وضعها في قلبه.

وبعد شهر من هذه الواقعة قام حريق محدود في السعيدية، استطاع الأهالي محاصرته وواد أثره، وبعد خطبة الجمعة صعد العمدة إلى المنبر وقال: أيها الناس لن تعاودنا الحرائق إذا أخذنا من الدنيا وسائلها، فاسعوا إلى الوسيلة يرفع الله بكم النوازل (1).

وبعد أن فرغ من كلامه ذهب إلى بيته ودخل حجرته وأخرج من خزينته قطعة قماش بيضاء، ثم حمل دورقاً به ماء زمزم، وقال لنفسه: «سأذهب بها إلى جوانب القرية، ولن تعرف الحرائق طريقها إلينا أبداً».



مرت على ابن حنبل منذ أن جلدته المعتصم بالله اثنان وعشرون عاماً وأصبحنا في سنة مائتين وإحدى وأربعين من الهجرة.

ما فتى ابن حنبل يتذكر أيام الرصافي وأعوامه، وذلك الزمن المتناهي في الصغر غير المتناهي في الامتداد، الذي مكث فيه شهوراً مع غريب يوسف ومصطفى الشرقاوي، وحين عاد وجد أنه ذهب وبقي وظل مقدار طرفة عين وانتباهتها: «ليست الدنيا شيئاً واحداً وزمناً واحداً وفعلاً واحداً ومكاناً واحداً، ولكن أزمنة وأمكنة، ولكننا لانرى إلا الذي أمامنا، ولا نشعر إلا بالذي ندب عليه وتلمسه أجسادنا، سبحانه يا رب يا من قلت لنا في كتابك الكريم: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ ثم أقسمت في سورة أخرى ﴿لَتَرْكَبُنَّ

(1) النوازل: المصائب الشديدة.

طَبَّقًا عَنْ طَبَّقٍ ﴿١﴾ وقد وهبت لي وأنا في محنتي منحة، فسببت الأسباب لأركب
طَبَّقًا عَنْ طَبَّقٍ».

اندفعت الدموع من عيني ابن حنبل كالنافورة، فاحدودب عليه ابنه
الكبير صالح، وقال له وهو يتدفق من الحنان: مالك يا أبي، أصبحت الدموع
تجري منك مجرى الدماء، لا تغادرك أبدًا؟!!

- بها أروّح عن نفسي يا بني، وبها أعبر عن شوقي ولوعتي.

- هوّن على نفسك يا أبي، فقد أنهكت المرض، وبالباب الطيب السرياني
يوحنا بن ماسويه يريد أن يطيبك.

- دعه يدخل يا بني.

دخل الطيب وألقى السلام فرد عليه ابن حنبل بأحسن منها: وعليك
السلام ورحمة الله وبركاته.

تعجب الطيب وقال: يقولون إنك تحرم إلقاء السلام على غير
المسلمين.

- ليس الفقه دينًا، ولكنه رأي، وقد أقول رأيًا ثم أعدل عنه، وكان قولي
للناس عامة ولتلاميذي خاصة: «لا تكتبوا رأيي لعلّي أعدل عنه».

أخذ الطيب يفحص ابن حنبل فحصًا دقيقًا ثم قال له: ما طعامك يا

إمام؟

- ماء الباقلاء⁽¹⁾.

زم الطيب شفتيه امتعاضاً ثم نظر لصالح وقال له: لم أر مثل هذا إلا في راهب في دمشق! يجب أن يأكل الإمام كما يأكل باقي الناس، ولنبدأ بزيت السمسم، ثم دهن الخلل، وعليه أن يأكل ربيع سنوي⁽²⁾ كل يوم، وعليكم بالتمر صباحاً ومساءً، أما الآن فليقم أحدكم بشواء قرعة⁽³⁾ له ثم تسقونه ماءها.

قال ابن حنبل بصوت واهن لابنيه صالح وعبد الله: إذا كان لا بد من ماء القرعة فليست أرضى أن تُشوى في داري.

رد صالح وعبد الله في صوت واحد: فلتكن في داري.

- ولا أريدها تُشوى في دار أيكما.

رد صالح سريعاً: اطمئن يا أبي، سأشويها في دار أحد الجيران.

تعجب الطيب من الحديث وقال لصالح: هل يحرم الإمام القرعة؟

- لا، ولكنه حرم على نفسه أن تطهى في بيته... ثم أخذه صالح خارج

الغرفة وسأله، ما به؟

فقال الطيب بأسى: هو يشكو من ضعف وانحلال في الجسم نشأ عن قلة التغذية، وإذ هزل جسده أصابته الحمى وصعوبة التنفس، أبوك يا صالح أصابته الحموم والأحزان واتسمت حياته بالزهد والحرمان، وقد أتلف هذا كله أعضاء جسمه الداخلية وقوضها وجعل الرجاء في برئه ضعيفاً.

(1) الباقلاء: الفول.

(2) السنوي: طحين القمح والشعير الناعم.

(3) القرعة: نبات القرع.

- وهل ستعاوده ثانية أيها الطبيب؟

- كنت أتمنى ذلك، ولكنني سأسافر في الصباح إلى سامراء⁽¹⁾ وقد أظل بها بقية عمري.

انتشر خبر مرض ابن حنبل فأخذ أهل بغداد يتسابقون على زيارته، وهو راقد لا تقوى قدماه على حمله، إلا أن أهله أوقفوا الزيارات حتى لا تجهده، وذات صباح وابن حنبل مستغرق في خواتمه لا يكلم أحدًا، دخل عليه ابنه صالح فوجده ساهما.

- فيم تفكر يا أبي؟

- أفكر في رفاق لي أو شكت أن أقابلهم، أنا في طريقي إليهم.

- كيف يا أبت وأنت لا تبرح مكانك؟

- الأجساد مقيدة والأرواح منطلقة.

- إذن فاعلم أن هناك جارة لنا بالخارج يقف على بابنا يريد أن يراك.

- وهل أذنت له؟

- لا، فإني منتظر الإذن منك.

- من هو؟

وقبل أن يجيب صالح دخل الجار عليه وألقى السلام بخفوت صوت،

(1) سامراء: مدينة عراقية تقع على الضفة الشرقية لنهر دجلة وتبعد عن بغداد تسعين ميلاً.

حدِّقْ فيه ابن حنبل وسأله: من أنت؟ نظري ضعف فلا أستطيع تبين ملامحك، اقترب مني إذ يخيل إلي أنني أعرفك.

اقترب الجار من فراش ابن حنبل فأخذت قسماات وجهه تتضح للإمام، كان ربعة أبيض الوجه مشربًا بحمرة، مخضوب شعر الرأس واللحية، انفرجت أسارير الإمام وكاد أن يقوم من مكانه إلا أن جسده لم يطاوعه، فبكى فرحة وابتهاجا وقال والعبرات تخنق كلامه: غبت عني وأنا حبيبك... ثم نظر لأهله وقال لهم: هذا رجل من أحباب رسول الله ﷺ.

فأخذ الجار يدعو لابن حنبل والإمام يرد قائلا: «آمين».

وبعد أن فرغ الجار من الدعاء قال لابن حنبل: عليك كفارة يمين.

فابتسم الإمام وقال لابنه صالح: نعم عليَّ كفارة يمين.

جاء في المقفى للمقرئزي⁽¹⁾.

(قال صالح: جاء رجل من جيراننا قد خضب، فقال أبي: إني لأرى

الرجل يجيبي شيئا من الشئنة فأفرح به. فجعل الرجل يدعو وأبي يؤمن، ثم

قال أبي: قبض من السكان دراهم واشتر تمرًا وكفر عني كفارة يمين).

ثم قال المقرئزي: (وزاد الدينوري في كتاب المجالسة: إن الإمام أحمد

قال: فإني أحتث في دهري في يمين واحدة).

(1) أحمد بن علي المقرئزي هو واحد من المؤرخين الكبار وله تصانيف كثيرة في التاريخ منها كتابه «المقفى».

وطلب الجار من صالح أن يسمح للناس بزيارة الإمام للدعاء له، فسأل صالح أباه فوافق، فجعل الناس يدخلون عليه أفواجا حتى تمتلئ الدار وكثر الناس وامتلاء الشارع حتى إن الشرطة أغلقت باب الزقاق لمنع تدفق البشر. وذات صباح مات ابن حنبل كما تموت كل الخلائق «كلنا لها»:

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوما على آلة حدباء محمول

وشيع الآلاف جنازته حتى إنهم لم يستطيعوا دفنه إلا قبل المغرب من الزحام، وبعد أن تم الدفن انسل من بين الجموع واحد من الناس شق طريقه وسار في أحد المسارب البعيدة إلى مكان لا يعرفه أحد، وإلى زمن لا يستشرفه أحد.

أحدث إصدارات

الأستاذ

ثروت الخرباوي

- سر المعبد .. الأسرار الخفية لجماعة الإخوان المسلمين
- قلب الإخوان .
- زمكان .



رواية

زمكان

...يجتازنا الزمن ولا نجتازد. يمر بنا ولا نمر عليه. ونحن نمر
بنا لا نستطيع ان نخرج منه او نوقفه الا ان يشاء الله ان الله على
كل شيء قدير... هكذا تقول احداث رواية زمكان، التي تعيدنا
لازمنة مضت وتعيد البنا الماضي بشخصه لتتفاعل مع الحاضر
فتدرك عبر احداثها المازجة بين التاريخ والخيال والواقع المعيش.
اننا مجرد نقاط زمنية تضيء كلما حان وقتها. ومن تلك الرواية
يصحبنا الكاتب ثروت الخرباوي في رحلة عبر الزمن يعود فيها
لازمنة القران التي واجهها الامام ابن حنبل ببياته على مبدئه.
ويعيد لنا ليحيا ازمة الاسلام في ايامنا تلك بين المتأخرين بالدين.
لتكتشف ضعف الحاضر وهوانه...

الناشر



6 221133 346866

للطلب والاستفسار اتصل على

16766

www.nahdetmisr.com
our page/nahdet misr group



YouTube

